S A R A H I R V I N G

سيرة
AUTOBIOGRAPHY

سارة إرفنج

ليلى خالد

أيقونة التحرّر الفلسطينيّ

ترجمة: عبلة عودة

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب:
Leila Khaled: Icon of Palestinian Liberation/by: SARAH IRVING
1st published 2012, by Pluto Press © Sarah Irving

ليلى خالد، أيقونة التحرّر الفلسطيني/ سيرة
سارة إرفنج/ مؤلفة من بريطانيا
ترجمته عن الإنجليزية: **عبلة عودة/ مترجمة من فلسطين**
الطبعة الأولى، 2013
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب 5460-11 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب 9157 ، هاتف 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكتروني : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفني:

خطوط الغلاف: زهير أبو شايب
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر**
التنفيذ الطباعيّ : **دعمو برس / بيروت ، لبنان**

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أونقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر .

ISBN: 978-614-419-330-3

سيرة
AUTOBIOGRAPHY

سارة إرفنج

ليلى خالد

أيقونة التحرّر الفلسطينيّ

ترجمة: عبلة عودة

إهداء المؤلفة

إلى ثلاثة أجيال من النساء الرائعات ،
ميج ، كاثي ، ليلى ومرين .
وإلى مارك وزوي وفيف

المحتويات

اهداء المؤلفة	5
شكر وعرفان	9
تقديم	11
الفصل الأول : حيفا ، لبنان والكويت	27
الفصل الثاني : ليلى المقاتلة	57
الفصل الثالث : أيلول الأسود	83
الفصل الرابع : زواج وموت	117
الفصل الخامس : نساء ثوريات	155
الفصل السادس : الانتقال إلى الأردن والعودة إلى فلسطين	187
الفصل السابع : مستقبل ليلى خالد ، ومستقبل فلسطين	215
المصادر والمراجع	231
الهوامش	233
الصور	247

شكر وعرفان

أقدم خالص شكري لليلى خالد ولخالد مقدسي وليندا كلير ونعيم وسامر ، ولكل الفلسطينيين في فلسطين وفي الشتات ممن لم يرغبوا بنشر أسمائهم ، ولكنهم أثروا كتابي هذا بأفكارهم وذكرياتهم ، وغمروني بكرمهم وحسن ضيافتهم . كما أقدم خالص عرفاني لجميع الفلسطينيين الذين يقبعون تحت الاحتلال العسكري الإسرائيلي ، وأولئك البعيدين عن وطنهم وعن أحبتهم ، ممن أشعلوا روح الحماسة والتضامن في قلوب جميع المؤمنين بالعدالة . وأخيراً أتوجه بشكري العميق لديفيد كاسل في دار بلوتو للنشر على جهده الكبير في إخراج هذا الكتاب ، وأشكر كذلك حركة التضامن العالمية التي أوصلتني إلى فلسطين بدايةً .

تقديم

جلست شابة جميلة ترتدي بدلة بيضاء وقبعة خفيفة بالإضافة لنظارات شمسية داكنة تغطي جزءاً كبيراً من وجهها ، في مطار روما في ٢٩ أغسطس عام ١٩٦٩ . كانت الفتاة تنتظر طائرة تي دبليو أي ٨٤٠ وقد بدا عليها التوتر ، ولكن أياً منا قد يتوتر قبل الصعود إلى الطائرة ، غير أن تلك الفتاة التي تشبه أودري هيبورن في حلتها الصيفية تلك ، استطاعت تهريب مسدس وقنبلة يدوية في أمتعتها دون أن تكشفها الأجهزة الأمنية في المطار ، وكانت تجلس في قاعة الانتظار بالمطار ، متجاهلة رجلاً يجلس في الطرف الآخر من القاعة ، الذي سنعرف فيما بعد أنه سليم العيساوي ، وأن الفتاة هي ليلى خالد ، وكلاهما رفيقان في وحدة كوماندو تشي غيفارا التابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وكانا في طريقهما لتنفيذ عملية جريئة لاختطاف طائرة تي دبليو أي ٨٤٠ وإجبارها على تغيير مسارها .

لقد أجبرت ليلى خالد وزميلها سليم العيساوي قائد الطائرة على تغيير مسار الرحلة إلى أثينا ثم التحليق فوق حيفا

مسقط رأس ليلى خالد ، تلك المدينة التي لا يمكنها زيارتها بعد أن أصبحت لاجئة فلسطينية . وبعد ذلك تم توجيه الطائرة نحو دمشق وسط خوف المسافرين وهلعهم ، غير أن أحداً منهم لم يصب بأذى في النهاية ، مع أن العملية انتهت بتفجير مقدمة الطائرة في مطار دمشق ، الأمر الذي لفت انتباه الصحافة بشدة ، وأخذت وسائل الإعلام الغربية تتناقل أخبار «الخاطفة» وتنشر ما أتيح لها من صور ، ولكن بدلاً من أن تستقبل ليلى خالد المصورين والصحافيين من مندوبي وسائل الإعلام لتعرض أمامهم القضية التي تكافح من أجلها ، أخذت تبحث عن جراح تجميل في بيروت يستطيع تغيير هيأتها بعد أن أصبحت ملامحها معروفة للعالم أجمع . لقد عرفت ليلى أن هناك المزيد من العمليات في انتظارها ، ولم تكن لتتخلى عن تلك الفرصة بالطبع ، ولذلك خضعت في ذلك الوقت لست عمليات جراحية في وجهها بدلت ملامحها بالكامل .

مرة أخرى ، يظهر شاب وفتاة في مطار أمستردام في السادس من سبتمبر عام ١٩٧٠ ، يحملان جوازات سفر هندوراسية ويستعدان للصعود على متن طائرة العال من فئة بوينج ٧٠٧ المتجهة إلى نيويورك . أما الشاب فهو باتريك أرغويلو من نيكاراغوا وعضو في الحركة الساندينية التي حررت نيكاراغوا لاحقاً من حكم الطاغية سوموزا ، وبالنسبة لرفيقة باتريك ، فلم تكن إلا ليلى خالد .

جلس الرفيقان بهدوء في الصف الثاني من القسم المخصص لركاب الدرجة السياحية في الطائرة ، وما إن حلقت الطائرة فوق منطقة القنال الإنجليزي ، حتى غادرا مقعديهما محاولين الدخول إلى غرفة القيادة والاستيلاء عليها ، غير أن قائد الطائرة تصرف بسرعة غير متوقعة بأن حرف مسار الطائرة نحو الأسفل فجأة مما أخلَّ بتوازن الخاطفين وأدى إلى سقوطهما على الأرض ، وأطلق حرس الطائرة النار على باتريك فأردوه قتيلاً ، أما ليلى خالد فقد ضُربت وكُبلت ، لتتحفظ عليها الشرطة البريطانية لمدة شهر في مركز إيلنج للشرطة في لندن بعد أن هبطت طائرة العال اضطرارياً في لندن .

كانت ليلى تُنقل إلى لندن في سيارة إسعاف بريطانية ، بينما كان رفاقها الآخرون في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين يختطفون عدداً آخر من الطائرات فوق أوروبا والشرق الأوسط ويتوجهون بها جميعاً إلى مطار دوسون(*) في الأردن ، حيث كان من المقرر أن يتوجه أرغويلو وليلى بعد اختطاف الطائرة الإسرائيلية . لقد سبب خطف الطائرات وتوجيهها إلى الأردن في ذلك الوقت أزمة دولية حقيقية عمّقت الصراع الموجود بالفعل في الشرق الأوسط وكادت تودي به إلى نقطة

(*) مطار حربي بريطاني قديم شمال شرق الأردن ، متعارف على تسميته بمطار الثورة . (المترجمة) .

اللاعودة ، كما ساهم في إشعال حرب أهلية في الأردن بين المنظمات الفلسطينية المسلحة وقوات الجيش الأردني .

أُطلق سراح ليلى خالد من سجنها في لندن دون توجيه أي تهم محددة لها ، مع أن ضلوعها في عملية اختطاف الطائرة الإسرائيلية كان واضحاً للجميع ، وذلك بعد أن طالب رفاقها في مهبط دوسون مبادلتها بعدد من ركاب الطائرات المختطفة ، وقد حدث ذلك بالفعل .

لا تزال ليلى خالد حتى الآن من أشهر نساء فلسطين ، يرى فيها البعض أيقونة للثورة والتحرر الوطني ، كما تتهمها بعض الحركات النسوية باستغلال صورة المرأة الفلسطينية ومعاناتها للترويج للفكر اليساري وتحقيق مكاسب سياسية ، ويرى فيها آخرون الإرهابية القديمة التي يجب منعها من زيارة بلدانهم ، غير أن كل ذلك لم يثن ليلى يوماً عن متابعة مسارها السياسي ، حتى بعد أن اغتيلت شقيقتها بطريق الخطأ بعد أن أعتقد الجناة أنها ليلى خالد ذاتها . لقد شكّل الوطن السليب حياة ليلى بعد أن أُجبرت على مغادرته طفلةً صغيرةً ، كما زرع قيام دولة إسرائيل على أنقاض الوطن ، عداءً عميقاً في قلب ليلى تجاه تلك الدولة . لقد حفرت اللحظات التاريخية التي عاشتها ليلى خالد في خطف الطائرات عامي ١٩٦٩ و١٩٧٠ صورتها لدى العامة ، التي كانت في وقت من الأوقات الصورة الوحيدة المعروفة عن ليلى خالد ، غير أن حياتها لم تقف عند

تلك اللحظات فقط ، بل أصبحت زوجة وأمّاً ومعلمة وعضواً في المجلس الوطني الفلسطيني ؛ وقيادية في الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية ، ومثلها مثل عدد كبير ممن كانوا يوصفون «بالإرهابيين» ، انتقلت ليلى من ساحة الكفاح المسلح إلى ساحة العمل السياسي ، إذ فتحت صورتها الأيقونية أمامها أبواباً كثيرة للكفاح السياسي وفرضت على الآخرين احترام رأيها ، ومع ذلك فتلك الصورة ذاتها منعتها من دخول عدد من البلدان التي ما تزال حكوماتها ترى أنها «إرهابية» . وقد منحت الحكومة البريطانية تأشيرة دخول لليلى خالد عام ٢٠٠٢ للمشاركة في عدد من الفعاليات حول القضية الفلسطينية ، إلا أنها عادت ورفضت جميع محاولات ليلى للحصول على تأشيرات أخرى لزيارة بريطانيا بعد ذلك التاريخ . وقد قابلتُ ليلى للمرة الأولى أثناء زيارتها لأحد المراكز النسائية في مانشستر عام ٢٠٠٢ ، وذلك بعد عودتي مباشرة من زيارة للضفة الغربية ، عملت خلالها مع منظمات حقوقية أثناء العدوان الإسرائيلي الأوسع في تلك الفترة ، الذي فرض إقامة جبرية على الرئيس عرفات داخل مقر إقامته في رام الله ، وفي الوقت ذاته كانت القوات الإسرائيلية تحاصر كنيسة المهد والميدان المحيط بها ، بعد أن تحصن داخل الكنيسة عشرات من المقاتلين الفلسطينيين والمدنيين من سكان مدينة بيت لحم ، هرباً من الاجتياح الإسرائيلي للمدينة ، وقد استمر الحصار

ستة أسابيع متواصلة وانتهى إثر مفاوضات مضنية بين منظمات دولية وإنسانية وإسرائيل ، التي خلصت إلى إبعاد المسلحين الفلسطينيين عن الضفة الغربية إلى غزة وبعض الدول الغربية . ولم تسلم جنين ونابلس من العدوان الإسرائيلي كذلك ، إذ هدمت الجرافات الإسرائيلية عدداً كبيراً من البيوت الفلسطينية على رؤوس أصحابها بحثاً عن المقاتلين الفلسطينيين .

وسط هذا الجو الزاخر بالأحداث ، التقيت ليلى خالد في مانشستر للمرة الأولى في اجتماع لمنظمة نسائية ، وما إن عَرَفت ليلى شخصيتي حتى اقتربت مني واحتضنتني بقوة قائلةً إنها تريد أن تتشبع برائحة بلادها من خلالي بعد أن عَلمت أنني كنت في فلسطين منذ فترة وجيزة .

كانت ليلى خالد في أواخر الخمسينيات في ذلك الوقت ، امرأة قوية ورائعة ، أسرت اهتمام الحاضرين جميعاً في بيت الصداقة في مانشستر ، عندما أخذت تتحدث عن حقوق شعبها ومعاناته تحت الاحتلال الإسرائيلي ، دون التطرق إلى تاريخها الشخصي كأيقونة فلسطينية معروفة ، وبصوت عميق مجروح بتأثير عادة التدخين لسنوات طويلة ، أخذت ليلى تروي التفاصيل اليومية للصراع الدائر بين الفلسطينيين وعدوهم الشرس في الأراضي المحتلة وخارجها ، أما مساء ذلك اليوم فقد التقيت بليلى مرة أخرى حول مائدة العشاء في أحد المطاعم ،

حيث وجدتُ ليلى الإنسانة والمرأة البسيطة بعيداً عن أجواء السياسة والقتال ، وأخذت تحدثني بأنها تنحدر من عائلة تنتمي للثقافة الإسلامية ، التي تغلب على المجتمع الفلسطيني وتؤثر في أفراده ، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين ، ثم توجهت إليّ بالحديث موضحة أنني فتاة شابة ولا بد أن أعرف أن المتع الحقيقية في الحياة ليست أكثر من الطعام اللذيذ والشراب الجيد وقصص الحب الجميلة! ولم أكن أتوقع تصريحات كهذه بالطبع من مناضلة ومقاتلة خطفت طائرتين في السابق لخدمة قضية بلادها .

لم يُكتب الشيء الكثير عن ليلى خالد في السابق ، وقد ظهرت سيرة ذاتية لها عام ١٩٧٣ ولم تكن تبلغ الثلاثين من عمرها بعد ، كتبها جورج حجار الذي كان ينتمي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، ويعمل في الدائرة الإعلامية للجبهة ، وقد أرادت الجبهة أن تستغل أحداث خطف الطائرات عام ١٩٧٠ إعلامياً لتحقيق مكاسب سياسية ، وتقول ليلى بأنها قضت أياماً طويلة تملي مذكراتها على حجار ، ثم تراجع كلَّ فصلٍ على حدة عندما ينتهي من كتابته . لقد نفدت جميع نسخ الكتاب من الأسواق منذ زمن بعيد . وما تبقى من نسخ سليمة لا تزال حتى الآن تُباع وتشترى بمئات الجنيهات من قبل المهتمين بالموضوع . هناك أيضاً كتاب «ليلى وحرب الاختطاف – Leila's Hijack War» الذي ألفه الإعلامي بيتر

سنو وديفيد فيلبس بعد حوادث خطف الطائرات عام ١٩٧٠ ، وقد سلطا الضوء فيه على تجارب ضحايا الاختطاف من البريطانيين ، أكثر مما تحدثا عن ليلى التي يحمل عنوان الكتاب اسمها . وظهرت ليلى كذلك في فصل من فصول كتاب إلين ماكدونالد الذي نُشر بعنوان «الإرهابيات ، اقتل النساء أولاً Women Terrorists, Shoot the Women First» . وقد اعتمدت إلين في الحديث عن ليلى على مقابلة أُجريت معها عندما كانت تسكن في مخيم اليرموك في دمشق . وإذا ما استثنينا تلك الكتب ، فإن القارئ باللغة الإنجليزية لن يجد ما يروي ظمأه من معلومات حول ليلى خالد ، إلا بعض المقالات في صحيفة «الغارديان – Guardian» البريطانية ، وبعض الصحف اليسارية الأخرى ، وبعض المعلومات في مجلة «أمن الطيران الدولية Aviation Security International» . يحاول هذا الكتاب الذي بين أيديكم أن يملأ هذا الفراغ بكمية من المعلومات حصلنا عليها في أثناء عدة مقابلات مع ليلى خالد في منزلها في عمّان ، وقد جرت معظم المقابلات عام ٢٠٠٨ ، كما استقينا معلوماتنا من مجموعة أخرى من المقابلات والكتب والمقالات ، سواء منها المعارضة لأفكار ومبادئ ليلى خالد أو الداعمة لها ، وبالإضافة إلى التوثيق للأحداث التي مرت في حياة ليلى خالد ، فقد حاولنا استعراض بعض القضايا والمواضيع التي تثيرها في سيرتها ، مثل موضوع المناضلين الذين

يبدأون حياتهم بالكفاح المسلح وينتهون إلى حلبة المفاوضات السياسية ، وكيف ولماذا يقرر أشخاص بعينهم ولا سيما النساء ، اللجوء إلى الكفاح المسلح؟ ماذا يكسبون وماذا يخسرون؟ كيف ترتبط ثورة الجناح اليساري التي تنتمي إليها ليلى خالد بالأحزاب الإسلامية التي تسيطر على المقاومة الفلسطينية المسلحة اليوم؟ وأخيراً ، كيف ترتبط الصورة الرومانسية للإرهابية التي أسبغها الإعلام الغربي على ليلى خالد بتشبيهها بأودري هيبورن ، بالصورة الأوسع للصراع الفلسطيني؟

عندما اختطفت ليلى خالد طائرتها الأولى ، كانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين منظمة يسارية ، تتمتع بعلاقات واسعة مع منظمات دولية حول العالم ، وكان هدفها الواضح والمعلن تحرير فلسطين وإعادة الفلسطينيين إلى بلادهم التي تركوها قبل عشرين عاماً في ذلك الوقت . كان ذلك عصر تشي غيفارا الذي قُتل قبل ذلك التاريخ بعامين في بوليفيا ، وعصر حركات التحرر في جنوب شرقي آسيا ، وكان حق المنخرطين في المقاومة المسلحة للدفاع عن حرياتهم أمراً مطروحاً على مستوى العالم ، كما زينت صور أبطال الحركات التحررية جدران غرف الطلاب وبيوت اليساريين في كل مكان ، وفي الوقت ذاته كانت الموجة الثانية من الحركات النسوية تأخذ طريقها إلى الدول الغربية ، مضيفة عاملاً آخر إلى البيئة التي استقبلت

أخبار تلك الشابة خاطفة الطائرات .

بالنسبة للشرق الأوسط ، كانت الأمور سيئة للغاية ، فقد هزمت إسرائيل جيوش مصر والأردن وسوريا مجتمعة في حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ ، واستولت على ما تبقى من الأراضي الفلسطينية غرب نهر الأردن التي كانت تحت الحكم الأردني ، وشمال سيناء التي كانت تحت الإدارة المصرية ، بمن في ذلك اللاجئون الذين وفدوا إلى تلك المناطق عام ١٩٤٨ عند قيام دولة إسرائيل . ومع كل تلك الأحداث ظلت القضية الفلسطينية هامشية بالنسبة لبقية دول العالم ، وكان الغرب ينظر إلى الفلسطينيين على أنهم مجموعة صغيرة من اللاجئين كانوا ضحية الصراع العربي – الصهيوني في الشرق الأوسط ، وتستخدمهم الدول العربية ذريعة لمهاجمة إسرائيل .

أخذت النقمة تتزايد في أوساط اللاجئين الفلسطينيين في المخيمات التي تكاثرت وانتشرت في الأردن ولبنان وسوريا ، وخاصة بعد حرب عام ١٩٦٧ التي فقدت بعدها الحكومات العربية مصداقيتها أمام شعوبها عامة ولا سيما الفلسطينيين ، وبدأت حركات المقاومة التي تكونت أواسط الستينات تتجذر وتصبح أكثر تطرفاً وشعبية لدى الجماهير ، وتصف روزماري صايغ التي عايشت فترة السبعينات في لبنان تلك الفترة بقولها :

«لا يمكننا أن ننظر إلى حركات المقاومة الفلسطينية بمعزل

عن السياق التاريخي الذي نشأت فيه ، فبعد حرب الأيام الستة والهزيمة المهينة التي مُنيت بها الجيوش العربية ، ظهرت المقاومة الفلسطينية وكأنها طائر الفينيق يخرج من بين الرماد ليشعل الأمل من جديد في النفوس المنكسرة ، وقد لقيت المقاومة ترحيباً واسعاً لدى الرأي العام العربي ، حتى أن بعض القوميين أخذوا يدعون الفدائيين «بالملائكة» و«المخلصين» من شدة حماسهم لأولئك المقاتلين الفلسطينيين الذين وُلدوا من رحم الهزيمة والمعاناة . لم يدُم هذا الدعم طويلاً بطبيعة الحال ، ولكنه أدى في تلك الفترة على الأقل إلى إجبار الأنظمة العربية على دعم المقاومة الفلسطينية رسمياً ، وهكذا أخذت المقاومة مكانها العالمي إلى جانب حركات التحرر الأخرى في العالم الثالث التي كانت تناضل جميعها ضد الهيمنة السياسية والاقتصادية للولايات المتحدة ، وبذلك كانت المقاومة الفلسطينية تغذي بذور الاحتجاج والرفض في العالم العربي وتفضح في الوقت ذاته الطبيعة الرجعية للأنظمة العربية[1] .

لقد جعلت حادثة اختطاف الطائرة عام ١٩٦٩ ليلى خالد رمزاً شهيراً لعدة أشهر ، غير أن محاولتها الثانية عام ١٩٧٠ وما تبعها من تفجير الطائرات في الأردن ، وما تبع ذلك من مواجهات بين المقاتلين الفلسطينيين والجيش الأردني ، ثم التدخل السوري والإسرائيلي والسوفييتي وكذلك الولايات المتحدة ، لدعم هذا الطرف أو ذاك ، في ما كان يشبه الحرب

الأهلية في الأردن ، أدى كل ذلك إلى تخليد صورة ليلى خالد المقاتلة إلى الأبد ، لا سيما بعد انتقال الفلسطينيين من الأردن إلى لبنان إثر أحداث أيلول الأسود ، ثم من لبنان إلى تونس بعد الاجتياح الإسرائيلي لبيروت عام ١٩٨٢ ، ومن شتات إلى آخر ، احتفظت صورة ليلى خالد الفدائية بألقها وغموضها ، جنباً إلى جنب مع صورة تشي غيفارا وغيره من أبطال ذلك العصر ، غير أن صورة ليلى كانت تتمتع برمزية خاصة ، فقد جسدت المرأة الفلسطينية الثائرة في أبهى صورها . وليس ذلك فحسب ، بل جسّدت أيضاً الجناح اليساري في الثورة الفلسطينية ، ومما لا شك فيه أن تلك الصورة الرمزية لليلى خالد ، وهي تحمل بندقيتها ، غيّرت نظرة العالم الغربي للمرأة الفلسطينية بصورة واضحة .

تقول الكاتبة النسوية روبن مورغان : «بالنسبة للغرب هناك نمطان معروفان للمرأة الفلسطينية ، الأول هو نمط ليلى خالد المقاتلة ، والثاني نمط اللاجئة الفلسطينية الأميّة ، التي ترغب بإنجاب أكبر عدد من الأطفال لخدمة الثورة»[2] .

قد لا يعبر هذا التعميم عن واقع الفلسطينيين الحقيقي ، لكنه يوضح بالتأكيد الصورة التي رسمها الغرب لليلى خالد ، بالإضافة لمجموعة أخرى من المقاتلين الفلسطينيين ومن بينهم ياسر عرفات ذاته ، فقد ارتبط هؤلاء بفكرة الأعمال الإرهابية ، حتى قبل أن تشيع العمليات الاستشهادية التي ظهرت لاحقاً .

يُصـر بعض الفلسطينيين ، ومن بينهم ليلى خـالد ، أن الكفاح المسلح حق مشروع للفلسطينيين للدفاع عن أنفسهم ، والسبيل لتحرير فلسطين ، ويرى آخرون ، ومن بينهم المتعاطفين مع القضية الفلسطينية من غير الفلسطينيين ، أن العنف المسلح يصب في مصلحة إسرائيل ويحجب المقاومة السلمية التي ينتهجها القابعون تحت الاحتلال الإسرائيلي في حياتهم اليومية في الأراضي المحتلة ، أو أولئك الذين يعيشون في مخيمات الشتات ويعانون القهر والتمييز في البلدان التي لجأوا إليها .

هل تحيل صورة ليلى خالد الصراع الفلسطيني إلى موضوع غامض ، ساحر ، قائم على الاجتماعات السرية والمكائد الدولية؟ أم أن تلك الصورة تحجب المقاومة اليومية للفلسطينيين العاديين في مدنهم وقراهم ، كما فعل أهالي بلدة بيت ساحور في الضفة الغربية ، عندما أعلنوا العصيان المدني إبان الانتفاضة الأولى ورفضوا دفع أي نوع من الضرائب لحكومة إسرائيل؟

تحتل صورة ليلى خالد كذلك عدداً كبيراً من المواقع على شبكة الانترنت ، حيث يرى فيها كثير من الرجال الصورة المثالية للمرأة الشرسة ، التي تحتضن البندقية وتتعامل بما يتوافق مع توجهاتهم المتطرفة[3] . وبالنسبة لبعض الناشطات في الحركات النسوية العالمية تعتبر ليلى ملهمة من الدرجة الأولى ، نظراً لارتباطها بالكفاح المسلح ، الذي كان في حينها «عالماً رجالياً» محضاً ، وخاصة لبعض الناشطات السود ، اللواتي

يضعن ليلى في مصاف المناضلات العالميات ، من أمثال النمرة السوداء أساتا شاكور(*) ، فمثلها مثل أساتا ، تعيش ليلى مقاومتها الخاصة بالتوازي مع أخريات يناضلن على المستوى النظري والحقوقي[4] .

كما تصف الأستاذة أيلين كُتاب من جامعة بير زيت في الضفة الغربية ، الرموز النسائية المناضلة من أمثال ليلى خالد بأنها «ربطت صراعها الخاص المتمثل في التحرر النسائي ضمن مجتمع ذكوري ، بقضية التحرر الوطني ضد المحتل»[5] ، وبذلك مهّدت تلك الرموز الطريق لنساء أخريات للمشاركة في النضال ، وقد بدا ذلك واضحاً خلال الانتفاضة الأولى التي بدأت أواخر الثمانينات ، حيث شاركت النساء كما الرجال في مختلف فعاليات الانتفاضة . ومع ذلك فهناك آخرون يعتقدون أن تاريخ ليلى النضالي العنيف وكفاحها المسلح ، من خلال منظمات يهيمن عليها الرجال في الأغلب ، يشير إلى أنها قد وضعت مصلحة بنات جنسها في المرتبة الثانية بعد مصالح

(*) أساتا شاكور Assata Shakur ، ناشطة أمريكية من أصول أفريقية ، كانت عضواً في حزب الفهد الأسود ، وفي جيش التحرير الأسود ، حُكم عليها في عدة قضايا في السبعينيات وسُجنت لعدة سنوات ثم هربت من سجنها عام ١٩٧٩ ولجأت إلى كوبا عام ١٩٨٤ ، ولا زالت تعيش في ظل اللجوء السياسي هناك حتى الآن . (المترجمة) .

المؤسسة الذكورية ، تماماً كما فعلت مارغريت تاتشر وكوندوليزا رايس . كما تنتقد روبن مورغان ليلى خالد في كتابها «عاشقة الشيطان Robin Morgan, The Demon Lover» الذي يتناول موضوع العنف والجندرية ، لأنها اتخذت من طريق الإرهاب الذكوري منهجاً للكفاح وتجاهلت حاجات المرأة الفلسطينية ، وخانت بذلك القضية النسوية ، «فالمرأة لا يمكنها أن تتمرد وتكافح من خلال النموذج الذكوري حتى النهاية ، ولا بد لها في ظل هذا النموذج من أن تقدم فروض الولاء والطاعة للسلطة الذكورية ، ولكن يمكن للمرأة أن تثور وتكافح من خلال المؤسسة الذكورية إلى حدٍّ معين حيث تبدأ كفاحها النسوي الخاص»[6] .

تضيف مورغان : «إن ليلى كانت شابة يافعة تشبه الممثلة الشهيرة أودري هيبورن ، عندما قامت بأول عملية اختطاف طائرة ، فكانت بذلك أول امرأة خاطفة عرفتها وسائل الإعلام»[7] .

مع أن مورغان تعترف بدور وسائل الإعلام في تنميط صورة ليلى خالد في ذلك الوقت ، إلا أنها لا تُقر بوقوعها شخصياً ، ضحية للصورة النمطية للإرهابية الجميلة التي رسمتها الصحافة لليلى خالد في السبعينات ، وبالطبع لم تكن مورغان الوحيدة التي تأثرت بتلك الصورة النمطية ، فقد امتد التأثير إلى عدد كبير من الأكاديميين والمحللين الغربيين ، الذين

تعاطوا الشأن الفلسطيني خاصة والشؤون السياسية والنسوية عامة ، ممن نظروا إلى عدد من الرموز الثورية في ذلك الوقت مثل ليلى أو تشي غيفارا نظرة سطحية محكومة بالصورة النمطية التي شاعت عنهم في الغرب .

لا تزال ليلى خالد حتى اليوم رمزاً ملهماً للكثيرين ، برغم ما تحفل به حياتنا المعاصرة من رموز فنية ورياضية وسياسية تسوقها وسائل الإعلام يومياً دون كلل أو ملل ، ولكن تبقى مهمتنا الصعبة كباحثين ومؤلفين ، تقديم نماذج ليلى وغيرها من الشخصيات الثورية التي صنعت التاريخ في وقت من الأوقات ، دون الانزلاق في فخ الأحكام المسبقة ، بل تقديمها كشخصيات إنسانية اختارت طريق الكفاح السياسي ، سواء المسلح أو السلمي ، لخدمة القضايا التي تؤمن بها ، ولعلنا في أثناء تعرفنا على حياة تلك الشخصيات نتعلم شيئاً هنا أو هناك من خياراتهم الشخصية والعامة ، والظروف التي دفعتهم لخيارات بعينها دون غيرها .

الفصل الأول
حيفا، لبنان والكويت

وُلدت ليلى خالد في التاسع من إبريل عام ١٩٤٤ في مدينة حيفا الساحلية ، ونشأت في عائلة من الطبقة المتوسطة ، فقد كان والدها السيد علي خالد يمتلك مقهى في المدينة ، أما والدتها فقد تفرغت لرعاية أطفالها الإثني عشر ، وُلد أصغرهم ناصر في مدينة صور اللبنانية بعد أن لجأت العائلة إلى لبنان بعد نكبة عام ١٩٤٨ ، أما ليلى فقد كان ترتيبها السادس بين إخوتها .

تُقدم إسرائيل صورة مشرقة عن حيفا الحديثة بأنها مدينة التعايش السلمي بين العرب واليهود من سكان المدينة ، وهي الصورة التي تسعى دائماً لتسويقها لدى الإعلام الغربي ، وبالطبع كان سكان مدينة حيفا من مسلمين ومسيحيين ويهود يعيشون معاً في انسجام تام منذ زمن بعيد ، شأنهم في ذلك شأن جميع سكان فلسطين عبر التاريخ ، ولكن الحقيقة البشعة التي تحاول إسرائيل إخفاءها الآن هي أن المواطنين العرب في حيفا يعانون شتى أنواع التمييز والتهميش السياسي والاقتصادي في ظل دولة إسرائيل .

كانت تقطن حيفا جالية يهودية بسيطة عام ١٨٥٤ لا يزيد عددها عن ٣٢ شخصاً من مجموع سكان المدينة البالغ عددهم ٢,٠١٢ ، منهم ١,٢٠٠ نسمة من المسلمين والباقي من المسيحيين ، جلُهم من الطائفة الأرثوذكسية التي ينتمي إليها معظم المسيحيين في فلسطين ، مع وجود عدد ضئيل من الكاثوليك والبروتستانت[1] .

مع حلول عام ١٩١١ ، كانت غالبية السكان في حيفا لا تزال من العرب ، غير أن المستوطنين اليهود أخذوا يزدادون بعد عام ١٩٢٠ تدعمهم الوكالة اليهودية العالمية والمنظمات الصهيونية الأمريكية[2] ، وفي عام ١٩٢٩ بدأت تظهر صراعات مختلفة في جميع أنحاء فلسطين مع زيادة أعداد المستوطنين اليهود وبروز الأزمة الاقتصادية العالمية ، وظهرت مخاوف جديدة لدى سلطة الانتداب البريطاني من تعرض قواتها بالإضافة للمستوطنين اليهود لهجمات عنيفة في مدينة حيفا[3] ، وقد تحققت تلك المخاوف بالفعل أثناء الثورة العربية في فلسطين التي امتدت منذ عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٣٩ ، وتمت خلالها مهاجمة قوات الانتداب البريطاني والمستوطنين اليهود عدة مرات ، وفي عام ١٩٣٨ قام إرهابيان يهوديان بزرع قنبلة في حيفا قتلت ٦٠ فلسطينياً ، كما قتل الفلسطينيون عدداً من اليهود والعرب الذين كانوا يعملون في الشركات اليهودية في الفترة ذاتها[4] .

تحولت حيفا من مدينة صغيرة لا يزيد عدد سكانها على ألفي نسمة عام ١٨٥٩ ، إلى إحدى المدن الرئيسية في فلسطين بعد أن طورتها سلطة الانتداب البريطاني لتصبح ميناء حيوياً يضاهي ميناء مدينة عكا التاريخية ، وتنتهي فيه أنابيب البترول التي تحمل النفط العراقي لتصديره إلى أوروبا ، كما كانت إحدى محطات سكة حديد الحجاز التي ربطت حيفا بمدينة دمشق[5] ، وقد ساهم تطور المدينة وتوسعها في اجتذاب عدد أكبر من المهاجرين اليهود إليها في ثلاثينات القرن العشرين ، بالإضافة إلى عدد كبير من الفلسطينيين الميسورين من أبناء الطبقة المتوسطة ، الذين ساهموا لاحقاً ، بعد تهجيرهم من فلسطين ، في بناء مدن عربية أخرى مثل عمّان ، وتحويلها إلى مراكز ثقافية واقتصادية مهمة في الشرق الأوسط[6] .

أخذ الصراع يتزايد بين سكان حيفا من الفلسطينيين والمجموعات اليهودية الجديدة التي قدمت إلى البلاد ، ففي عام ١٩٤٦ قامت ميليشيات البلماخ اليهودية[*] بمهاجمة خطوط

(*) البلماخ : ميلشيات مسلحة تابعة لمنظمة الهاجاناه ، الجيش غير الرسمي للمستوطنات اليهودية أثناء فترة الانتداب البريطاني على فلسطين ، وقد كوّن أعضاء هذه الميلشيات النواة الأولى لجيش الدفاع الإسرائيلي فيما بعد ، ومن أهم قادة تلك الميليشيات ، إسحاق ساديه وموشيه دايان وإسحق رابين . (المترجمة) .

السكك الحديدية في حيفا ، فردت عليها قوات الانتداب البريطاني باعتقال ٣٠٠٠ ناشط صهيوني في جميع أنحاء فلسطين[7] ، كما بدأت قوات الأرغن الصهيونية المسلحة بمهاجمة القرى العربية حول مدينة حيفا ، وفي المقابل قام العرب بالرد على تلك الاعتداءات بمهاجمة المناطق اليهودية[8] . مع تصاعد مخاوف الفلسطينيين من تزايد أعداد المستوطنات اليهودية في حيفا والمناطق المجاورة لها[9] ، ومع انتشار العنف والاعتداءات اليهودية المتكررة على السكان الفلسطينيين العزّل ، بما في ذلك مذبحة دير ياسين في التاسع من إبريل عام ١٩٤٨ ، قررت عائلة ليلى خالد مغادرة حيفا في الثالث عشر من إبريل في العام ذاته .

غرقت حيفا في الفوضى مع تدهور الأوضاع الأمنية في سائر المدن الفلسطينية في إبريل من عام ١٩٤٨ ، وانسحاب القوات البريطانية إلى منطقة المرفأ في الواحد والعشرين من إبريل ، تاركة المجال مفتوحاً أمام قوات الهاجانا لاحتلال المدينة والسيطرة عليها خلال يومين ، أما ما حدث بعد ذلك فيظل موضوع جدل كبير . لقد غادر قائد القوات الفلسطينية موقعه في حيفا في الليلة الأولى ، على أن يعود بالمزيد من التعزيزات لقواته غير أنه لم يعد مطلقاً ، وفي الثاني والعشرين من إبريل أمرت قيادة القوات العربية السكان الفلسطينيين بالبقاء في حيفا[10] ، وكذلك فعلت قيادة القوات اليهودية ، غير أن القيادة

العربية العليا في دمشق عادت وتراجعت عن أوامرها الأولى بالبقاء ، ودعت السكان إلى إخلاء المدينة لأنها ستقصف القوات اليهودية بالقنابل[11] ، فأطاع سكان المدينة أوامر القيادة العليا وغادر الكثير منهم المدينة ، حيث تعرضوا لمعاملة سيئة من قوات الهاجانا وإرغون التي انتشرت في أحياء حيفا تبحث عن المقاتلين في كل مكان ، وهكذا لم يتبق في حيفا في الأول من مايو غير ثلاثة إلى أربعة آلاف شخص من مجموع سكانها الأصليين[12] .

تحمل ليلى خالد ذكريات جميلة عن طفولتها الأولى في حيفا ، برغم تصاعد التوتر بين الفلسطينيين واليهود في تلك الفترة ، وتشير ليلى في مذكراتها التي نُشرت عام ١٩٧٣ إلى أنها كانت تعيش وسط عائلة متحررة نوعاً ما ، تربطها علاقات جيدة بجيرانها في الحي اليهودي في حيفا ، كما تذكر صداقتها مع طفلة يهودية في مثل عمرها آنذاك تدعى تمارا ، وتقول إن علاقتها مع تمارا ظلت طيبة حتى التاسع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٤٧ ، عندما أقرت الأمم المتحدة قرار تقسيم فلسطين بين العرب الفلسطينيين واليهود ، وتضيف ليلى «كان قرار التقسيم نقطة مفصلية في علاقتي بتمارا ، إذ منحتها الأمم المتحدة ٥٦٪ من أرضي ، وكان من المفترض بي أن أقبل بذلك وأهنئ تمارا وشعبها»[13] .

غادرت عائلة ليلى مدينة حيفا عندما كانت في الرابعة

من عمرها ، ولذلك فإن ذكرياتها عن حيفا تبدو غامضة ومشوشة أحياناً ، يزيدها تشويشاً ذكريات ما بعد الهجرة من حيفا ، وتقول ليلى : «لقد كنت صغيرة جداً ، لكنني أذكر بعض الأشياء المتفرقة ، كان هناك درج في البيت نختبئ تحته عندما نسمع أصوات الاشتباكات في الشارع ، وأذكر أنه كان درجاً خشبياً مزخرف الحواف ، وفي إحدى المرات انقطعت الكهرباء عن البيت ، وجاء أحد أقرباءنا من الخارج وأخبر أمي أن هناك حظراً للتجول في الخارج ، وأخذت أتساءل في نفسي ، ترى ما هو حظر التجول؟ ظننت وقتها أن انقطاع الكهرباء هو حظر التجول ، وأخذت أردد الكلمة بطريقتي الطفولية وجميع من في المنزل يضحكون عليّ» ، وتضيف ليلى : «ما زلت أذكر أننا كنا خائفين معظم الوقت وخاصة في غياب والدي ، إذ كان يغيب عن المنزل كثيراً ، وأحياناً أسمعه يأتي متأخراً في الليل ويبقى مدة قصيرة في المنزل ثم يخرج ثانية» .

يعتبر الفلسطينيون يوم التاسع من إبريل ، وهو تاريخ ميلاد ليلى خالد ، يوماً مخصصاً للحداد على شهداء الشعب الفلسطيني الذين قضوا في مذبحة دير ياسين ، فقد ذبحت قوات عصابات أرغن وشتيرن أكثر من مائة شخص من سكان قرية دير ياسين البالغ عددهم ٧٥٠ شخصاً آنذاك ، في مجزرة مخيفة ستظل لطخة عار في تاريخ دولة إسرائيل[14] . وتذكر ليلى خالد في مذكراتها التي نُشرت عام ١٩٧٣ أنها لم تحتفل

بعيد ميلادها قط بعد عام ١٩٤٨ عندما كانت في الرابعة من عمرها ، وتضيف كذلك أنها رأت جثة لشخص ميت لأول مرة في حياتها في ١١ إبريل من ذلك العام ، وتقول «أتذكر إنني كنت مرعوبة جداً ، ولكنني لا أذكر إن كانت الجثة لشخص عربي أو يهودي ، كلّ ما أذكره سماع صوت انفجار قوي ثم تفجر الدم من معدة ذلك الشخص ، وعندها جريت لأختبئ تحت الدرج في منزلنا وبقيت أنظر لجثة ذلك الشخص في الخارج ، وأخذت أفكر إن كان أبي سيلاقي المصير ذاته في ذلك اليوم»[15] .

كانت أم ليلى وأشقاؤها من أوائل السكان الذين غادروا حيفا ، فقد استأجرت الأم سيارة في ١٣ إبريل عام ١٩٤٨ لتنقل العائلة إلى مدينة صور ، حيث يقطن أحد أقاربها ، وذلك بعد تواصل القتال في شوارع المدينة لعدة أيام ، وقد حضرت السيارة في الوقت المحدد ، غير أن رحيل العائلة تأخر ذلك اليوم ؛ لأن الأم كانت تحاول إبعاد جثة رجل آخر قُتل أمام منزلها تماماً ، وفي النهاية عندما أصبحت الطريق خالية ، كان على إحدى أخوات ليلى أن تحملها إلى السيارة رغماً عنها ؛ لأنها رفضت الخروج من المنزل وآثرت الاحتماء بالدرج . تقول ليلى : «أتذكر مطبخ منزلنا ، وأتذكر أنني كنت أحب التمر ، وقد أحضر والدي سلة كبيرة مليئة بالتمر يوم رحيلنا ، وقالت والدتي إننا ذاهبون إلى لبنان ، ولم يكن ذلك بالأمر الغريب ،

فقد كنا نذهب سنوياً إلى هناك ، وعندما انتهى الجميع من ترتيبات الرحيل ، بدأت أمي تعد أفراد عائلتها لتكتشف فرداً ناقصاً ، كُنت أنا ذلك الفرد ، فقد كنت أختبئ تحت درج المنزل إلى جانب سلة التمر التي خفت ألا ترافقنا في رحلتنا إلى بيروت» .

لقد أنقذت ليلى ببقائها إلى جانب سلة التمر حياة عائلتها ، لأن سائق السيارة لم يحتمل التأخير الذي سببه البحث عن ليلى وغادر المكان يحمل عائلة أخرى كانت ترغب في الرحيل عن حيفا ، غير أن قنبلة سقطت على السيارة في طريقها إلى الشارع الرئيسي في حيفا ، وقُتلت طفلتان كانتا ضمن العائلة المغادرة ، وتتذكر ليلى أن جارتهم كانت تقول لأمها : «لا تغضبي من ليلى ، لقد أنقذت حياتكم جميعاً» . وفي آخر محاولة لمغادرة حيفا ، كانت ليلى أول الراكبين في السيارة ، بناءً على أوامر مباشرة من أمها ، وتتذكر ليلى بأنها كانت تبكي لأنها رأت أمها تبكي ذلك اليوم وتقول : «كان الجميع يبكون يومها على غير العادة عندما كنا نذهب إلى بيروت في السابق ، فقد كانت رحلة بيروت سبباً لسعادة الجميع ، أما ذلك اليوم فقد كانوا جميعاً يبكون» .

تتذكر ليلى أن والدتها أخبرتها لاحقاً ، أن جارتهم اليهودية طلبت منها عدم الرحيل ، وعرضت على العائلة الإقامة في بيتها حتى يعود الهدوء إلى المدينة ، ولكن «في ذلك الوقت

كانت أخبار مذبحة دير ياسين تثير الرعب في نفوس الناس وتدفعهم إلى الرحيل ، وأعتقد أن الصهاينة كانوا يبثون الكثير من الشائعات التي تبالغ في تصوير المجزرة لبث المزيد من الخوف بين الناس وإجبارهم على الرحيل» .

لم تستغرق الرحلة من حيفا إلى صور أكثر من ساعتين ، وفق ما تذكره ليلى لكنها تقول : «كنا محشورين داخل السيارة طوال مدة الرحلة ، لكننا رأينا في طريقنا الكثير من اللاجئين يقطعون المسافة سيراً على أقدامهم باتجاه منفاهم الجديد» ، ولم يرافق والد ليلى عائلته إلى لبنان في تلك الرحلة ، فقد تخلف في حيفا لحراسة منزله ومقهاه لحين عودة الهدوء والأمن ومن ثم يدعو عائلته للعودة من جديد ، غير أن ذلك كان أملاً بعيد المنال ، فقد استولى الصهاينة على البيت والمقهى في ٢٢ إبريل[16] ، ولم يبق للرجل شيء ، فالتحق بالمقاومة الفلسطينية وأُرسل إلى غزة ثم إلى مصر وبعد هزيمة عام ١٩٤٨ عاد ليلتحق بعائلته في لبنان .

تستعيد ليلى ذكرى الشهور الأولى لإقامتهم في لبنان قائلة : «لا أذكر شيئاً عن تلك الفترة سوى أنني كنت أرافق شقيقاتي نوال وزكية ورحاب إلى مقر وكالة غوث اللاجئين لاستلام نصيبنا من المؤن ، وكانت أخواتي يشعرن بالذل في ذلك الموقف ، أما أمي فقد كانت دائما غاضبة»[17] .

قضت ليلى خالد وعائلتها عاماً كاملاً في منفاهم الجديد

في مدينة صور اللبنانية ، وتذكر ليلى تلك الفترة بالكثير من المرارة كما قالت لإيلين ماكدونالد «كان بيت عمي في صور حيث أقمنا محاطاً ببستان من أشجار البرتقال ، وكلما جعنا ، أنا والأطفال الآخرين في المنزل ، كنا نقطف بعض ثمار البرتقال لنأكلها ، لكن أمي كانت تضربنا على أيدينا وتوبخنا قائلة بأن تلك الثمار ليست لنا ومن غير المسموح لنا قطفها ، وأننا لسنا في فلسطين لنفعل ما نشاء ، ومنذ ذلك اليوم لم أعد أطيق أكل البرتقال ، وكلما رأيت برتقالاً أشعر بالحزن وأتذكر برتقالنا في حيفا الذي استولى عليه الآخرون»[18] .

تعترف ليلى خالد بأن وضع عائلتها حينها كان أفضل بكثير من أوضاع اللاجئين الفلسطينيين الآخرين ، فقد كان للعائلة أقارب في صور استضافوها بعد خروجها من حيفا ، بينما اضطر أغلب الفلسطينيين إلى اللجوء إلى مخيمات وكالة غوث اللاجئين «الأونروا» ، حيث لاقوا صنوف المذلة والهوان ، ومع ذلك ، ظلت تجربة اللجوء مريرة بالنسبة لليلى ، مقارنة بسنوات حياتها الأولى في حيفا ، وقد كانت تلك التجربة الدافع الأول وراء توجهها نحو العمل السياسي في عمر مبكر .

تقول ليلى : «كانت حياتنا في المنزل تعيسةً ، وكلما طلبنا شيئاً من والدتنا كنا نجابه بالرفض مصحوباً بالتفسير ذاته ، نحن لسنا في فلسطين» ، كل الحرمان الذي عشناه كان يرجع إلى سبب واحد ، نحن لسنا في فلسطين . عندما كبرنا بدأنا

نعي أننا بالفعل لن نحصل على أي شيء ما دمنا خارج فلسطين ، وهكذا فقد بدأت فكرة العودة إلى المنزل قبل أي مكان آخر لأنها ببساطة كانت الإجابة على جميع مطالبنا ، وأخذنا نفكر فيما حدث للفلسطينيين ، كيف ، ولماذا ، ومن المسؤول؟ أحياناً كان الناس يتهموننا بالتقصير والجبن ، وأننا تركنا بلادنا خوفاً ، وكانت هناك إشاعات حول فلسطينيين باعوا أرضهم لليهود ، وقد كان كل ذلك مهيناً جداً بالنسبة لنا» .

تشير ليلى بأن تهمة بيع الفلسطينيين أراضيهم لليهود ظلت تلاحق اللاجئين سنوات طويلة ، وفي عام ١٩٨٢ خلال الاجتياح الإسرائيلي للبنان ، كانت ليلى تعمل من خلال الإتحاد العام للمرأة الفلسطينية ؛ لإيجاد مساكن ملائمة وبعض الإمدادات العاجلة للنازحين اللبنانيين ، الذين هربوا من بيروت خوفاً من القصف الإسرائيلي ، وتتذكر أنها دخلت إلى أحد المباني في بيروت ، حيث سمعت حوار سيدتين داخل المبنى «بينما كنت أحاول إيجاد مأوى لبعض النازحين في إحدى العمارات السكنية في بيروت سمعت سيدة تقول لأخرى : «هل فهمت الآن لماذا تركنا بيوتنا في فلسطين؟ وعندما اقتربت ، وجدت السيدتين تجلسان على الأرض وحولهما أطفالهما ، كانت إحداهما فلسطينية بينما الأخرى لبنانية ، وعندما سألت الفلسطينية عما كانت تقول أخبرتني بأن السيدة

الأخرى كانت دائماً تُعير الفلسطينيين بأنهم باعوا بلادهم وتركوها ، ولذلك فالفلسطينيين يستحقون ما حدث لهم ، وكنا نشعر بالذنب من كثرة ما ترددت تلك الأقوال ، وكنا أحياناً نؤنب أنفسنا بشدة ونقول ربما كنا مذنبين لأننا هربنا من بلادنا» .

كانت ليلى خالد في سنواتها الأولى طفلة ذكية جداً لكنها عدوانية أحياناً ، ولذلك سارعت عائلتها إلى إرسالها إلى روضة الأطفال التي لم تعجب ليلى ولم تشبع فضولها ، فقد وصفتها في سيرتها الذاتية الأولى التي صدرت عام ١٩٧٣ بأنها لم تكن أكثر من «حضانة لرعاية الأطفال» دون أية أنشطة ممنهجة إلا تحفيظ القرآن الكريم ، وعندما وصلت ليلى إلى عمر السادسة أُرسلت إلى مدرسة الكنيسة الإنجيلية الخيرية لتعليم الفلسطينيين ، حيث غضبت ليلى لأنها جلست ضمن طلاب الصف الأول ، وكانت تظن مهاراتها في اللغة العربية والرياضيات ستؤهلها للوصول إلى صف أعلى مباشرة ، غير أن ما أغفلته الطفلة العنيدة ليلى أنها كانت تعاني صعوبات في تعلم اللغة الإنجليزية[19] .

دخلت ليلى عالم السياسة للمرة الأولى عن طريق إخوتها الأكبر سناً ، فقد كان ستة من إخوتها منتمين إلى حركة القوميين العرب ، المنظمة التي أسسها جورج حبش ووديع حداد عندما كانا طالبين في الجامعة الأمريكية في بيروت .

تقول ليلى : «كان أخي الأكبر يدرس في الجامعة الأمريكية في بيروت ، حيث التقى قادة حركة القوميين العرب ، وفي عائلتنا كان للأخ الأكبر منزلة خاصة وسلطة تقارب سلطة الأب ، وفي داخل الحركة كان هناك اعتقاد بأن على الأعضاء استقطاب أفراد عائلاتهم أولاً قبل التبشير بالحركة بين الآخرين ، وهكذا ، استطاع أخي التأثير على إخوتي وأخواتي الأكبر مني سناً ثم امتد تأثيره إليّ بالضرورة» .

كانت ليلى في الثامنة من عمرها عندما أخذت تنجذب إلى نقاشات أخيها الأكبر مع والدها ، وبالتدريج بدأت تعي الأسباب التي تدفعها وأصدقاءها من الأطفال إلى الذهاب للدراسة في خيمة كبيرة أقامها اتحاد الكنائس الإنجيلية الخيرية لتعليم الفلسطينيين ، وقد أطاحت عاصفة عاتية بالخيمة الكبيرة عام ١٩٥٢ ، فسقطت على رؤوس الأطفال وجرحت عدداً منهم ، بينما فرَّ الباقون مذعورين .

تذكر ليلى عن تلك الفترة ، درساً آخر من دروس السياسة التي تعلمتها باكراً عندما كانت في مدرسة المخيم ، فقد تشاجرت يوماً مع طالبة في مثل سنها تدعى سميرة ، وكانت على عكس ليلى تعيش في مخيم اللاجئين في صور ، وعندما قامت ليلى بضرب الفتاة تدخلت المدرسة لتلقنها درسها الأول في الانتماء الطبقي ، إذ أوضحت لها أن سميرة وعائلتها من الفلاحين الذين لجأوا إلى المخيم هم أصحاب فلسطين

الحقيقيون ، الذين ارتبطوا بترابها منذ أجيال على عكس أبناء الطبقة المدنية الوسطى التي تنتمي إليها ليلى . وبالنسبة لعائلة ليلى فقد تحسنت أوضاعها المعيشية ، واستطاعت العائلة الانتقال إلى شقة منفصلة تتكون من ثلاث حجرات عندما كانت هي في الحادية عشرة من عمرها ، ولم يعد شبح الجوع يخيم على العائلة[20] .

حافظ أبناء عائلة خالد الأكبر سناً على نشاطهم السياسي ، فكما تقول ليلى «كان المناخ العام السائد في تلك الفترة يميزه صعود الشعور القومي ، وخاصة بعد تولي عبدالناصر الحكم في مصر» ، وقد شكلت فكرة القومية العربية أملاً بالخلاص من تبعات نكبة عام ١٩٤٨ لدى كثير من اللاجئين الفلسطينيين ، ومنهم ليلى خالد وإخوتها ، وقد وُلد أصغر هؤلاء الإخوة عام ١٩٥٦ وسُمي ناصر ، تيمناً بالزعيم الذي واجه الغرب بعد تأميم قناة السويس ، وتعلق ليلى مازحة على عدد إخوتها الذي بلغ اثني عشر بنتاً وصبياً ، بأن عدد أفراد عائلتها «كان يصلح لتكوين فريق كرة قدم أو للهجوم على قبائل بني إسرائيل الاثني عشرة!» ، ثم تضيف بأن العام الذي شهد ولادة أخيها «حمل معه الكثير من الأمور المثيرة التي بقيت عالقة في ذاكرة ليلى الطفلة»[21] .

«لقد شعر كل فلسطيني عايش النكبة أن عليه أن يفعل شيئاً ، وفي المدرسة كنا نخرج في مظاهرات حاشدة كلما دعت

الحاجة ، وكان كل طفل فلسطيني يعرف تاريخ الخامس عشر من مايو[22] ، والثاني من نوفمبر والتاسع والعشرين من نوفمبر ، فقد كان الثاني من نوفمبر تاريخ وعد بلفور[23] ، أما التاسع والعشرين من نوفمبر فقد كان تاريخ قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين ، وبالطبع كان جميع الطلاب يخرجون في مظاهرات صاخبة في تلك التواريخ ، وكان المدرسون من الفلسطينيين يشجعونهم ويحثونهم ويعلمونهم ما قد يخفى عليهم من تاريخ شعبهم ، ومن هؤلاء كان الأستاذ نبيل ، المدرس المفضل لليلى ، الذي كان ناشطاً سياسياً كذلك ، ولذلك كانت ليلى في طفولتها تحب الأستاذ نبيل وتعتبره بطلاً من أبطال فلسطين[24] .

انفجر الصراع في لبنان عام ١٩٥٨ ، فقد كان لبنان وما يزال منقسماً طائفياً بين الموارنة ، بالإضافة لطوائف مسيحية أخرى ، والمسلمين من الطوائف السنية والشيعية والدروز الذين يتبعون الطائفة الإسماعيلية الموجودة في لبنان وسوريا والأردن وفلسطين . وفي محاولة للحفاظ على التوازن بين جميع تلك الطوائف أقرّ الميثاق اللبناني عام ١٩٤٣ تقسيم مراكز السلطة في الحكومة اللبنانية بينها ، على أساس منح المسيحيين الموارنة منصب رئيس البلاد ، ومنح المسلمين السنة منصب رئاسة الوزراء ، أما رئيس مجلس النواب في البرلمان فلا بد أن يكون من الطائفة الشيعية ، ولكن بدلاً من أن تحافظ هذه الصيغة

على التوازن المنشود ، كرسّت الانقسام الطائفي أكثر فأكثر[25] .

قرر الرئيس اللبناني الماروني كميل شمعون ، الذي تم انتخابه بمساعدة القائد الدرزي كمال جنبلاط ، مساندة الرئيس الأمريكي إيزنهاور في مواجهة المدّ القومي الناصري ، والوقوف أمام فكرة الجمهورية العربية المتحدة ، التي بدأت باتحاد مصر وسوريا في ذروة المد القومي في فبراير عام ١٩٥٨ .

وقد عبر عن تلك المرحلة الكاتب الهندي اليساري كارنجيا Karanjia عام ١٩٥٩ بقوله : «إن المبادئ الأساسية لسياسة إيزنهاور تتلخص في المذكرة التي أرسلها دوليس – Dulles إلى إيزنهاور في نهاية عام ١٩٥٦ وظهرت لاحقاً في الصحافة الأوروبية حيث جاء فيها أنه إذا ما فشلت أمريكا في التصرف بقوة في ذلك الوقت ، فإنها لن تتمكن من تحقيق مهمتها التي اختارها الله لها ، وهي قيادة العالم الحر ، كما كان دوليس يعتقد أن على أمريكا تبني سياسة مختلفة تقوم على مراقبة المد القومي ومتابعته ، وملء الفراغ السياسي في غرب آسيا» .

أثار ردّ فعل شمعون تجاه تنامي المد القومي العربي توتراً جديداً في أجواء السياسة اللبنانية ، بالإضافة إلى سخط القوى السياسية أصلاً بسبب شبهات بتزوير نتائج الانتخابات عام ١٩٥٧ ، والتي تمخض عنها حرمان الطوائف الدرزية والسنية من عدد من مقاعد البرلمان ، وفي النهاية أدت كل تلك العوامل مجتمعة إلى اندلاع العنف في البلاد ، وتدخل القوات

الأمريكية والبريطانية ، وقصف الطيران اللبناني مواقع المسلمين في بيروت ، كما تعرض عدد كبير من الشخصيات الإسلامية والمسيحية أيضاً للاغتيال[26] ، أما حركة القوميين العرب التي كان ينتمي إليها إخوة ليلى خالد ، فقد تلقت دعماً كبيراً وعدداً من الأسلحة من النظام السوري[27] .

عرفت ليلى ، التي كانت في الرابعة عشرة حينها أن انتماءها لحركة القوميين العرب يحمل في طياته مخاطر أكبر بكثير من مجرد توزيع المنشورات أو الخروج في المظاهرات وإلقاء الخطابات[28] ، وقد كانت تلك الحرب فرصتها لإثبات انتمائها للحركة رغم أنها لم تكن تحمل السلاح بعد في ذلك الوقت .

لقد أوكلت الحركة لها ولرفاقها من الفتية والفتيات مهمة لا تقل خطورة عن حمل السلاح ، ألا وهي حمل الطعام للمقاتلين في الخطوط الأمامية ، وتقول ليلى «لقد كان لدينا حوالي عشرة كيلوجرامات من الطحين في منزلنا ، وقررت أن أخبز بنفسي الخبز للمقاتلين ، لكنني عدت وغيرت رأيي بأن عجنت كلَّ الطحين مرة واحدة ، وأخذت أقليه في زيت الزيتون ، وهكذا أصبح لدي كمية من الطعام تكفي لإشباع كتيبة بأكملها . . . كان الجزء الأصعب من مهمتي إيصال الخبز للخطوط الأمامية ، لقد أذهلتني سرعة الرصاص المتطاير الذي كنت أسمع أزيزه بالقرب مني ، فقد كنت حتى ذلك الوقت أعتقد أن القتال واستخدام البنادق لا يزيد كثيراً عن المظاهرات

التي أخرج فيها ، لقد كان الوضع جنونياً ، حيث كنت أحاول العبور بين طلقات البنادق بما أحمله على رأسي من خبز ، وأخذت أصيح بالطرفين لوقف إطلاق النار حتى أستطيع المرور بينهما»[29] .

لقد كانت شجاعة ليلى في تلك الحرب شهادة عبورها إلى العضوية الكاملة في حركة القوميين العرب فيما بعد[30] ، بعد أن عرفت تماماً خطورة انضمامها والتزامها بالحركة ، ولم يمض وقت طويل حتى بدأت تلك الخطورة تتجلى بوضوح ، فقد أُصيب رفيقها في الحركة معن حلاوة برصاص الجيش اللبناني أثناء إحدى المظاهرات ، بينما كانت تقف على مسافة قصيرة منه ، وقامت بمساعدة آخرين بنقله إلى المستشفى ، كما كانت تقف أمام باب غرف العمليات عندما خرج الطبيب ليعلن وفاة حلاوة ذلك اليوم[31] .

أصبحت ليلى عضواً فاعلاً في حركة القوميين العرب بعد حرب عام ١٩٥٨ ، رغم أنها لم تكن قد تجاوزت سنين مراهقتها الأولى حينها ، وقد كانت الحركة في ذلك الوقت تنظيماً شبه سري ، فُصل معظم أعضائه من الجامعات بسبب انتمائهم السياسي ، ويتبنى توجهاً قومياً عربياً صرفاً بعيداً عن التوجهات اليسارية التي جاءت في مرحلة لاحقة ، وكانت أولوية التنظيم جمع الدول العربية في مشروع قومي موّحد لمواجهة الإمبريالية الأمريكية والأوروبية ، والمشروع الصهيوني

معاً ، بعد أن تجلى تحالف الثلاثة خلال أزمة السويس عام ١٩٥٦ ، أما القضية الفلسطينية ، فقد كانت في قمة اهتمامات الحركة ، خاصة أن معظم مؤسسي الحركة كانوا من الفلسطينيين ، وذلك على عكس مواقف حركات قومية أخرى مثل حزب البعث ، الذي كان يرى أن هزيمة عام ١٩٤٨ تمثل واحدة من الأمثلة على تدخل الاستعمار في المنطقة «ولا تستحق» حرفاً واحداً من النقاش[32] .

أخذت ليلى بعد الحرب الأهلية تضطلع بمهام بسيطة نوعاً ما لكنها مع ذلك كانت خطيرة أحياناً ، ففي إحدى المرات ، كما روت للصحفية إيلين ماكدونالد ، أوقفها جندي في الجيش اللبناني وهي توزع بعض المنشورات أثناء ساعات حظر التجول ، فما كان منها إلا أن أقنعته أنها تبحث عن قابلة لمساعدة إحدى الجارات في عملية الولادة ، وبالفعل وقف الجندي يحرس الشارع بينما أسرعت هي بدّس منشوراتها تحت أعقاب الأبواب ، وهي تتظاهر بالبحث عن القابلة من بيت لآخر[33] .

بدأت والدة ليلى تشعر بالقلق على ليلى وأخواتها ، بعد أن أخذت المشاركة السياسية تتعدى المظاهرات اليومية مع رفاق المدرسة ، وخاصة بعد أن سمعت بالضرب المبرح الذي تعرض له الطلبة في المظاهرات ، التي خرجت اعتراضاً على زيارة وزير الخارجية الأمريكي جون فوستر دالاس عام ١٩٥٣[34] ، ومما زاد

من قلق الأم ، خروج فتياتها المتكرر لحضور الاجتماعات السرية لحركة القوميين العرب ، فقد كانت صور آنذاك ، مدينة محافظة لا تشبه في شيء العاصمة بيروت ، التي كانت ملتقى جميع الثقافات ، غير أن الأب ، وعلى غير المتوقع ، ساند الفتيات في مواجهة والدتهن ، وقال لزوجته «إنهن يسعين للعودة إلى الوطن ، ولا بد من أن يقاتلن في سبيل ذلك» . حاولت الأم مع ذلك في عدد من المناسبات منع ليلى من الخروج من المنزل لحضور اجتماعات الحركة ، حتى أنها أخفت جميع ملابسها في إحدى المرات لتضطرها للبقاء في المنزل ، لكن ذلك لم يردع ليلى العنيدة ، إذ خرجت إلى الشارع بثياب النوم ، وعندما وصلت إلى مكان الاجتماع لم يصدق رفاقها أعينهم ، بل إنهم وبخوها على تصرفها الشائن ، كما صفعتها أمها عند عودتها عقاباً لها[35] ، وقد صُدمت ليلى من موقف رفاقها الشوفيني ، كما كتبت لاحقاً في مذكراتها[36] .

ظلت ليلى تلميذة مجتهدة رغم التزامها السياسي ، وما كان يحيط بها من أجواء التوتر الطائفي ، فانتقلت من مدارس الكنيسة الإنجيلية إلى مدرسة صيدا لإتمام شهادة البكالوريا ، وهناك التقت معلمة أمريكية سوداء تدعى الآنسة ماكنايت ، التي كانت بدورها إحدى تلاميذ مارتن لوثر كنج ، وقد كان لتلك المدرسة دور نوعي في تطور وعي ليلى خالد ، فقد تعلمت من مدرستها الكثير عن التفرقة العنصرية في الولايات المتحدة

بالإضافة للفرق بين اليهودية والصهيونية ، الأمر الذي أعاد لليلى ذكريات طفولتها الأولى مع أصدقائها من أطفال اليهود في حيفا ، وأخذت تتقبل شيئاً فشيئاً فكرة وجود يهود يقفون ضد الصهيونية في العالم[37] ، وبذلك تشكل وعي ليلى بصورة مختلفة ، وأخذت أفكارها تتبلور بوضوح ، والتي لم تكن حتى ذلك الوقت تعترف بوجود فرق بين اليهود والصهيونية[38] .

اجتازت ليلى خالد امتحان البكالوريا عام ١٩٦٢ ، لكنها لم تحصل على منحة دراسية تؤهلها لدخول الجامعة ، ومع ذلك فقد استطاعت إقناع أخيها الأكبر الذي يعمل في الكويت بالتكفل بنفقات دراستها الجامعية في الجامعة الأمريكية في بيروت ، على أمل الالتحاق بكلية الصيدلة أو الزراعة ، وبالفعل التحقت ليلى بالجامعة الأمريكية ، حيث انضمت إلى الاتحاد العام لطلبة فلسطين ، بالإضافة طبعاً لانتمائها لحركة القوميين العرب ، وقد وجدت ليلى في أجواء الجامعة الأمريكية الصاخبة بالحراك السياسي والثقافي ، ضالتها المنشودة ، وانخرطت فيها بحماسة شديدة تفوق حماستها للدراسة الأكاديمية[39] .

كان الاتحاد العام لطلبة فلسطين في عام ١٩٦٣ يدعو إلى ثورة شعبية تؤسس لقيام جمهورية فلسطين في مدينة نابلس الواقعة تحت السيطرة الأردنية ، وقد كان هناك عدد من معسكرات التدريب في الأردن تضم شباباً من حركات

وأحزاب مختلفة ، يتدربون جميعاً على حمل السلاح في انتظار اليوم الموعود ، وبالطبع كانت تلك المعسكرات حلم ليلى خالد الذي دافعت عنه بشدة في وجه رفاقها في الحركة ، الذين كانوا يرون أنها لم تكن مؤهلة بما يكفي للالتحاق بمعسكرات التدريب ، وأنها لن تحتمل البرد ومشقة الحياة والتدريب في المعسكرات[40] .

تصف ليلى خالد في مذكراتها التي صدرت عام ١٩٧٣ ، النقاشات السياسية الحادة التي كانت تدور مع زميلتها الأمريكية جودي سننغر ، التي كانت تشاركها السكن الجامعي في الجامعة الأمريكية في بيروت ، حول أزمة الصواريخ الكوبية ، وإرسال عبدالناصر قوات عسكرية إلى اليمن . كما تعترف ليلى بأنها كانت معجبة بتحرر جودي وعلاقاتها المتعددة مع عدد من شباب الجامعة ، وتضيف في السياق ذاته بأنها عاشت شخصياً بعض التجارب العاطفية في ذلك الوقت ، منها تعلقها بشاب فلسطيني ينحدر من أسرة مهاجرة من صفد ، وتروي ليلى في مذكراتها ، بأنها صادقت عدداً من الشبان في ذلك الوقت لكنها لم تتعلق بأي منهم بصورة خاصة ، وهذا بالطبع قبْل زواجها من أحد رفاقها في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، غير أن ذلك الزواج لم يُعمر طويلاً .

عاشت ليلى في الجامعة الأمريكية عاماً زاخراً بالأحداث والعمل السياسي ، لكن ذلك كله انتهى بعد أن أعلن الأخ

المسؤول عن دفع نفقات تعليم ليلى ، أنه لن يتمكن من إرسال النقود بعد الآن ، وهكذا تبخرت أحلام الفتاة في إكمال تعليمها الجامعي ، غير أنها لم تحزن كثيراً ، وفي المقابل قررت أن تسافر للعمل في الكويت لتأمين لقمة عيشها كي لا تضطر للبحث عن زوج يعيلها ، الأمر الذي لم تكن ليلى تتطلع إليه على الإطلاق[41] ، وتضيف ليلى في مذكراتها «لم أكن أرغب في السفر إلى الكويت ، لكن ذلك كان البديل الوحيد أمامي» ، وتصف ليلى منطقة الجهراء في الكويت حيث وجدت أول فرصة عمل لها بأنها «مدينة الملل الأبدي»[42] .

عملت ليلى في مهنة التدريس في الكويت مدة ست سنوات ، كانت تعود خلالها سنوياً إلى لبنان في إجازتها السنوية ، حيث تتصل برفاقها في حركة القوميين العرب ، وتعود إلى عملها لسنة أخرى لتتمكن من إعالة نفسها وعائلتها ، ويبدو أن ليلى كانت مستمتعة بعملها في تدريس الأطفال الذين وصفتهم في مذكراتها بأنهم «أشقياء لا يكلون ولا يملون ، لكنهم مع ذلك رائعون»[43] .

فرضت ظروف العمل في الكويت نمطاً مختلفاً من الحياة على ليلى في أثناء إقامتها هناك ، فقد كانَ من الصعب ممارسة الحياة اليومية كما عرفتها ليلى في المجتمع الكويتي المحافظ آنذاك ، وكادت أن تُفصل من عملها ذات مرة بسبب ارتدائها قميصاً يكشف ساعديها ، ولم يكن هناك بالطبع دور للسينما أو

المسرح أو أي من مجالات الترفيه والتواصل الاجتماعي التي عرفتها ليلى في لبنان ، أما الأخطر من ذلك فقد كان نشاطها السياسي ، إذ كان عليها أن تعمل سراً بعد أن نصحها رفاقها بإخفاء انتمائها لحركة القوميين العرب ، فقد كان الانتماء السياسي للحركة يجر على صاحبه عواقب وخيمة في الكويت آنذاك[44] ، مع ان عدداً من الكويتيين كانوا أعضاء في التنظيم ، إلا أن إعلان الانتماء للحركة كان محظوراً على المدرسين وخاصة من النساء ، وكان معظم أعضاء التنظيم من الفلسطينيين والسوريين والمصريين .

كانت حركة القوميين العرب في بداياتها في الخمسينات حركة قومية خالصة ، إلا أن مجلة الحركة نشرت في أحد أعدادها عام ١٩٦٠ مقالاً يدعو إلى «تطوير مفهوم ثوري أعم يلبي طموحات العرب التقدمية في تطوير النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية العربية»[45] ، غير أن هذا التوجه الجديد للحركة لم يلق ترحيباً من جميع الأطراف ، بما فيها بعض القيادات الأساسية في الحركة ، وقد ساهم في دعم هذا التوجه اليساري للحركة عاملان قويان أولهما : فشل الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٦١ مما أضعف دعاة القومية العربية داخل الحركة ، والثاني : التغييرات الداخلية في الحركة التي حدثت في أثناء اعتقال زعيم الحركة جورج حبش في سوريا عام ١٩٦٤ ، وفي العام ذاته عقدت اللجنة التنفيذية للحركة

اجتماعاً دعت فيه إلى مواجهة الأزمة الأيديولوجية التي تمر بها الحركة ، مما أدى إلى تغييرات لاحقة في الهيكل التنظيمي ساعدت على استقلالية بعض الأجنحة ، فانضمت إلى القوى الناصرية المحلية ، وبعض الأحزاب القومية الأخرى في العراق وسورية ومصر ، وبالنسبة للفلسطينيين كانت تلك الخلخلة في الهيكل التنظيمي للحركة إيذاناً بمولد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين[46] ، وخاصة بعد أن فشلت في التفاوض مع فتح لتنسيق عمل مشترك ، حسب أقوال عبدالكريم حمد ، أحد الأعضاء السابقين في حركة القوميين العرب ، الذي أضاف بأن ردة فعل ياسر عرفات على فشل المفاوضات مع الحركة تمثلت بقوله بأن «الأمر لا يستحق العناء»[47] .

لقد تعرضت حركة القوميين العرب للكثير من الانتقادات بسبب توجهاتها الناصرية والاشتراكية في عدد من الدول العربية ، وخاصة دول الخليج المحافظة ، وظلت تلك الانتقادات تتزايد فوصلت إلى مرحلة العداء عام ١٩٦٦ ، فقد تعرض عدد من زعماء الحركة وأعضائها للاعتقال في عدد من الدول العربية ، أما من يعملون في الخليج مثل شقيق ليلى خالد وعائلته فقد فقدوا وظائفهم وطُردوا من البلاد[48] .

ظلت ليلى تعمل في الكويت لإعالة إخوتها الأصغر سناً ، بعد وفاة والدها في لبنان عام ١٩٦٦ ، وترحيل أخيها وعائلته من الكويت ، وكانت تصلها أخبار متفرقة حول الصعود المنظم

للمقاومة الفلسطينية ، بالتزامن مع أخبار العالم الخارجي ، مثل حرب فيتنام ومقتل الثوري الأممي تشي غيفارا واحتلال جمهورية الدومنيكان ، غير أنها لم تكن تمارس أي نشاط سياسي في الكويت خوفاً من فقدان عملها ، الذي أصبح المورد الوحيد لإعالة أفراد عائلتها ، وقد وصلتها أخبار تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عام ١٩٦٧ ، غير أن أحداً من الرفاق لم يتصل بها لدعوتها للانضمام أو ما شابه .

إنبثقت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين من رحم حركة القوميين العرب وانشقت عن جذورها الأولى لأسباب منها طبيعة الهيكل التنظيمي في حركة القوميين العرب ، ولذلك فقد ظهرت القيادة الإقليمية الفلسطينية برئاسة جورج حبش عام ١٩٦٤ ، بهدف استقطاب الفلسطينيين في المخيمات الموزعة بين سوريا ولبنان ، وذلك بعد بروز منظمة التحرير الفلسطينية للمرة الأولى ، وإعلانها ناطقاً رسمياً باسم الفلسطينيين ، ثم تحولت القيادة الإقليمية الفلسطينية إلى الجبهة القومية لتحرير فلسطين ، وأخيراً أصبحت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عام ١٩٦٧ وظلت بقيادة جورج حبش ، وقد سقط أول شهيد للجبهة قبل تأسيسها فعلياً في نوفمبر عام ١٩٦٤ ، عندما قتلت القوات الإسرائيلية أحد الفدائيين من الجناح العسكري للجبهة المعروف بقوات شباب الثأر في أثناء عبوره الحدود اللبنانية الإسرائيلية في مهمة استطلاعية[49] .

ساهمت أسباب أخرى كذلك في انشقاق الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عن قاعدتها الأم ، حركة القوميين العرب ، من أهمها فشل الأنظمة العربية في دعم الفلسطينيين في صراعهم مع إسرائيل ، بالإضافة إلى قمع الملكية الأردنية كل محاولات الفلسطينيين لتنظيم أنفسهم في مواجهة عدوهم الأساسي ، وقد كتب رائد الريس ودينا النحاس عام ١٩٧٦ حول هذا الموضوع «لقد فشلت الوحدة العربية فشلاً ذريعاً على المستوى السياسي ، مما كان له أكبر الأثر على النشطاء الفلسطينيين الذين كانوا يعلقون آمالاً عريضة على الوحدة العربية لتحرير بلادهم ، فأخذوا ينظمون أنفسهم استعداداً للتحرير دون انتظار صحوة الدول العربية ، ونتيجة لذلك ظهرت أكثر من ثلاثين منظمة فلسطينية في فترة وجيزة ، مع أن معظم تلك المنظمات لم يكن عدد أعضائها يتجاوز بضع عشرات[50] . ترى ليلى خالد أن الانشقاقات التي حدثت داخل حركة القوميين العرب ترجع في أغلبها إلى تغييرات استراتيجية داخل الحركة ، بناءً على تغير المعطيات على الأرض ، وظهور الحاجة لوجود هيكلية لا مركزية تسمح باستقلالية فروع الحركة في الأقطار العربية ، وتقول في هذا السياق «لقد كان هناك قرار واضح بعد هزيمة عام ١٩٦٧ بتأسيس تنظيم مستقل للفلسطينيين ، بعد أن اختلفت التحديات الموجودة على الأرض ، وهكذا قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بالإضافة إلى التنظيمات المسلحة الأخرى» .

كما تنفي ليلى كذلك تطور الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عن الجبهة القومية لتحرير فلسطين مع أنها لم تكن قد انضمت للكفاح المسلح بعد في تلك الفترة . ويبقى السؤال حول التطور التاريخي لقيام الجبهة الشعبية وغيرها من المنظمات المسلحة رهناً بآراء المؤرخين والكتاب نظراً لندرة الكتب والوثائق التي تتحدث بالتفصيل عن تلك المرحلة ، وكما يقول أحد الباحثين في أواخر الثمانينات ، لا يوجد بحث أكاديمي واحد ولا مقال صحفي جاد يتناول قيام الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»[51] .

عملت ليلى خالد في أثناء وجودها في الكويت ولفترة قصيرة على دعم منظمة التحرير الفلسطينية في فتح فروع لها هناك[52] ، رغم أنها انتقدت لاحقاً التوجهات البرجوازية للشقيري وعدد آخر من زعماء المنظمة ، كما عملت مع فرع فتح في الكويت ما بين عام ١٩٦٧ و١٩٦٨ ، إذ كانت فتح في ذلك الوقت المنظمة الفلسطينية الوحيدة المسموح بها في الدولة ، وقد طلبت ليلى الانضمام إلى جناحها المسلح «قوات العاصفة» في وقت من الأوقات[53] .

تشكلت فتح أواخر الخمسينات من مجموعة من الطلاب والنشطاء الفلسطينيين القاطنين في دول الخليج والقاهرة ، وكان توجهها الأساسي تحرير فلسطين عبر الكفاح المسلح ، بعيداً عن النهج اليساري الذي تميزت به منظمات فلسطينية أخرى تشكلت لاحقاً ، وقد أعلنت منظمة فتح عن نفسها للمرة

الأولى في الأول من يناير عام ١٩٦٥ ، عندما نفذت أول عملياتها بتخريب أنبوب لضخ المياه في إسرائيل ، كما كشفت المنظمة لاحقاً في العام ذاته عن قائدها أو الناطق الرسمي ، كما كان يدعى آنذاك ، القائد ياسر عرفات[54] .

لم تتخذ حركة فتح نهجاً سياسياً واضحاً وحرصت على إرضاء جميع الأطراف ، وكانت تتلقى مساعدات مالية ضخمة من دول الخليج وخاصة من العربية السعودية ، الأمر الذي أثار حفيظة معظم اليساريين ومنهم ليلى خالد ، التي كانت ترى في تلك الدول أنظمة رجعية لا يُعول عليها ، ولذلك بقيت ليلى في انتظار التنظيم الذي كانت تسمع عنه بعض الإشاعات هنا وهناك[55] ، وأخيراً استطاعت العثور على بعض الملصقات للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في إحدى المكتبات في مدينة الكويت ، وبذلك تواصلت مع خلية محلية للجبهة وانضمت إلى برنامج أيديولوجي مكثف ، لتقوم فيما بعد بتكوين خليتها الخاصة . وقد سمعت خلال فترة تدريبها عن فرع العمليات الخارجية ، في الجبهة ، وهو ما كانت تحلم به بالضبط[56] ، فانتظرت حتى عام ١٩٦٨ وعادت إلى لبنان لتقابل الدكتور وديع حداد ، وعندما طلبت منه الانضمام إلى فرع العمليات الخارجية ، طلب منها تأجيل الموضوع والعودة إلى الكويت لاستقطاب أكبر عدد ممكن من الأعضاء للجبهة ، فوافقت ليلى على مضض ، آملة أن تتمكن من خلال عملها

في الكويت من إقناع د . حـداد بجـدارتهـا للانضـمـام إلى التدريب العسكري المسلح للالتحاق بفرع العمليات الخارجية فيما بعد .

الفصل الثاني
ليلى المقاتلة

تأسست الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين رسمياً في نهاية عام ١٩٦٧ ، بعد أن دقّت حرب الأيام الستة المسمار الأخير في نعش استراتيجية حركة القوميين العرب القائمة على توحيد العرب لشن الحرب على إسرائيل[1] . وقد اتحدت في البداية مع منظمتين فلسطينيتين هما أبطال العودة ، وجبهة تحرير فلسطين بقيادة أحمد جبريل ، ولكن شابت الخلافات الداخلية المراحل الأولى لتأسيس الجبهة ، إذ انسحب منها نايف حواتمة عام ١٩٦٩ بعد خلافات عقائدية مع جورج حبش وقرر تأسيس الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين ، ثم أسقط لاحقاً كلمة «الشعبية» من اسم الجبهة لتصبح الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين . كما ترك الجبهة أحمد جبريل عام ١٩٧٠ معترضاً على التزامها النهج الماركسي ، وضعف الرؤية العسكرية لقادتها[2] ، وأسس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين -القيادة العامة- التي قامت بعدة هجمات في السبعينات والثمانينات[3] .

مثّلت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بالإضافة لفتح ، وبعض الفصائل الفلسطينية الثورية مثل تنظيم الصاعقة منذ عام ١٩٦٧ ، أسلوباً جديداً في التعاطي مع القضية الفلسطينية يرتكز على خبرات الفدائيين السابقة ، بالإضافة لبعض الأدبيات الثورية العالمية مثل كتابات غيفارا وكاسترو ، وفرانز فانون الذي أكّد حق الشعوب المستعمرة في الكفاح المسلح لاسترداد الأرض والكرامة ، كما حدث مع الجزائر ، الوطن الذي انتمى إليه فانون باختياره وشارك أبناءه في كفاحهم ضد الاستعمار الفرنسي[4] .

كان العمل لاسترداد حقوق الشعب الفلسطيني منذ عام ١٩٤٨ منضوياً ضمن إطار الصراع العربي العام ضد العدو الإسرائيلي ، الذي نتج عنه بعض العمليات الفدائية في الخمسينات من القرن العشرين عبر الحدود الأردنية والمصرية ، غير أن مصلحة الفلسطينيين كانت دائماً تأتي في المقام الثاني لدى الحكام العرب ، بل إن بعضهم استغل القضية الفلسطينية لتثبيت أركان حكمه وقمع أي معارضة داخلية ، ولم يزد دعم البعض الآخر عن الخطابات الشفهية دون التزام حقيقي في النواحي السياسية أو العسكرية[5] . وقد ذكرت ليلى خالد في سيرتها الذاتية عام ١٩٧٣ أن «الملوك والرؤساء العرب عيّنوا أحمد الشقيري رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية دون استشارة الفلسطينيين أنفسهم[6] .

قررت ليلى الانضمام للجناح العسكري في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بعد هزيمة عام ١٩٦٧ مباشرةً ، وفي البداية طلب منها قادتها في الجبهة الانتظار ووعدوها بالانضمام إلى معسكرات التدريب ؛ إذ استطاعت تجنيد عشرة أعضاء جدد خلال عام من وجودها في الكويت ، لكنها استطاعت «تجنيد عشرين عضواً خلال سنة ونصف»[7] . كما واجهت ليلى معارضة شديدة من عائلتها ، فقد أصرت والدتها على أن تبقى في الكويت لتعمل وتساعد العائلة ، وخاصة إخوتها الأصغر سناً ، وعرضت عليها أن ترسل أخويها للتدريب وتبقى هي في الكويت ، لكنها رفضت بشدة ، وأصرت أن تنضم إلى المعسكر ، بل وأخذت اثنين من إخوتها معها ، انتقلت ليلى في النهاية إلى معسكر تدريبي شمال العاصمة الأردنية عمان ، حيث تدربت على حمل السلاح واستعمال القنابل اليدوية ، والمواجهات العسكرية ، بالإضافة إلى دراسة التكتيكات العسكرية ، كما قابلت في المعسكر المناضلة رشيدة عبيدة التي كانت أحد القادة السريين في الجبهة الشعبية ، وتقول عنها ليلى بأنها «كانت ماهرة في استعمال السلاح»[8] .

تصف ليلى المعسكر في مقابلة مع إلين ماكدونالد بقولها «كان المعسكر في سفح الجبل ، ولذلك فقد كان التدريب شاقاً جداً ، بالإضافة لبرودة الطقس حتى في فصل الصيف ، لكنني كنت مستمتعة بالتدريب ولم ألق بالاً للصعوبات التي كانت

تواجهنا ، فقد كنت أعيش حلمي بأن أصبح مقاتلة ، ومن فرط سعادتي لم أتمكن من النوم خلال الأيام الثلاثة الأولى من التحاقي بالمعسكر» . وبالطبع لم يسلم المعسكر الذي كان يضم إلى جانب مقاتلي الجبهة الشعبية ، عدداً من الفدائيين من فصائل فلسطينية مختلفة ، وعدداً آخر من المقاتلين الأمميين ، من غارات الطيران الإسرائيلي التي حاولت قصفه مرات عدة ، وفي كلِّ مرة ، كان موقع المعسكر يتغير من منطقة إلى أخرى ، ومع كل ذلك ، ظلت ليلى تتابع تدريبها[9] .

أُختيرت ليلى للانضمام إلى فريق العمليات الخاصة بعد انتهاء فترة تدريبها الأولى في المعسكر ، وفي أحد الأيام تم استدعاؤها لمقابلة الدكتور وديع حداد ، مسؤول العمليات الخارجية في الجبهة الشعبية ، بعد أن رشّحها قائدها المباشر في المعسكر .

لم تصدق ليلى لفرط فرحها بلقاء الدكتور حداد ، أنها ستذهب إلى لبنان بالفعل وتنضم لفريق العمليات الخارجية ، وحتى بعد أن حمَّلها قائدها بعض الأسلحة لنقلها إلى لبنان ، ظلت ليلى تعتقد أن عودتها إلى لبنان ليست أكثر من مؤامرة دبرتها والدتها لتعيدها إلى الكويت للعمل .

سألها المسؤول في لبنان «هل أنت مستعدة للسجن والتعذيب؟ هل أنت مستعدة للموت في أثناء تنفيذ العمليات؟»[10] .

أجابت ليلى بأنها مستعدة لكل شيء ، وذهبت في اليوم الثاني لوداع عائلتها وأخبرتهم بأنها ستعود للعمل في الكويت[11] ، لكن مقابلتها مع وديع حداد بعد ذلك كادت أن تطيح بكل أحلامها دفعة واحدة ، كما أخبرت إلين ماكدونالد عام ١٩٦٩ ، إذ أخذت تضحك عندما أخبرها حداد بأنها مرشحة لخطف طائرة ، «لقد تخيلت نفسي أحمل طائرة على كتفي وأهرب بها ، بينما يلاحقني الآخرون لانتزاعها مني» ، تقول ليلى ، إذ لم تكن عمليات خطف الطائرات معروفة آنذاك[12] .

أرسلها وديع حداد للمزيد من التدريب الخاص على التفاصيل المتعلقة بالسيطرة على طائرة تي دبليو إي TWA بوينغ ٧٠٧ المزمع اختطافها في رحلتها من روما إلى أثينا ثم تل أبيب . وقد كان وديع حداد معروفاً لدى ليلى بسبب علاقته بأشقائها ، فقد كانوا يعملون سوياً في حركة القوميين العرب ، وكان وديع بالإضافة لجورج حبش من مؤسسي الحركة في بداية الخمسينات .

تصف ليلى وديع حداد بأنه «شخص دقيق جداً ، يعشق التفاصيل ، ولا يمل من متابعتها ، حتى تلك التفاصيل الدقيقة ، التي قد يعجز المرء عن السيطرة عليها أحياناً» .

ارتبط موضوع خطف الطائرات لدى الصحافة الغربية بالفلسطينيين في سبعينيات القرن العشرين ، مع أن

الفلسطينيين لم يبتدعوا هذه الطريقة في التعبير عن الرأي ، وقد قام ثوار البيرو باختطاف أول طائرة عام ١٩٣١ ، وبعد ذلك بأكثر من ثلاثين عاماً خطط الدكتور وديع حداد لاختطاف طائرة إسرائيلية عام ١٩٦٨ ، وتم تحويل وجهتها إلى الجزائر ومقايضة ركابها بأسرى فلسطينيين محتجزين في السجون الإسرائيلية .

ذهبت ليلى في رحلة استطلاعية إلى روما للتحضير لعملية الخطف التي قامت بها عام ١٩٦٩ ، وقد أرسلها حداد إلى هناك للاطلاع على جميع التفاصيل صغيرها وكبيرها ، وتؤكد ليلى في مقابلتها مع إلين ماكدونالد أنها حفظت جميع الشوارع التي ستمر بها قبل رحلتها ، وتأكدت من موقع محطة الباص ، وتضيف «عندما اشتريت الملابس اللازمة للرحلة ، لم تعجب وديع وطلب مني إرجاعها وشراء غيرها ، لقد كان مفتوناً بالتفاصيل ويراقب كل شيء ، ولم يكن يهتم بالعموميات فقط ، بل كان يدقق في كل شيء ، تفاصيل المناورات ، المرور عبر البوابات ، تفاصيل الملابس ، كل شي» ، وفي النهاية استطاعت ليلى العثور على طقم مناسب حاز إعجاب وديع وموافقته ، وقد كان من ضمن طقم الملابس المختارة لتبدو ليلى - سائحة متجولة ، طاقية بيضاء ، أحبتها ليلى كثيراً وتقول «لقد قمت بتثبيت شريط خاص على الطاقية حتى لا أفقدها في حالة وقوع اشتباك وسقوطها عن رأسي»[13] .

سافرت ليلى في الموعد المقرر لتنفيذ العملية إلى روما مرة أخرى ، لكنها كانت وحدها هذه المرة ، وعندما حاول الراكب الأمريكي الجالس بجانبها إجراء حديث ودي معها ، أخبرته أنها ذاهبة للقاء خطيبها في روما ، وأمضت بعد ذلك يومين تتجول في شوارع روما في مراجعة دقيقة لتفاصيل العملية القادمة .

تعرفت ليلى على رفيقها في العملية سليم العيساوي للمرة الأولى قبل التنفيذ في روما ، وكان سليم أحد أعضاء الجبهة الشعبية ، فلسطيني من حيفا لكنه عاش في سوريا[14] ، وتصفه ليلى قائلة «لقد كان سليم يقاتل في قواعد الفدائيين على الحدود الأردنية مع إسرائيل ، وتم تدريبه على العملية لاحقاً ، لقد بدا لي شخصاً صلباً ، طويل القامة حين رأيته» .

حجز عيساوي وخالد مقاعدهما ضمن مقاعد الدرجة الأولى ، ليكونا أقرب ما يكون لقمرة القيادة ، غير أنهما لم يجلسا متجاورين ، وكان حظّ ليلى أن يجلس بجوارها يوناني - أمريكي ، أخذ يتحدث إليها بمرح عن رحلته إلى اليونان بعد أن قضى خمسة عشر عاماً في الولايات المتحدة ، وأنه الآن ينتظر لقاء والدته التي لم يرها طوال تلك الفترة ، تصف ليلى مشاعرها في تلك اللحظة قائلة «لقد صُدمت من حديث ذلك اليوناني ، وكنت على وشك أن أطلب منه مغادرة الطائرة

واللحاق بطائرة أخرى ، فقد تذكرتُ أبي الذي حاول لقاء والدته في القدس عام ١٩٦٤ بعد أن استطاع استخراج تصريح خاص بذلك ، وظل ينتظر ثلاثة أيام دون أن تأتي ، لكنها حضرت في اليوم الرابع بعد مغادرته القدس ، ولم يلتقيا أبداً بعد ذلك ، حتى إنها لم تسمع بخبر وفاته . لقد كنت أشعر تماماً بمعاناة ذلك المسافر اليوناني في بعده عن وطنه وعائلته» .

بعد عملية الاختطاف ، اقتربت ليلى من المسافر اليوناني ، الذي كان يجلس باكياً في كرسيه وطمأنته على حياته ، وأخبرته بأنها ستعمل على إرسال برقية لوالدته لتكون في استقباله لاحقاً[15] ، وتتذكر ليلى خالد من بين ركاب الطائرة في ذلك اليوم ، سيدتين مسنتين وفتاتين صغيرتين ، تُعلق أحدهما مشبكاً على ثوبها كُتبت عليه عبارة «لنصبح أصدقاء» مما كان له تأثير سيء على نفسيتها أثناء العملية[16] .

تغلبت ليلى سريعاً على مشاعرها ، وشربت بعض القهوة التي أحضرتها المضيفة ، أما عيساوي فقد شرب عصير البرتقال ، ولكنها لم تأكل أو تشرب أي شيء آخر بعد ذلك ، إذ كانت تريد أن تبقى متأهبة ويقظة . وبعد مرور بعض الوقت ، ادعت ليلى بأنها تشعر بالبرد وطلبت غطاءً إضافياً من المضيفة استخدمته لتغطي عملية سحب السلاح الذي تحمله ، بالإضافة لقنبلة يدوية أحضرتها معها . استغل سليم انشغال طاقم المضيفين بتقديم الطعام للركاب ، وقام من مقعده وتوجه

إلى قمرة القيادة مشهراً سلاحاً ، وأمر قائد الطائرة ومساعديه بتنفيذ أوامر القيادة الجديدة للطائرة ، ثم أخبر الطيارين والمسافرين بأنهم جميعاً الآن تحت إمرة القائدة «شادية أبو غزالة» أول شهيدة في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين[17] .

أمسكت ليلى بالقنبلة بين يديها وتبعت عيساوي إلى قمرة القيادة ، لكنها لم تستطع استخراج المسدس الذي سقط عن حزامها إلى داخل السروال ، لتلتقطه عن قدمها ، قبل أن تتوجه به إلى الأمام[18] .

أمر الرفيقان طاقم المضيفين والركاب في الدرجة الأولى بالتوجه إلى الدرجة السياحية في مؤخرة الطائرة ، حتى لا يتمكن أحد من رؤية ما يحدث في المقدمة ، وتؤكد ليلى بأنها لم تسمع صراخاً أو ما شابه ، بل امتثل الركاب للأوامر بهدوء ، وتضيف بأنها كانت تفكر في شيء واحد فقط في ذلك الوقت ، هو تنفيذ عمليتها «بدقة تامة»[19] .

كان دور ليلى في العملية يتمثل في التواصل مع قائد الطائرة وبرج المراقبة ، والسيطرة على الوضع في غرفة القيادة ، فكان أن أمرت المضيفين بتقديم الطعام والشراب للركاب ليبقوا هادئين ، بعيداً عن مجريات الأحداث ، وقد تم ذلك بالفعل ، ثم ألقت ليلى خطاباً سياسياً عن العملية والهدف منها ، والتعريف بالجبهة وبالقضية الفلسطينية ، وقد قامت إحدى المضيفات بترجمة الخطاب إلى اللغة الفرنسية لأن عدداً كبيراً

من الركاب لم يكن يعرف اللغة الانجليزية[20] . بالنسبة لعيساوي فقد كان خبير متفجرات ، أُنيطت به مهمة تفجير الطائرة بعد هبوطها على الأرض ، وإخلاء المسافرين .

طلبت ليلى من قائد الطائرة في البداية التوجه لمطار اللد (بن غوريون) حالياً ، وهو المطار الرئيسي في إسرائيل ، وبني في اللد ، مسقط رأس مؤسس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الدكتور جورج حبش ، وقد حاول المهندس خداع ليلى بأن أخبرها أن ما في الخزان من وقود لا يكفي للوصول إلى تل أبيب ، لكن عين ليلى المدربة على اكتشاف جميع التفاصيل المتعلقة بالطائرة ، اكتشفت الخدعة بسرعة وأصرّت على طلبها بالتوجه إلى إسرائيل . ما إن دخلت الطائرة المجال الجوي الإسرائيلي حتى بعث الجيش الإسرائيلي بثلاث طائرات مقاتلة من نوع ميراج لمرافقة الطائرة والإحاطة بها من جميع الجوانب ، مما أثار فزع الركاب ، وخاصة عندما أخبرتهم ليلى بأن الطائرات الإسرائيلية المحيطة بهم تشكل خطراً أكبر من الخاطفين ذاتهم . أخذت ليلى تتواصل مباشرةً مع برج المراقبة في مطار اللد ، وأجبرتهم على تسمية الرحلة برحلة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، فلسطين حرة عربية ، عوضاً عن رحلة تي دبليو إي ٨٤٠ ، وذلك بعد أن رفض برج المراقبة ذلك في البداية ، لكنه أذعن أخيراً بعد أن صرخ قائد الطائرة عبر جهاز الإرسال بأن الخاطفة تحمل قنابل يدوية داخل قمرة القيادة[21] ،

وقد ذكرت ليلى لاحقاً أثناء احتجازها لدى السلطات السورية أن الإسرائيليين كانوا يخشون أن تقوم بتفجير الطائرة فوق مطار اللد أو فوق إحدى المدن الإسرائيلية[22] .

لا تذكر ليلى الشيء الكثير عن مجريات تلك الرحلة ، وفيما عدا مرافقة الطائرات الحربية الإسرائيلية للطائرة المخطوفة ، وحديثها مع برج المراقبة في مطار اللد ، ونظرات الكراهية التي كان يوجهها نحوها مساعد الطيار ، لم يكن هناك ما يُذكر ، فقد كانت ليلى هادئة جداً ، حتى إن الطيار ذكر ذلك في حديثه للصحفيين لاحقاً ، وتضيف «لقد مرت الرحلة بسلام ، وكنت أحدث الركاب طوال الوقت وأشرح لهم قضيتنا ، ولماذا نحن هنا ، كما كنت أطمئنهم بأنهم سيعودون إلى بلادهم سالمين ، وبأنهم ليسوا طرفاً في الصراع» .

كانت أوامر ليلى للطيار بالتوجه إلى اللد مجرد خدعة مؤقتة سمحت لها بالإطلال على وطنها عن بعد ، لكن إسرائيل لم تكن تعرف ذلك بالطبع ، ولذلك فقد كان مطار اللد يعج بالدبابات الإسرائيلية والقوات الخاصة التي كانت تتأهب للاشتباك مع الخاطفين .

أمرت ليلى الطيار بالتوجه إلى دمشق ، لكنها أصرّت أن يحلق للحظات على ارتفاع منخفض يسمح لها برؤية المدينة الأحب إلى قلبها ، حيفا .

تتذكر ليلى تلك اللحظة بوضوح ، وتقول إنها لحظة «لا تشبه

أي شيء آخر في حياتي ، وتجلت أمامي صورة وجه أبي أثناء تحليقنا فوق حيفا ، وكدت أسمع صوته قائلاً : «متى سنعود إلى بلادنا؟ لقد تكامل عالمي في تلك اللحظة الرائعة»[23] .

تتحدث ليلى عن عبورها فوق مدينة حيفا بحرارة صادقة حتى الآن ، وبدا ذلك واضحاً عندما قابلتها عام ٢٠٠٨ وسألتها عن تلك الحادثة بالتحديد ، فقد اتسعت عيناها وقالت بحماسة : «لا أستطيع أن أصف شعوري في تلك اللحظة بالكلمات ، فعندما حلّقنا فوق فلسطين نسيت أنني في عملية ، نسيت ذلك تماماً ، كان تفكيري منصباً على رؤية بلادي بأم عيني ، وعندما عبرنا فوق حيفا ، عاد بي الزمن في لحظة إلى بيتي هناك ، طفولتي ، جدتي ، عماتي ، وكنت أريد أن أنادي عليهم جميعاً وأخبرهم بأننا عائدون ، لقد بقيت طفولتي في حيفا عام ١٩٤٨ ، وعندما رأيتها في تلك اللحظة أحسست بأنني أتعلم أبجديتي من جديد . لقد كانت لحظة حميمية جداً ، حتى إن قائد الطائرة لاحظ انفعال ليلى لرؤية مدينة حيفا ، وقد ذكر ذلك في المؤتمر الصحفي الذي عُقد بعد انتهاء العملية قائلاً «لقد شعرت بانفعالها وشوقها لرؤية المكان ، ورأيت شعيرات وجهها تنتصب أثناء تحليقنا فوق المدينة» ، إذ كانت ليلى تقف فوق رأسه تنظر من خلال زجاج مقدمة الطائرة إلى مسقط رأسها .

غالباً ما ينسى المؤرخون لسير المناضلين ، المسافرين

الأبرياء ، الذين يتورطون رغماً عنهم في عملية الاختطاف ، فيجدون أنفسهم طرفاً في صراعات لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، وحول هذا الموضوع تقول ليلى خالد «لقد كانت لدينا تعليمات واضحة بالحفاظ على سلامة المسافرين وعدم التعرض لطاقم الطائرة قدر المستطاع ، إذ لم يكن هدفنا قتل الآخرين . بل وكنا نعتذر لهم عن المشاكل التي تسببنا فيها . وعلى العكس من ذلك فقد كُنت أنا أكثرهم خوفاً ، فقد كان عليّ التعامل مع الطيار ومساعديه ، والحديث مع برج المراقبة ، ومتابعة تنفيذ الأوامر ، أما سليم فقد كان دوره على الطائرة ينحصر في تأمين الحماية لي حتى وصولنا إلى دمشق» .

تبرر ليلى خالد والجبهة الشعبية من ورائها عمليات خطف الطائرات بأنها كانت تكتيكاً مؤقتاً لإسماع صوت الفلسطينيين للعالم ، وتغيير نظرة المجتمع الدولي للقضية الفلسطينية تغييراً جذرياً ، فقد كانت الفكرة السائدة آنذاك في العالم ، أن الفلسطينيين مجرد مجموعة من اللاجئين عاثري الحظ ، لا يعرف عنهم أحد خارج العالم العربي الشيء الكثير ، لكن الجبهة الشعبية استطاعت بعد عمليات خطف الطائرات أن تُظهر القضية الفلسطينية بأنها قضية أرض وشعب هُجّر من أرضه بمساعدة القوى الغربية لإسرائيل ، كما سُلطت الأضواء للمرة الأولى من خلال وسائل الإعلام على حركة التحرر الوطني الفلسطينية ، التي كان أبناؤها يموتون في عمليات جريئة

داخل الوطن المحتل وخارجه دون أن يدري عنهم أحد .

يقول خليل مقدسي ، الناطق باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين : «لم يكن الموضوع الفلسطيني حاضراً على الساحة الدولية ، وكانت إسرائيل تمارس كل أنواع القمع والقهر على أبناء الشعب الفلسطيني في الداخل دون أي رقيب ، ويموت الفدائيون في عملياتهم دون أن يحرك العالم ساكناً» ، وقد أثارت عمليات خطف الطائرات انتباه وسائل الإعلام بقوة ، وأعادت وضع القضية الفلسطينية على طاولة النقاش ، وساهمت في تكوين وعي عالمي جديد تجاه مأساة الشعب الفلسطيني . لقد تغير مفهوم خطف الطائرات كثيراً في عالم ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ، كما تغيرت بالطبع ردود أفعال المسافرين تجاه مثل تلك العمليات ، ولن نرى بالتأكيد مسافراً تعرض للاختطاف يُسجل في مذكراته أنه شعر بالإثارة كما حدث مع ديفيد راب ، الذي كان مسافراً شاباً في السبعينات عندما تعرضت طائرته للاختطاف على يدي رفاق ليلى خالد ، بعد عملية ليلى بعام واحد . ويروي ديفيد في مذكراته ما يلي : «لقد شعرت بالإثارة عندما سمعت الخاطفين يعلنون الاستيلاء على الطائرة ، فقد قرأت الكثير عن خطف الطائرات ولكنني لم أعتقد مطلقاً أن ذلك قد يحدث لي شخصياً!»[24] .

اليوم ، أصبح اختطاف الطائرات مرتبطاً مباشرة بقتل

المسافرين لدى معظم الناس ، ولذلك قد لا يتورع المسافر المخطوف عن مهاجمة الخاطف ، إذ لا شيء يخسره وهو يتوقع الموت على أية حال . أما في عام ١٩٦٩ ، فقد كانت حوادث اختطاف الطائرات نادرة نوعاً ما ، ولم يكن الهدف منها إيذاء المسافرين ، فقد كانوا يُسلمون إلى سفاراتهم بعد فترة من المفاوضات قد تطول أو تقصر ولكنها تنتهي بصورة ما . ومع ذلك ، فالاختطاف بحد ذاته يعتمد بالأساس على إثارة عامل الخوف لدى الجميع ، الخوف من إيذاء الركاب وطاقم الطائرة ، الخوف على حياة الطيّار نتيجة الفزع أو الإصابة بسكتة قلبية ومن ثم تحطم الطائرة بمن فيها ، والخوف من تصعيد الموقف من طرف الخاطفين إذا لم تتم الاستجابة لمطالبهم ، وربما تنفجر إحدى القنابل الموجودة مع الخاطفين دون قصد فتؤدي إلى تحطم الطائرة . ويبقى عامل الخوف هو ما يعتمد عليه الخاطفون للضغط على السلطات المعنية لتنيفذ مطالبهم ، رغم ما جاء في مذكرات المسافر ديفيد من أن الخاطفين «أمروا بتوزيع جميع أنواع الكحول على الركاب ليحافظوا على هدوئهم»[25] ، إلا أن الخوف كان الشعور السائد في تلك الرحلة بكل تأكيد .

هناك العديد من الضحايا في هذه الصورة : التجمعات اليهودية التي عانت طويلاً جراء الاضطهاد العنصري في الدول الأوروبية ، دون أن يكون للفلسطينيين أي دور في ذلك الاضطهاد ، وهناك الشعب الفلسطيني الذي ذُبح وشُرد من

أرضه ليصبح كبش الفداء الذي قدمته أوروبا لتحريرها من عقدة الذنب تجاه اليهود وما حل بهم ، وهناك أيضاً المسافرون المدنيون وطاقم الطائرة المختطفة ممن لا ناقة لهم ولا جمل في المسألة برمتها ، لكن كان عليهم أن يحتملوا الخوف والترويع من الخاطفين المسلحين بالبنادق والقنابل اليدوية ، ويمكن بالطبع لكل طرف من الأطراف الثلاثة أن يعرض عدالة قضيته على حساب الأطراف الأخرى في الصورة . ويرى عدد كبير من أنصار القضية الفلسطينية ، وخاصة أولئك الذين يرون في ليلى خالد أسطورة ثورية ، أن غاية جذب الانتباه للقضية الفلسطينية ، وعدالة مطالب الشعب الفلسطيني ، تبرر وسيلة خطف الطائرات في ذلك الوقت . تؤكد ليلى خالد أن عمليات الاختطاف «كانت تكتيكاً مؤقتاً ، وليست استراتيجية دائمة ، وقد توقفت عمليات خطف الطائرات بعد آخر عملية ، وتفرغنا للعمليات الفدائية داخل فلسطين المحتلة ، وللدفاع عن أنفسنا ضد إسرائيل من لبنان» . وتصر ليلى «إن تلك العمليات كانت ضرورية وفاعلة جداً في حينها ، وقد قُلت في جميع مقابلاتي السابقة أننا اضطررنا للقيام بتلك العمليات ، ولم يكن أمامنا طريق آخر ، وكنا نعلم مسبقاً أن الركاب المدنيين لا علاقة لهم بصراعنا مع إسرائيل ، لكن في الحقيقة ، كانت تلك الطريقة الأمثل لإسماع صوتنا للعالم الذي كان يصم آذانه عن عذاباتنا تحت الاحتلال وفي مخيمات الشتات ، ولم يكن أحد يستمع

إلى صرخات السجناء المعذبين في الزنازين الإسرائيلية ، وحتى من كانوا يعرفون قضيتنا ويرون معاناة شعبنا لم يفعلوا شيئاً لتغيير ذلك الواقع المخجل ، ولذلك لم يكن أمامنا خيار آخر ، وكان هدفنا أن نقرع الجرس بصوت عال ليسمعنا جميع الأحرار في العالم ، وفي الحقيقة لم يُقتل أحد من المدنيين في عمليات الاختطاف التي نفذتها الجبهة الشعبية ، نعم ، لقد كان هناك ترويع للركاب المدنيين ، ولكن لفترة بسيطة ، أما أبناء شعبنا فيعانون منذ سنوات وسنوات ، ولم يكن أحد يلتفت إليهم» .

وصلت الطائرة إلى مطار دمشق بسلام كما كان مخططاً ، وكانت سوريا في ذلك الوقت تُعد دولة صديقة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وما إن حطّت الطائرة على أرض المطار ، حتى قام الرفيقان بإخلاء الطائرة من طاقمها وركابها ، وأخذ سليم العيساوي يُعد العدة لتنفيذ مهمته الأساسية وهي تفجير الطائرة ، فقام بتفخيخ غرفة القيادة ثم فجرها ، وظل جسم الطائرة رابضاً فوق أرضية المطار «مثل سمكة قُطع رأسها» حسب أقوال أحد المراسلين الصحفيين[26] . وبعد تفجير مقدمة الطائرة ، رافق عيساوي وليلى المسافرين في الحافلة التي أقلتهم إلى مبنى المطار وسط ذهول المسافرين وخوفهم بعد أن اعتقدوا أنهم تخلصوا من خاطفيهم بعد خروجهم من الطائرة ، «وقد رفض معظمهم السجائر والحلويات التي عرضتها عليهم ليلى أثناء انتقالهم إلى المطار ، بعد أن أخرجتها من الحقيبة ذاتها

التي حوت العبوة الناسفة سابقاً ، وعبرت إحدى المسافرات عن خوفها ودهشتها قائلة «أنا لا أفهم ، من هم هؤلاء الفلسطينيون؟»[27] .

تروي ليلى ما حدث مع السلطات السورية بعد ذلك بقولها «لقد استجوبونا في المطار أولاً ، ثم أخذونا إلى مبنى الاستخبارات واحتجزونا في زنازين منفصلة بحيث لا يرى أحدنا الآخر . لقد كانت طريقة الاستجواب عدائية جداً في البداية ، وكان الجنود يقولون إن هذه ليست عمليات فدائية بل إرهابية»[28] .

لكن موقف السوريين تغير قليلاً في اليوم التالي ، «لقد استدعوني صباح اليوم التالي لمقابلة حوالي عشرين ضابطاً في غرفة تتوسطها طاولة كنت أجلس عند أحد طرفيها ، ويجلس أمامي المسؤول الأول عن الضباط الذي كان يوجه لي أسئلة متتالية بطريقة أقرب للنقاش منها للتحقيق المتعارف عليه ، وقد أحسست لاحقاً أنهم يتفهمون ما فعلت بل ويقدرونه ، لكنهم كانوا مع ذلك مضطرين لاعتقالي» .

تقول بعض المصادر ، إن السوريين اعتقدوا في البداية أن ليلى خالد والعيساوي كانا عميلين مصريين يخططان لعمليات في سوريا ، في إطار حالة العداء التي سادت بين البلدين بعد انهيار مشروع الوحدة عام ١٩٦١ ، مما تسبب في حالة الغضب والعداء التي ظهرت تجاه الخاطفين في اليوم الأول للتحقيق ،

لكن تلك الحالة سرعان ما تغيرت بعد أن تأكدت السلطات السورية أنهما عضوان في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، فكان الضباط يقرعون الخاطفين كأنهما طفلان شقيان لا أكثر . ويعاتبونهما على إحراج السلطات السورية وتعريضها للضغوطات الدولية الخارجية .

ظلّ خالد وعيساوي محتجزين مدة ستة أسابيع نفذا خلالها عدة إضرابات عن الطعام ؛ للضغط على السلطات السورية للإفراج عنهما ، وفي إحدى المرات فقدت ليلى وعيها بعد إضرابها عن الطعام لعدة أيام ، وحين استفاقت في المستشفى ، وجدت أمها وأختها هناك ، وبرغم معارضة والدة ليلى الشديدة لعملها في الكفاح المسلح ، إلا أنها أخبرت الصحفيين بعد حادثة خطف الطائرة أنها فخورة بليلى وبما قامت به .

بررت السلطات السورية احتجاز ليلى ورفيقها ، بأنها تحتفظ بهما لحين انتهاء المفاوضات حول المسافرين ، وخاصة الإسرائيليين منهم ، الذين تم فصلهم على حدة بعد أن عُرفت جنسياتهم[29] . وقد أفرجت السلطات عن مسافرتين إسرائيليتين في البداية ، وبعد ذلك تمت مبادلة مسافرين آخرين باثنين من ضباط الطيران السوريين كانا أسيرين لدى إسرائيل ، بالإضافة لعدد من الفدائيين الفلسطينيين في سجون الاحتلال[30] . وأخيراً ، بعد ستة أسابيع من الحجز لدى

السلطات السورية ، تم إطلاق سراح ليلى وسليم .

لم يعد أحد ينكر معرفته بالقضية الفلسطينية في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا ، بعد عمليات خطف الطائرات التي نفذتها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، أواخر الستينات وأوائل السبعينات ، غير أن تلك المعرفة لم تتطور بما يكفي لتُنتج موقفاً إيجابياً يدعم قضية الفلسطينيين . لقد أثرت شجاعة ليلى خالد ورفاقها في عدد من المثقفين في الغرب ، ودفعتهم حوادث خطف الطائرات إلى البحث عن جذور معاناة الفلسطينيين والاطلاع على المزيد من الكتب والدراسات التي تناولت القضية الفلسطينية ، وشرحت مشكلة اللاجئين وظروف شتاتهم ، مثل السيرة الذاتية لليلى خالد التي صدرت عام ١٩٧٣ ، ولكن بالنسبة لمعظم الغربيين ارتبط اسم الفلسطينيين بالإرهاب ، كما توضح عالمة الأنثروبولوجيا روزماري صايغ في كتابها الصادر عام ١٩٧٩ ، «الفلسطينيون : من فلاحين إلى ثوريين The Palestinans: From Peasants to Revolutonaries» .

«قدمت حركة المقاومة التي ظهرت بعد هزيمة عام ١٩٦٧ نموذجاً جديداً للإنسان الفلسطيني الذي تحول من لاجئ إلى إرهابي في نظر الغرب ، بعض وسائل الإعلام أبرزت أن الفلسطينيين ذاتهم ضحايا للإرهاب ، وأن بروز المقاومة المسلحة أمر مفهوم ، بل ومنطقي ، كما أشارت بعض الصحف إلى إرهاب الدول مقابل الإرهاب الثوري ، لكن كلّ تلك المواقف

ظلت مقصورة على عدد قليل من وسائل الإعلام الموضوعية ، بينما ظلت أغلبيتها تغض الطرف عن الماضي الإرهابي لزعماء وسياسيين إسرائيليين ، مثل بيغن وألون ولاحيس (بالنسبة لبيغن ولاحيس ، فكلاهما متهم بالضلوع المباشر في مذبحة دير ياسين عام ١٩٤٨)[31] .

أما المخرجة الفلسطينية لينا مقبول فتقول إنها كانت شديدة الإعجاب بليلى خالد في فترة مراهقتها ، وقد أخرجت فيلماً بعنوان ليلى خالد الخاطفة ، حاولت فيه تسجيل وجهة نظر ليلى حول فكرة أنها وغيرها من المناضلين الفلسطينيين مسؤولين ، ليسوا عن صورة الإرهابي الفلسطيني التي عانى من تبعاتها الفلسطينيون العاديون لاحقاً ، وخاصة في أحداث أيلول الأسود في الأردن عام ١٩٧٠ ، عندما أخرج الجيش الأردني المقاومة الفلسطينية المسلحة من البلاد . فتنت ليلى خالد (خاطفة الطائرة الشابة) الصحافة الغربية في ذلك الوقت ، وقبل أن يُطلق سراحها من سوريا ، كانت الصحافة المرئية والمكتوبة قد سألت الركاب وطاقم الطائرة عن مواصفات الخاطفة ، عمرها ، هيئتها ، حديثها ، ملابسها . . . كل شيء ، ونشرت الصحف مقتطفات من الأحاديث التي أدلى بها المسافرون يصفون ليلى بالشابة الجميلة الأنيقة ، ويشبهونها بممثلات السينما![32] . ولم تكن هناك أية صور معروفة لليلى بعد عملية خطف الطائرة ، فكان الصحفيون يعتمدون على

الصورة التي رسمها المسافرون ، بل إن قائد الطائرة ذاته ، وصفها «بالفتاة الجميلة الجذابة» أثناء المؤتمر الصحفي الذي عُقد بعد مغادرة المسافرين للطائرة ، أما في لبنان فقد كانت والدة ليلى وأخواتها يشاهدن ذلك على شاشات التلفاز ، ويستمعن إلى ما يقوله الصحفيون ، وكانت والدة ليلى تقول «ما هذا الكلام ، إنها ليست كما يقولون ، أنا أعرف ابنتي أكثر منهم» ، وظلت تلك الواقعة مثار تندر العائلة لفترة طويلة . وظهرت صورة ليلى لاحقاً ، لكن ليس عن طريق الجبهة الشعبية ، بل إن إحدى زميلات ليلى في المدرسة التي كانت تعمل فيها بالكويت ، عرضت على الصحفيين صوراً تظهر فيها ليلى خالد ، بعد أن سمعت اسمها في وسائل الإعلام .

لم تتوقع ليلى عاصفة الاهتمام المفاجئ التي أحاطت بها بعد خروجها من حبسها في سوريا ، فقد منحتها الصحافة لقب أول خاطفة ، مع أن بعض المصادر تشير إلى خاطفة أخرى سبقتها إلى ذلك اللقب قبل عمليتها بثلاث سنوات ، فقد كان هناك مجموعة أطلقت على نفسها اسم الكوندورز ، اختطفت طائرة وتوجهت بها إلى جزر الفوكلاند في عام ١٩٦٦ مطالبة بضم الجزر إلى الأرجنتين ، وكان ضمن المجموعة فتاة[33] . كما أنها لم تكن أول امرأة في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تقوم بعملية دولية ، فقد سبقتها إلى ذلك أمينة دحبور ، التي كانت عضواً في مجموعة فدائية هاجمت طائرة تابعة لشركة طيران

العال الإسرائيلية في مطار زيورخ في فبراير عام ١٩٦٨[34] . لكن ليلى كانت بالتأكيد أول فتاة شابة جميلة ، تشبه الممثلة أودري هيبورن تظهر صورتها وهي تحمل بندقية كلاشينكوف وتقف أمام طائرة ، مع أن تلك الصورة ، كما تقول ليلى خالد ، ٱلتقطت لاحقاً في لبنان بعد العملية .

وتقول ليلى : «لم يكن الكشف عن شخصيتي جزءاً من الخطة ، فالجبهة الشعبية لم ترغب في إظهار شخصيتي لوسائل الإعلام ، ولم نفكر من قبل في تفعيل سلاح الإعلام في معركتنا ، وفي ذلك الوقت لم يكن هناك قنوات فضائية ، ولا انترنت ، كان الإعلام محلياً فقط ، ويعتمد بالأساس على الراديو وليس التلفاز»[35] .

ومع ذلك فسرعان ما استغلت الجبهة الشعبية الاهتمام الإعلامي بليلى خالد إلى أقصى درجة ، كما تقول ماكدونالد : «لقد سعد قادة الجبهة الشعبية باهتمام الإعلام ، وأرسلوا نجمة فصيلهم في جولات مكثفة في الشرق الأوسط محاطة بعدد من أفراد الحرس الشخصي بعد أن أصبحت على قائمة المرشحين للخطف أو الاغتيال في إسرائيل ، أما في العالم العربي فكانت ليلى رمزاً مجسداً للبطولة ، وأقيمت عدة احتفالات لتكريمها في الجامعة الأمريكية في بيروت ، حيث كان الطلاب يحيطون بها باهتمام وشغف» . ويقول رجل أعمال بريطاني تعرف إلى ليلى خالد في أحد الاحتفالات في قطر :

«لقد كان الناس يستقبلونها وكأنها أحد رجال الفضاء عاد من رحلته للتو»[36] .

تعلق ليلى على تفاصيل رحلتها إلى الشرق الأوسط قائلة «لقد قمت بجولة استغرقت ثلاثة أشهر زرت خلالها دول الخليج العربي والعراق ، أما هدف الرحلة فكان الدعاية للثورة الفلسطينية بالأساس ، وقد تواصلت ورفاقي عن قرب مع الجماهير العربية في الخليج ، وعرفت الكثير عن اهتماماتهم ومخاوفهم وخاصة رغبتهم في خروج بريطانيا من الخليج العربي»[37] . ويضيف بعض المعلقين إن الجبهة الشعبية تلقت في تلك الزيارة دعماً مالياً ضخماً من العائلة الحاكمة في أبو ظبي ، وكان ذلك من النتائج الإيجابية للزيارة[38] .

تقول ليلى في مراجعة لتجربتها الأولى مع الإعلام : «لقد تعلمنا من تجربتنا تلك ألا نكشف جميع الوجوه ، فالأفضل أن يكون هناك ناطق إعلامي واحد فقط ، وهذا يفي بالغرض» ، وقد بدا ذلك التوجه واضحاً في عملية الخطف الثانية التي قامت بها ليلى خالد مع مجموعة أخرى من رفاقها ، وقد كان ضمن تلك المجموعة فتاة أخرى ، لكن شخصيتها ظلت مجهولة ؛ لأن تلك الفتاة كانت تقيم في الأراضي المحتلة ، وكان لا بد من حمايتها من تعسف السلطة الإسرائيلية إذا ما فُضح أمرها ، وبالإضافة لذلك كان قرار التكتم على شخصيات المقاتلين والفدائيين قراراً صارماً اتخذته الجبهة الشعبية لتحرير

فلسطين بعد عملية ليلى خالد الأولى ، وما أنجر عنها من ضجة إعلامية .

أدركت ليلى بعد بضعة أشهر من العملية أن الشهرة التي حصلت عليها لم تكن في صالحها ، وأنها ستقيد حريتها في اختيار العمليات التي ترغب في تنفيذها ، ولذلك آثرت أن تعود بهدوء للعمل الثوري في مخيم الوحدات في عمان حيث كانت قواعد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، لكن قيادة الجبهة كان لها رأي مخالف نوعاً ما ، إذ أرادت استثمار الصورة التي خلقتها وسائل الإعلام عن ليلى ، وتذكر ليلى موقفاً مع التلفزيون الإيطالي الذي انتدب فريقاً لإجراء لقاء معها في مخيم الوحدات ، وتقول : «وصل الفريق إلى المنزل الذي أسكن في المخيم ، وعندما فتحت الباب ، وجدت أحدهم يسأل : أين ليلى خالد؟ فأجبت بأنني لا أعرف ، ربما خرجت إلى المعسكر ، فذهبوا إلى المعسكر ولم يجدوا أحداً ، فغادروا عمان إلى لبنان ، وعندما علم الدكتور جورج حبش بالقصة غضب ، واتصل بي مؤكداً ضرورة مقابلتهم ، وقد كنت أبكي لأنني كنت خائفة من لقائهم ، وعندما أصرّ على لقائهم ، غسلت وجهي وخرجت إليهم بعد أن عادوا مرة أخرى إلى عمان . فوجئ فريق التصوير بأنني الفتاة ذاتها التي قابلوها سابقاً عندما أنكرت شخصيتي الحقيقية ، وعندما علموا أنني كنت خائفةً من مقابلتهم أخذوا يضحكون ، وقال أحدهم «لقد كان العالم كله يرتعد خوفاً

منك ، والآن تخافين منّا؟» ، فأجبته نعم ، أنا خائفة ومتعبة ، ولا أريد الإجابة عن أية أسئلة» . لم تعترف ليلى في ذلك الوقت أن وديع حداد كان قد وعدها بعملية أخرى على الساحة الدولية قريباً ، ولذلك كانت تخشى أن ظهورها في وسائل الإعلام ربما يعوق عمليتها القادمة ، وكانت على استعداد لفعل أي شيء للمحافظة على سرية دورها في تلك العملية .

الفصل الثالث
أيلول الأسود

عادت ليلى إلى قاعدتها في الأردن ، حيث كانت المناوشات بين قوات الجيش الأردني والمقاتلين الفلسطينيين جزءاً من الحياة اليومية عام ١٩٧٠ ، لكن الخلافات بين الفصائل الفلسطينية والمنظمات القومية العربية والملكية الأردنية كانت قد بدأت قبل ذلك بفترة طويلة ، منذ أوائل الستينات قبل تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية[1] . وقد أعلن الملك حسين وبعض السياسيين مثل رئيس الوزراء وصفي التل أن الضفة الغربية ، التي كانت تحت الحكم الأردني ما بين عامي ١٩٤٨ و١٩٦٧ ، ستظل جزءاً من التراب الأردني ، وأن الأردنيين والفلسطينيين مرتبطون تبعاً لذلك بالقيادة الهاشمية[2] . وقد أغلقت السلطات الأردنية عدة مكاتب لفتح ولمنظمة التحرير في القدس وعمان خلال فترة الستينات[3] .

كما منعت السلطات الأردنية عمل اتحاد المرأة الفلسطينية ، بعد أن تظاهرت عضواته ضد السياسة الأردنية في منع سكان القرى الفلسطينية القريبة من الحدود مع إسرائيل من تحصين

أنفسهم واقتناء السلاح للدفاع عن عائلاتهم ضد الاعتداءات الإسرائيلية ، كما حدث في الخليل عام ١٩٦٦[4] . وبالإضافة لذلك ، صعّدت العمليات الفدائية عبر الحدود الأردنية إلى إسرائيل من حدة التوتر بين الطرفين ، إذ كان النظام الهاشمي يحاول جاهداً الحفاظ على توازن هش في علاقاته بالدول العربية ليظهر بمظهر المساند للقضية الفلسطينية ، بينما يحاول في الوقت ذاته تجنب ردة الفعل الإسرائيلية على تكرار هجمات الفدائيين .

وبالتدريج كان عود المقاومة الفلسطينية يشتد ، وازدادت الفصائل ثقة بقوتها ، فأخذت تحاول فرض سيطرتها على مناطق كاملة في عمان وفي إربد شمال الأردن ، في محاولة لتحدي السلطة الأردنية ، بل إن الفصائل اليسارية مثل الجبهة الشعبية ، كانت تدعو علانية لإسقاط النظام الهاشمي الرجعي[5] .

وصلت المواجهات اليومية بين الجيش الأردني وفصائل المقاومة الفلسطينية إلى نقطة خطيرة عام ١٩٦٨ ، بعد أن أدت تلك المواجهات إلى مقتل ٢٤ شخصاً وإصابة ٨٩ في مدينة عمان ، وحاول النظام فرض حظر التجول على المدينة ، وقام بعدد من الاعتقالات في صفوف الفدائيين ، غير أن الفصائل الفلسطينية كانت تسيطر على معظم الطرق المؤدية إلى العاصمة ، وبعض الطرق في مدن أخرى[6] .

اتخذت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين من مخيم الوحدات قاعدة مركزية لها[7,8] .

أصبحت المواجهات المسلحة بين الطرفين شبه يومية عام ١٩٧٠ ، وقد شاركت في تلك المواجهات ليلى خالد وغيرها من المقاتلات الفلسطينيات مثل رفيقتها نادية ، التي قادت هجوماً مسلحاً على مركز أمني أردني للاستيلاء على السلاح[9] ، وهناك أيضاً أم ناصر من حركة فتح ، التي تصف ما كان يجري بقولها : «لقد كان هناك مواجهات كثيرة قرب مدينة السلط ، وكُنا نقاتل مثل زملائنا من الرجال ، وكنت أقف أحياناً للحراسة طوال الليل ، فقد كانت أياماً صعبة على الجميع . كان الرجال في البداية يترددون عندما أطلب منهم البندقية للقيام بمهمة الحراسة ، لكنهم مع الوقت تخلصوا من هذه العقدة ، وأصبحنا نحن المقاتلات جزءاً منهم»[10] .

ظلت ليلى تحلم بالقيام بعملية كبيرة أخرى ، ولم تكن صورتها المنشورة في وسائل الإعلام في كل مكان لتبعدها عن حلمها ، إذ وجدت الحل المناسب لتلك المشكلة بأن تخضع لعملية جراحية لتغيير ملامح وجهها ، بحيث لا تتعرف عليها أجهزة الأمن في مطارات أوروبا . وبعد أن استقرت على ذلك الحل ، أخذت تبحث مع رفاقها في الجبهة الشعبية عن طبيب جراح يمكن أن ينفذ لها ما تطلب ، وقد وجدت ضالتها في جراح تجميلي في بيروت ، أخبرته أنها تخطط للذهاب إلى

أوروبا للزواج من خطيبها ، وتريد تغيير ملامح وجهها حتى لا يتعرف عليها الانتربول الدولي . لم يقتنع الطبيب بقصة ليلى ، لكنه كان خائفاً منها ، فقد سبقتها سمعتها القتالية ، وكان الجميع في بيروت يعرف جرأتها وتصميمها ، وفي النهاية قبل بإجراء العملية بشرط أن توقع ليلى تعهداً بأن الطبيب وافق على إجراء العملية تحت تهديد السلاح .

لم يكن تغيير ملامح ليلى بصورة جذرية أمراً هيناً ، فقد احتاج الأمر إلى عدة عمليات لتغيير شكل الأنف والوجنتين ، والعينين والفم ، ثم عملية تجميلة أخرى لإعادة وجهها كما كان بعد انتهاء مهمتها ، لكن في النهاية تم ما طلبته ليلى «لقد تغيّرت ملامح وجهي تماماً ، وأصبح من الصعب جداً أن يتعرف عليّ أحد من صوري المنشورة ، أما الذين يعرفونني معرفة مباشرة قبل العملية ، فقد وجدوا بعض الصعوبة في التعرف عليّ لأول وهلة ، ولكن بعد التدقيق في ملامحي ، بدا لهم وكأنني تعرضت لحادث ما ، وهو بالفعل ما كنت أريد ، ألا يتعرف عليّ رجال الأمن في المطار ، وخاصة رجال الأمن الإسرائيليين في مطار أمستردام» . لكن ليلى ظلت تعاني صداعاً مزمناً لعدة عقود بسبب العمليات الجراحية (احتاج الأمر أكثر من عملية لتغيير شكل الأنف) التي خضعت لها قبل مهمة اختطاف الطائرة في أمستردام[11] .

كان الدكتور وديع حداد قد وعد ليلى بمهمة كبيرة إذا ما

نفذت عمليتها الأولى بنجاح ، وبعد نجاح عملية خطف طائرة تي دبليو إي ٨٤٠ ، بدأت بالتنسيق مع الدكتور وديع حول تفاصيل العملية الثانية ، من خلال رحلات مستمرة بين عمان وبيروت تقوم بها ليلى دورياً لحضور اجتماعات مكثفة في منزل وديع حداد في بيروت ، الذي كان أشبه «بخلية النحل» كما تقول ليلى ، حيث تجتمع كل مجموعة في غرفة من غرف المنزل لوضع خطة ما . وفي إحدى الليالي في شهر مايو عام ١٩٧٠ ، وبينما كان وديع وليلى يعملان على مخططهما في منزل وديع ، ضربت ستة صواريخ إسرائيلية المنزل ، وأصابت زوجة وديع وابنه هاني بعدة جروح بينما نجا وديع وليلى بأعجوبة . تروي ليلى تفاصيل تلك الليلة قائلة : «كنا قد أنهينا وضع التفاصيل الكاملة لإحدى العمليات ، وكان عليّ أن أسافر في السادسة صباحاً ، وقد بلغ مني التعب درجات ، وكانت الساعة وقتها حوالي الثانية صباحاً ، وقد رجوت وديع أن نتوقف عن العمل ، حتى أتمكن من النوم سويعات قليلة قبل سفري . لكن وديع ، وكما يعرفه الجميع ، كان يتميز بحيوية ونشاط خارقين ، وكان على استعداد للعمل من ١٣ إلى ١٥ ساعة يومياً دون توقف ، ينسى أحياناً أن يأكل ، وإذا كنت تعمل معه وطلبت وقتاً للراحة والأكل ، كان يقول إن هناك أسرى في سجون العدو لا يجدون ما يأكلون . وكذلك كان الدكتور جورج حبش العقل المفكر بينما يحول وديع تلك الأفكار إلى أفعال تلاحق العدو

في كل مكان ، وأنا أكاد أجزم بأن وديع كان يفكر ويخطط حتى وهو نائم ، وقد حاول أن يعلمنا أن نكون مثله لكننا لم نقدر . وقد قالت لي إحدى الرفيقات إنه لم يسمح لها بالنوم دقيقة واحدة قبل سفرها ، وإنه قال لها إنه يمكنها النوم في الطائرة أثناء سفرها» .

حين طلبت ليلى وقتاً قصيراً للراحة ، كانت تلك هي اللحظة التي اخترقت فيها الصواريخ الإسرائيلية منزل الدكتور وديع «كان صدر هاني ينزف ، وساقاه مهروستان» تقول ليلى في مذكراتها[12] ، وتضيف بأن «الشرطة اللبنانية سألت أسئلة كثيرة بعد ذلك حول سبب تواجدي في منزل الدكتور وديع في الثانية صباحاً ، لكنني كنت أجيب بكل بساطة بأننا كنا جالسين في المطبخ نتجاذب أطراف الحديث» .

نقلت زوجة الدكتور وديع حداد وابنه إلى المستشفى يصاحبهما وديع وليلى ، اللذان أصرا على إكمال اجتماعهما السري في إحدى غرف المستشفى بعد أن اطمأنا على المصابين . تقول ليلى «لقد زادت رغبتي في الانتقام أكثر فأكثر بعد الهجوم على المنزل ، وكنت أفكر برد مناسب على تلك الجريمة ، فوجدت أن هناك ثلاث طائرات قادمة من تل أبيب إلى نيويورك عبر أوروبا ، وقلت لوديع إننا نستطيع أن نختطف الطائرات الثلاث معاً ، ونقايض بها لتحرير أسرانا في السجون الإسرائيلية وفي زيورخ ، وبالفعل بدأنا في وضع الخطة» .

ظل دور ليلى في العملية سراً على الجميع ، لا يعلمه حتى رفاقها في المهمة ، وكان دورها الظاهر هو تدريب المقاتلات المشاركات في العملية ، ولكنها في الواقع اختارت أصعب الأهداف على الإطلاق ، وهو اختطاف طائرة العال ذاتها ، وتركت الطائرات الأخرى لرفاقها الباقين .

توجهت ليلى خالد من لبنان إلى أوروبا في بداية سبتمبر عام ١٩٧٠ ، وفي الرابع من سبتمبر قابلت رفيقها في العملية ، باتريك أرغويلو للمرة الأولى وكان اسمه الحركي رينيه ، وبقيا يومين في مدينة شتوتغارت يراجعان تفاصيل الخطة ، وفي السادس من سبتمبر استقلا طائرة إلى أمستردام سوية وكانا يحملان تذاكر إلى نيويورك .

كان أرغويلو من نيكاراغوا ، وُلد في الولايات المتحدة ويحمل جواز سفر أمريكياً ، لكنه ينتمي إلى الحركة الساندينية ، وقد علمت أمه بمصرعه في تلك العملية من إحدى الصحف في نيكاراغوا ، وكانت تظنه يدرس في إحدى الجامعات في أوروبا بعد أن بعث لها رسالة بذلك[13] .

وعندما ذهبت الأم إلى أوروبا لاستلام جثة ابنها ، شاهدت صوراً له مع أصدقائه ، يظهر فيها في أحد مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في الأردن أثناء زيارة قام بها في مارس ١٩٧٠ ، وتعلق الأم على صور المخيم بأنه مكان لا يصلح للعيش مطلقاً[14] . وربما كان ذلك هو ما دفع باتريك للتعاون مع الجبهة

الشعبية لتحرير فلسطين في كفاحها المسلح ، وخاصة أنه كان ينتمي لتنظيم سياسي بالفعل . وتبدو هذه القصة منطقية جداً مقارنة بالإشاعات التي ظهرت في بعض الصحف ، وتدعي أن باتريك كان مرتزقاً مأجوراً ، شارك في العملية مقابل ٥٠٠٠ دولار أمريكي[15] .

وصل أرغويلو وليلى إلى مطار أمستردام ، وتخطيا قاعة الترانزيت إلى طائرة بوينغ ٧٠٧ في الرحلة رقم ٢١٩ ، وجلسا في مقعديهما المحجوزين في الجزء المخصص في الدرجة السياحية ، لكن ما خفي عنهما في تلك اللحظة أن الرفيقان الآخران ، اللذان كان من المفروض أن يصلا إلى الطائرة ذاتها للمشاركة في العملية ، غير موجودين ، فقد شك رجال أمن الطائرة فيهما ولم يُسمح لهما بالصعود ، بعد أن برر الأمن ذلك بعدم وجود مقاعد فارغة على الطائرة . تروي ليلى خالد ما حدث قائلة : «كان من المفترض في مخطط العملية أن يكون هناك عدد أكبر من الخاطفين على طائرة العال ، فقد كنا نعرف أن طائرات العال تحمل عدداً كبيراً من رجال الأمن في جميع رحلاتها ، كما أن الإجراءات الأمنية شديدة جداً قبل الصعود إلى الطائرة ، وقد جئت مع باتريك من قاعة الترانزيت ، بينما جاء الرفيقان الآخران من أمستردام مباشرة ، وقيل لهما إن المقاعد قد نفدت ، فقاما بحجز مقاعد أخرى على طائرة بان أم»[16] ، ولم تكن إجراءات الأمن والتفتيش في ذلك الوقت

دقيقة بما فيه الكفاية ، إذ كانت تعتمد على التفتيش اليدوي للأمتعة والأشخاص أحياناً ، ولم تستخدم الماسحات الكاشفة لتفتيش الحقائب إلا بعد سنوات لاحقة لذلك التاريخ[17] .

كانت ليلى قد أجرت عدة عمليات لتغيير ملامح وجهها قبل تلك الرحلة ، وعندما سألها رجل الأمن في قاعة المغادرين ، إن كانت تحمل أية أسلحة ، أجابت بكل بساطة «ولماذا تحمل فتاة مثلي سلاحاً يا سيدي؟» فصدقها الرجل واعتذر لها[18] . ولكن عندما صرح لها أرغويلو في قاعة المطار بأنه جائع جداً ، ويوّد لو يأكل شيئاً قبل الصعود إلى الطائرة ، أخبرته ليلى بأن يصبر لأن حواسه تبقى متنبهة أكثر وهو جائع . نظر إليها أرغويلو وقال ساخراً : ومن أين لكِ بهذه المعلومات؟ فأجابت ليلى بأنها تمتلك خبرات سابقة في هذا المجال ، وهنا أخذ أرغويلو يتأمل وجهها قائلاً : «نعم ، أظن أنني رأيت هذا الوجه من قبل»[19] .

لسوء الحظ ، لم يكن أرغويلو الشخص الوحيد الذي تذكر وجه ليلى ، فقد كان هناك ضابط إسرائيلي يجلس في الصفوف الأخيرة خلف ليلى ورفيقها يحدق في وجهها ، ويبدو وكأنه تذكر صورتها ، وهنا قررت ليلى أن عليها البدء بتنفيذ العملية قبل فوات الأوان ، مع أن الطائرة كانت قد غادرت المجال الجوي الهولندي للتو ، ولم يحن الموعد المحدد للبدء بالتنفيذ حسب الخطة المرسومة[20] .

كان الخاطفان يجلسان في مقاعد الدرجة السياحية ، أي بعيدين عن قمرة القيادة ، خلافاً لما حدث في عملية الخطف الأولى لطائرة تي دبليو إي[21] ، وعندما ركضت ليلى باتجاه باب القمرة ، كان قائد الطائرة قد سده في وجهها ولم تستطع الدخول ، فأخرجت قنبلتين من جعبتها ، غير أن الضابط الإسرائيلي بدأ بإطلاق النار مباشرة ، وفي محاولة لحماية ليلى ، أخذ أرغويلو يطلق الرصاص باتجاه الضابط الإسرائيلي شلومو فايدر فأصابه في ساقه[22] ، لكن أرغويلو أصيب أيضاً بينما صاح أحد الركاب بأن ليلى تحمل قنابل يدوية ، ولذلك لا يمكن إطلاق النار عليها ، فكان الحل مهاجمتها بدنياً من قبل رجلين من طاقم الأمن بالإضافة لأحد المسافرين ، وأخذوا جميعاً يضربونها بشدة . فكُسر عدد من ضلوعها أثناء العراك ، وفي الآن ذاته ، انحرف الطيار بالطائرة بصورة مفاجئة وأخذ يهبط إلى علو منخفض للتقليل من الأضرار الناجمة عن انفجار القنبلة في حال انفجارها[23] . فقدت ليلى توازنها وسقطت على الأرض مع انحراف الطائرة ، فأصبحت في مرمى أرجل الرجال الذين كانوا يحيطون بها ويضربونها بأرجلهم ويدوسون عليها .

ظنت ليلى أثناء الفوضى التي سادت المشهد أن إحدى القنابل قد انفجرت بالفعل ، لكنها سريعاً ما اكتشفت عكس ذلك[24] . (يقول ديفيد راب ، الذي أصدر كتاباً عن تجربته

كرهينة على إحدى الطائرات الأخرى في العملية ، أن تلك القنابل كانت زائفة ، ولكن ليس هناك من دليل يؤكد صحة زعمه)[25] .

فقدت ليلى الوعي للحظات بتأثير الضرب العنيف وظلت على الأرض ، وبينما كانت تستعيد وعيها ، شاهدت الضابط الإسرائيلي يقترب من أرغويلو المصاب ، ويقف فوقه ويطلق أربع رصاصات على ظهره[26] ، وهناك شهادات أخرى تشير إلى أن الضابط موردخاي بارليفاف «أفرغ جعبة مسدسه كلها -سبع رصاصات- في جسد أرغويلو ، ثم تقدم وكسر عنقه»[27] . جاء في التحقيقات التي أجريت في لندن في أكتوبر ١٩٧٠ ، أن مقتل أرغويلو كان شرعياً ، وأنه لم توجد أية أدلة تشير إلى إطلاق النار على رأسه وهو موثق اليدين ، بل إن موقع الطلقات الفارغة حول جثته يشير إلى وفاته في تبادل لإطلاق النار[28] ، أما والدة أرغويلو فقد أصدرت بياناً بعد الحادثة جاء فيه «أنا وزوجي فخوران بولدنا ، وبموقفه المتعاطف مع الفلسطينيين لدرجة أنه كان على استعداد للموت من أجلهم» .

اضطر الطيار للهبوط في لندن لخوفه على حياة الضابط الإسرائيلي المصاب شلومو فايدر ، لكنه تردد كثيراً قبل القيام بتلك المغامرة ، فلم يكن يرغب أن تعتقل السلطات البريطانية ضباط الأمن على الطائرة بتهمة قتل أرغويلو ، كما أنه لم يكن يرغب بتسليم ليلى خالد ، التي ما زالت على قيد الحياة

للسلطات في لندن[29] ، لكنه عـرف في الوقت المناسب أن هناك رحلة أخرى لطيران العال على وشك مغادرة مطار هيثرو في لندن ، فما إن وطأت عجلات طائرته أرضية المطار ، حتى سمح للضابط بارليفاف الذي أطلق النار على أرغويلو بمغادرة الطائرة ، ليتم التقاطه مباشرة من قبل ضباط أمن الطائرة الإسرائيلية المغادرة ، وبذلك خرج من مجال السلطة البريطانية[30] .

بالنسبة لليلى فقد ظلت على الأرض مقيدة اليدين بربطة عنق أحد الركاب وشبه غائبة عن الوعي وتغطيها الدماء ، بينما كان رجال الشرطة البريطانية يصارعون ضباط الأمن الإسرائيليين للتحفظ على ليلى واصطحابها للتحقيق في لندن . ومن حسن حظ ليلى أن الشرطة البريطانية فازت بها في النهاية ، وتم نقلها في سيارة إسعاف بصحبة جثة أرغويلو إلى المستشفى .

تقول ليلى : «كان لا يزال لدي أمل في بقاء أرغويلو على قيد الحياة ، ولكن بعد بضع دقائق ، سحبت الممرضة قناع الأكسجين عن وجهه ، فعرفت أنه مات ، ورجوت رجال الشرطة البريطانيين أن يفكوا قيودي لأقترب منه ، وبالفعل دنوت منه وأخذت أتفحص جروحه ، وأمسكت بيده وقبلته وبكيت»[31] .

تم فحص ليلى في مستشفى هيلنغدون وتصويرها بأشعة

إكس ، وهناك تتذكر أن إحدى الشرطيات قالت لها إن الطبيب الموجود يهودي ، فأجابت ليلى بأنها لا تمانع ، وعندما أبدت الشرطية دهشتها ، قالت لها ليلى : «أنا لست ضد اليهود ، بل الصهاينة ، وهذا الطبيب بريطاني وليس إسرائيلياً» ، لكنها لم تفهم ، ولم تكن لدى ليلى في تلك اللحظة القوة الكافية لتشرح لها الفرق بين الاثنين[32] ، وبعد انتهاء الأطباء من الفحص الأولي ، حضر إليها ضابط من شرطة الهجرة يسألها لماذا لم تحصل على تأشيرة دخول للأراضي البريطانية!

لا تزال ليلى خالد متأثرة بوفاة باتريك أرغويلو بعد مرور أربعين عاماً على تلك الحادثة ، وقد جاء في مذكراتها سابقاً أنها ظلت تكتب له الرسائل أثناء وجودها في المستشفى البريطاني[33] ، ويبدو أنها ظلت تؤنب نفسها على رفضها طلبه بأن يأكل قبل الصعود إلى الطائرة فمات جائعاً ، وحتى هذه اللحظة تغرورق عينا ليلى بالدموع كلما تذكرت موت باتريك ، وتقول : «عندما أحضروا لي الطعام للمرة الأولى في المستشفى ، لم أستطع أن أتذوقه ، لأنني منعت باتريك من تناول الطعام الذي قدموه لنا في الطائرة ، وقلت له بأننا سنأكل لاحقاً بعد نصف ساعة» .

وتضيف ليلى : «من الصعب عليّ جداً تقبل وفاته ، فقد مات وهو يدافع عني ، أنا من كان يجب أن تموت لا باتريك ، فالقضية قضيتي وليست قضيته ، وهذا ما كنت أحاول قوله له

في سيارة الإسعاف في طريقنا إلى المستشفى ، فقد كنت أنتحب بجانبه وأنا أحدثه بالعربية ، ثم تفطنت إلى أنه لا يعرف العربية ، فأخذت أحدثه بالإنجليزية ، وهكذا فهم ضباط الشرطة البريطانيون في سيارة الإسعاف ما كنت أقول ، لكنهم لم يكونوا يعرفون باتريك» .

من جانب آخر وبعيداً عن لندن ، قرر الخاطفان اللذان تخلفا عن اللحاق بطائرة العال الإسرائيلية لمساندة ليلى وأرغويلو ، أن يقوما بخطف طائرة «بان آم PAN AM» التي استقلاها ، بعد أن أقنعا مسؤولي الشركة في المطار أنهما لم يجدا مقاعد فارغة على طائرة العال ، وقد قال الكابتن بريدي -قائد الطائرة- لاحقاً أنه لو علم مسبقاً أنهما مُنعا من ركوب طائرة العال لأسباب أمنية ، لما سمح لهما بالصعود إلى طائرته[34] .

كان الخاطفان الفلسطينيان ، مازن أبو مهنا من مدينة حيفا وسامر عبدالمجيد من القدس ، يحملان جوازات سفر سنغالية بأسماء مستعارة ، ديوب وجوي[35] ، وقد قام الكابتن بتفتيشهما ذاتياً عند دخولهما الطائرة ، لكنه مع ذلك لم يكتشف الأسلحة المخبأة في ملابسهما ، ثم أقلعت الطائرة بعد ذلك حوالي الساعة الثانية . ولم تمض نصف ساعة على الإقلاع حتى اندفع الخاطفان إلى غرفة القيادة حاملين قنبلة ومسدسين ، ويمسك أحدهما بأحد المضيفين درعاً بشرياً[36] .

لم يكن الرجلان يحملان تعليمات محددة حول الوجهة

التي سيحولان الطائرة إليها ، فقد كانت الخطة الأصلية تقضي بانضمامهما إلى ليلى ورفيقها على طائرة العال ، أما وقد كان خطف طائرة «بان آم PAN AM» وليد اللحظة ، فلم يقررا بعد وجهتهما القادمة ، فقرر كابتن بريدي أن يتوجه بالطائرة إلى بيروت ، على أمل أن يتم إطلاق سراح النساء والأطفال هناك ، لكن الرياح سارت بما لا تشتهي السفن ، ورفض برج المراقبة في بيروت استقبال الطائرة ، بحجة أن المدرج الرئيسي في المطار تحت الصيانة ، وأن المدارج الأخرى لا تحتمل وزن طائرة بحجم بان أم جامبو . أصرّ الخاطفون على الهبوط في مطار بيروت ليتسنى لهم التحدث إلى ممثلي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين للحصول على تعليمات جديدة بشأن العملية ، وبعد الانتظار ساعتين في مطار بيروت ، وصلت تعليمات مشفرة بالتوجه إلى القاهرة وهناك «عليهم التصرف كما تصرف ابو دُمر (سليم العيساوي) في العملية السابقة ، مع التأكيد على تجنب الأخطاء التي حدثت في العملية في مطار دمشق ، كان ذلك يعني شيئاً واحداً ، تدمير الطائرة بالكامل ، وليس فقط رأسها كما حدث مع طائرة تي دبليو إي ، فقد استطاعت الشركة استعادة الطائرة وتشغيلها ثانية بعد ستة أسابيع من حادث الاختطاف»[37] . ولهذا الغرض تم تحميل الطائرة بكمية كبيرة من المتفجرات ، وصلت إليها في مطار بيروت ، ومن ثم توجهت إلى مطار القاهرة ، حيث تم إخلاء الركاب في دقائق معدودة

قبل أن ينفذ الخاطفون التعليمات التي أُعطيت لهم .

تقول بعض المصادر إن اختيار القاهرة للهبوط بالطائرة وتفجيرها هناك ، كان رسالة من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين إلى عبدالناصر لتحذيره من محاولة التفاوض مع إسرائيل ، أما ليلى خالد فتعتقد أن الجبهة كانت قلقة من قدرة مطار دوسون في الأردن (مطار الثورة) على احتمال وزن طائرة الجامبو .

تؤكد ليلى خالد أن محققي سكوتلنديارد كانوا واثقين من وجود سبب آخر لاختطاف طائرة «بان أم» غير الأسباب المعلنة ، فقد سألوها : «كيف علمتم بأن الطائرة تحمل ميزانية حلف الناتو على متنها؟» وعلى ما يبدو كانت الوثائق التي تحوي تفاصيل ميزانية الحلف مخبأة بين الجدار الداخلي والجدار الخارجي للطائرة ، وقد ظن المحققون أن الهدف الحقيقي وراء اختطاف الطائرة كان الحصول على تلك الوثائق ، ولكن سرعان ما تأكد المحققون من فشل نظريتهم بعد استماعهم للحوار الذي دار بين الخاطفين وقائد الطائرة .

سارت الأمور حسب الخطة المرسومة بالنسبة للطائرات الأخرى ، فقد تم اختطاف الطائرة السويسرية في رحلتها رقم ١٠٠ من زيورخ إلى نيويورك ، وطائرة تي دبليو إي في رحلتها رقم ٧١٤ المتجهة من فرانكفورت إلى نيويورك ، وتم تحويل وجهة الطائرتين إلى مطار حربي قديم كانت تستخدمه القوات البريطانية شمال شرق الأردن ، وكان يسمى مطار دوسون ، ثم

أطلق عليه الفلسطينون أثناء حوادث الاختطاف اسم مطار الثورة ، وقد حطت الطائرتان المخطوفتان في مطار دوسون في السادس من سبتمبر عام ١٩٧٠ ، وفي التاسع من سبتمبر التحقت بهما طائرة بريطانية تم اختطافها بعد إقلاعها من مطار البحرين ، وكان الخاطف فلسطينياً ، لكنه طبقاً لبعض المصادر كان يعمل وحده دون تنسيق مع أي من المنظمات الفلسطينية . أما وكالات الأنباء في ذلك الوقت فقد أوردت اسم فتاة تدعى منى عبدالساجد ، على أنها خاطفة الطائرة البريطانية[38] ، أما الهدف من اختطاف الطائرة فكان مقايضة الحكومة البريطانية لإطلاق سراح ليلى خالد ، التي كانت محتجزة لدى شرطة لندن ، مع أن ليلى تنفي أي علاقة للجبهة الشعبية بالطائرة المختطفة من البحرين .

تم احتجاز مئات الركاب في البداية داخل الطائرة في ظروف جوية صعبة جداً ، ففي تلك المنطقة الصحراوية حيث مطار دوسون ، كانت درجات الحرارة ترتفع نهاراً وتنخفض إلى ما دون الصفر ليلاً . ويصف ديفيد راب ، المسافر اليهودي على طائرة تي دبليو إي في الكتاب الذي نشره لاحقاً ، الفتاة التي قامت بخطف طائرته بأنها «فتاة جميلة في الواحدة والثلاثين من عمرها ، لها شعر أسود ، مجعد ، وكانت هادئة معظم الوقت ، وقد وصفها أحد المضيفين بأنها لطيفة ، كما منحها الطاقم في وقت لاحق مشبكاً يحمل شعار تي دبليو إي كهدية

تذكارية . وقد أخبرت الفتاة طاقم الطائرة بأنها كانت على وشك الزواج عندما اندلعت حرب عام ١٩٦٧ ، فقتل خطيبها في الحرب ، ولذلك فهي لن تتزوج حتى ينتهي الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي وتعود إلى بلادها ، وأضافت بأن لها أختاً متزوجة ولديها أطفال يعيشون في الولايات المتحدة ، وأن لها أقارب آخرين في سجون الاحتلال الإسرائيلي متهمين بالانتماء للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»[39] .

ذكر عدد آخر من ركاب الطائرات المختطفة أن بعض الخاطفين كانوا لطفاء ومحترمين ، وقد صرحت أم بريطانية للصحافة أن الخاطفين كانوا «ودودين ولطفاء ، وخاصة مع الأطفال ، الأمر الذي لاحظه الجميع»[40] . ومع ذلك فقد كان هناك عدد آخر من الخاطفين ممن لم يتركوا انطباعاً ايجابياً لدى الركاب وطواقم الطائرات المخطوفة ، ويذكر ديفيد راب ، أن بعض المقاتلين كانوا وقحين ، وعدائيين ، كما حاولوا التحرش ببعض المسافرات أكثر من مرة ، لكن رؤساءهم سرعان ما تنبهوا للأمر واستبدلوهم بآخرين ليحلوا محلهم في نوبات حراسة المسافرين[41] .

أُطلق سراح عدد كبير من الركاب وخاصة النساء والأطفال يوم السابع من سبتمبر ، وتم نقلهم إلى فندق الأردن انتركونتنتال في عمان[42] ، لكن عدداً آخر منهم ظلّ محتجزاً في الصحراء وخاصة أولئك الذين يحملون الجنسية

الإسرائيلية ، أو من لهم أية علاقة بإسرائيل . ومع امتداد فترة الاحتجاز ومرور الوقت ، أخذت الظروف الحياتية للركاب تتدهور بصورة واضحة ، فإمدادات الطعام كانت تتناقص ، وانتشرت الروائح الكريهة في المكان ، نظراً لعدم إمكانية تنظيف دورات المياه في الطائرات بسبب انقطاع الكهرباء . وفي ذلك الوقت ، كانت تجري مفاوضات متشعبة ومكثفة بين الجبهة الشعبية من جهة ، والدول التي ينتمي إليها الركاب المحتجزون مثل فرنسا ، وسويسرا وألمانيا والولايات المتحدة وبريطانيا ، التي كانت تحتجز ليلى خالد من جهتها ، بينما مواطنوها محتجزين في الطائرة البريطانية ، وبالطبع كان هناك إسرائيل التي تبنّت نهجاً متشدداً في المفاوضات الدائرة لمقايضة المسافرين الإسرائيليين بأسرى ومعتقلين فلسطينيين في السجون الإسرائيلية ، وبالإضافة لذلك كان هناك الطرف الأردني ودول عربية أخرى على رأسها مصر بقيادة عبدالناصر . وقد كانت المفاوضات تجري عبر الصليب الأحمر والهلال الأحمر ، وسُمح لأعضاء المنظمتين بزيارة الرهائن المحتجزين وتقديم المساعدات الطبية والإنسانية لهم .

تم إطلاق عدد من الرهائن الآخرين في مجموعات صغيرة خلال الأسابيع الثلاثة اللاحقة ، من ضمنهم المزيد من النساء والأطفال ، وبعض الرجال الذين ثبت أن لا علاقة لهم بإسرائيل وأمريكا ، لكن ذلك لم يكن نهاية المطاف بالنسبة

للرهائن ، فقد كانت المواجهات تتزايد بين قوات الجيش الأردني ومقاتلي الفصائل الفلسطينية ، وجاءت قضية الرهائن المحتجزين وخطف الطائرات ، وما صاحب ذلك من ضجة إعلامية لتزيد الطين بلة ، فاندلعت اشتباكات عنيفة وموسعة بين الطرفين عُرفت فيما بعد بأحداث أيلول الأسود .

استغلت الحكومة السورية الموقف لإرسال قوات عسكرية إلى شمال الأردن لمساندة الفلسطينيين ، أما إسرائيل قد حشدت قواتها على الضفة الغربية من نهر الأردن في إشارة واضحة إلى استعدادها للتدخل في أية لحظة ، وبدا في ذلك الوقت أن الشرق الأوسط كله مهدد بانفجار وشيك .

نُقل ما تبقى من الرهائن إلى مواقع مختلفة في العاصمة الأردنية قبل أن يتم تفجير الطائرات بالكامل في مطار الثورة ، في مشهد فريد من نوعه في الثاني عشر من سبتمبر . أما الرهائن فقد ظل بعضهم في فندق أنتركونتيننتال ، بينما نُقل آخرون إلى أماكن آمنة في المخيمات الفلسطينية ، وكان عليهم تقاسم المعاناة مع خاطفيهم خلال اندلاع الاشتباكات مع الجيش الأردني ، ومن الغريب في الأمر أن أحداً من الرهائن لم يصب بأي أذى في أثناء القتال ، بينما قُتل آلاف الفلسطينيين والأردنيين جراء المواجهات المسلحة . وتروي ليلى خالد قصصاً كثيرة رواها الرهائن عندما عادوا إلى بلادهم ، ومنهم أحد الطيارين الذي صرّح عند عودته إلى لندن في برنامج إذاعي

قائلاً : «لقد قتل ثلاثة عشر رجلاً من مقاتلي الجبهة الشعبية وهم يدافعون عنا في مخبأنا ، ومع ذلك فقد حرصوا دائماً على تزويدنا بالطعام والشراب» . وقد قدّم جورج حبش اعتذاراً للرهائن المحتجزين في فندق الأردن عما يحدث ، وقال بأنه آسف لتأخيرهم واحتجازهم في هذه الظروف ، لكنه أضاف بأن الفلسطينيين يعانون ظروفاً أسوأ منذ سنوات في انتظار العودة إلى بلادهم .

نقلت ليلى خالد من المستشفى الذي كانت تُعالج فيه إلى مركز شرطة إيلنج في لندن ، لكنها لم تتجاوب مع المحققين في البداية ، وتقول عن ذلك : «لم أتحدث إلى أي منهم ، وطلبت منهم أن أعامل معاملة أسرى الحرب بصفتي مقاتلة في الجبهة الشعبية ، ولا أدري حقاً لماذا قلت ذلك ، لكنني لم أرغب في الكلام مع أي أحد ، فقد كنت حزينة لموت أرغويلو ، ومستاءة جداً لفشل عملية الاختطاف ، فقد كانت تلك هي العملية الرئيسية التي كنّا نسعى من ورائها لإطلاق سراح عدد كبير من الأسرى في السجون الإسرائيلية» ، وبالإضافة لكل ذلك ، فقد كانت ليلى تعاني آلاماً مبرحة نتيجة كسور في أضلاعها بعد معركة الطائرة .

حافظت ليلى على صمتها مدة أسبوع كامل ، ثم بدأت بالتحدث إلى ضابط شرطة يدعى ديفيد فرو ، الذي حفزها على الحديث معه ، بعد أن وافق على اعتبارها مقاتلة في

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، لكن عندما أخذ يطرح المزيد من الأسئلة ، امتنعت ليلى عن الإجابة قائلة بأنها كمقاتلة وأسيرة حرب لن تبوح بغير اسمها ورقم الوحدة التي تقاتل فيها في جيش الجبهة الشعبية ، فرد فرو : «نحن لسنا في حرب معكم» ، فردت ليلى «لقد أعلنتم علينا الحرب بإصدار وعد بلفور عام ١٩١٧» . وهكذا ظل الطرفان يلعبان لعبة القط والفأر لفترة طويلة ، حيث يحاول فرو منع ليلى من تحويل التحقيق إلى خطب سياسية ، بينما تحاول ليلى تقويض شرعية التحقيق معها بالأساس .

فجأة ، وفي أثناء الحوار ، قال فرو معلومة جذبت انتباه ليلى : «طائرتك ليست الطائرة الوحيدة المخطوفة ، فقد قام رفاقك باختطاف طائرات أخرى» ، وهنا تعترف ليلى بأنها أرادت المزيد من المعلومات حول هذا الموضوع ، «بدأ فرو يسرد أسماء الطائرات بسرعة ، طائرة سويسرية ، طائرة تي دبليو إي ، طائرة بان أم ، وطائرة بريطانية ، فقاطعته قائلة : أرجوك أعد ما قلته ببطء فأنا أعتقد أن معلوماتك غير صحيحة تماماً ، إذ ليس في المخطط اختطاف لطائرة بريطانية ، لكن فرو أكدّ بأن طائرة بريطانية خُطفت وتم توجيهها إلى مطار دوسون ، لكنني لم أكن قد سمعت باسم هذا المطار من قبل ، فقد كنا نسميه مطار الثورة ، وعندما سألته عن موقع هذا المطار ، وما هي مطالب الخاطفين ، أجاب «إنه في شمال الأردن ، والمطلب الرئيسي

للخاطفين هو إطلاق سراحك» .

لم يصدق فرو أن عملية اختطاف الطائرة البريطانية كانت مجرد ردة فعل عفوية غير مخططة على احتجاز ليلى خالد لدى الشرطة البريطانية ، ولذلك كان يحاول استدراج ليلى للبوح بمزيد من المعلومات حول تلك العملية ، وذلك بإطلاعها على بعض ما يحدث خارج حبسها . وبالفعل لم تذهب جهود فرو سدى ، فبعد اعتراف الشرطة البريطانية بوضعية ليلى العسكرية ، ومخاطبتها كمقاتلة ، بدأت ليلى تخرج عن صمتها وأصبحت أكثر تعاوناً ، وتحسنت ظروف حياتها اليومية في السجن البريطاني ، وقد تم إخلاء مركز الشرطة بالكامل ، ولم يبق فيه إلا ليلى والمحققون وسبعة من رجال الحراسة الذين كانوا يرافقونها طوال الوقت ، ومنهم اثنان يظلان في غرفتها ليل نهار ، كما سُمح لها بوقت خاص للرياضة تمارس خلاله لعبة تنس الطاولة مع إحدى الشرطيات المعينات بحراستها . ثم طلبت ليلى صحفاً للقراءة بعد أن رفضت بغضب المجلات النسائية التي قدمها لها الحراس ، فأحضروا لها بعض الصحف اليومية التي كانت تتأخر أحياناً بسبب الإضرابات العمالية في لندن . شعر الجميع في مركز الشرطة بالارتياح بعد أن بدأت ليلى بالتعاون مع محققيها ، كما أن ليلى ذاتها بدت أكثر استرخاءً وهي تستعيد عافيتها شيئاً فشيئاً ، فكانت تمازح حراسها وتتحدث إليهم ، وأطلقت اسم «الحرس الملكي» على

مجموعة الحرس التي ترافقها كلما صعدت إلى الطابق العلوي للاستحمام ، بعد أن خُصص لها حمام رئيس المركز لاستخدامها الخاص ، وتم إحضار مناشف خاصة بها وملابس نظيفة لترتديها ، لكنها رفضت بشدة وجود شرطية ترافقها في الحمام ، وقالت لحراسها : «لا تخافوا أنا لن أنتحر ، فما زال لدي الكثير من المهمات لأنفذها» ، وعندما جاء ضابط برتبة أعلى من خارج المركز لزيارتها ، أخذت تمازحه قائلة إنها جلبت معها بعضاً من حرارة الشرق الأوسط وإنها تريد أن تستمتع بيوم مشرق في لندن ، فأمر بأن تُنقل إلى طابق علوي ، وأن تفتح النوافذ لتتنفس الهواء النقي .

لا تزال ليلى تحمل انطباعاً جيداً عن الوقت الذي أمضته في مركز شرطة إيلنج في لندن ، فهي تذكر أوقاتاً أمضتها مع إحدى الشرطيات تتحدثان حول أمور الزواج والحب والطلاق وشؤون الحياة اليومية التي يتشارك فيها كل البشر ، وقد توطدت علاقتها ببعض الحراس ، حتى إنهم كانوا يحضرون لها السجائر الإضافية من خارج السجن ، فقد كان مسموحاً لها بست سجائر يومياً لا غير ، وظلت تتواصل مع بعض الحرس بعد خروجها من سجنها لفترة طويلة . وتتبادل معهم بطاقات المعايدة في أعياد الميلاد ومناسبات أخرى حتى جاءت الحرب الأهلية في لبنان ودمرت خدمات البريد في بيروت ، فانقطعت علاقتها بهم . وقد زارت ليلى لندن عام ٢٠٠٢ ، وحرصت على

زيارة مركز الشرطة الذي شهد فترة احتجازها ، وقام أحد أصدقائها بالتقاط صورة لها أمام المبنى ، لكن شرطية خرجت إليهما وأخبرتهما أن التصوير ممنوع أمام المبنى ، فأخبراها بأن ليلى مجرد سائحة معجبة بالمكان ، ومع ذلك وصل الخبر إلى الصحافة ، ونُشرت القصة في جريدة الغارديان بعد الحادثة بعدة أيام .

تؤكد ليلى أن معظم ما نُشر من أخبار عنها في فترة احتجازها ، كان يصل إلى الصحافة عبر فرو وزملائه . فقد علمها الحراس ألعاب الورق للتسلية وقضاء الوقت الطويل داخل السجن ، لكن الصحف علمت بالخبر ، وظهر رسم كرتوني يمثل ليلى والحراس يلعبون الورق ، وتتغلب هي على حراسها في اللعبة . وفي نادرة أخرى ، قالت ليلى للمحقق فرو إنها سيدة عربية ولا تسمح بتوجيه عبارات الإطراء والإعجاب إليها ، وسرعان ما ظهر الخبر حرفياً في صحف اليوم التالي ، فغضبت ليلى وعاتبت فرو لأنه يُدلي بتصريحات للصحافة بينما يمنعها من فعل ذلك! وكثيراً ما كانت تؤنبه لأنه يخرق القواعد في التعامل معها ، لكنها تضيف : «لقد كان لطيفاً جداً معي . وأعتقد أنه كان يشعر بالذنب ، لكن وجودي في ذلك المكان كان بغير إرادتي ، ولم أتوقع يوماً أن أصل إلى هناك» .

كانت ليلى تستمتع بسرد حقوقها القانونية التي يمنحها لها القانون البريطاني ، بوصفها سجينة في مركز الشرطة ، وقد

حفظت ليلى تلك الحقوق بعد أن رأتها معلقة على حائط زنزانتها ، وأخذت تستعملها كلما رفض لها المحققون طلباً من طلباتها ، فقد التزمت الصمت التام أثناء التحقيق حتى جاؤوا لها بسيدة لتحقق معها ، وكان اسمها هيزل ، وتقول ليلى : «إنها الوحيدة التي بقيت أذكر اسمها حتى الآن» ، لكنها لم تعجب ليلى واضطر المحققون لتعيين شرطية أخرى لمرافقتها ، وكثيراً ما أظهرت ليلى رفضها وتحديها لأوامر المحققين ، وخاصة بعد أن علمت أن رفاقها في الجبهة الشعبية ، بسام أبو شريف ، وغسان كنفاني ، قد هددا بأعمال انتقامية إذا ما مسّت بريطانيا شعرة من رأس ليلى خالد ، وذلك خلال مؤتمر صحفي عقداه في الأردن في أثناء وجود الطائرات المخطوفة في مطار الثورة .

لم تكن الحكومة البريطانية ترغب من جهتها في الاحتفاظ بليلى خالد ، كما أنها بالتأكيد لم تكن تخطط لتسليمها لإسرائيل ، وتؤكد ليلى ذلك بقولها : «عندما عدت إلى لبنان ، أخبرني غسان كنفاني بأن السفير البريطاني حضر إلى مقر قيادة الجبهة الشعبية ، وأعطاه شعار السفارة وعلم بريطانيا ، وقال له : «احتفظ بها كرهينة لديك حتى عودة ليلى خالد ، إذ سيُطلق سراحها قريباً» .

أخذت ليلى تطلع على الأحداث الدائرة في الأردن من سجنها في لندن ، بعد أن بدأت تصلها الصحف اليومية ، وكانت تحدث فرو عن الصدامات المسلحة السابقة التي حدثت

بين مقاتلي الفصائل الفلسطينية والجيش الأردني ، وعن مشاركتها في تلك الصدامات بصفتها مقاتلة في الجبهة الشعبية . ولكن مع استمرار الحرب اليومية ، وتوسع رقعة الصراع ، بدأت ليلى تشعر بالقلق ، لكنها حاولت ألا تُظهر ذلك ، وتتذكر قائلة : «حاولت أن أحافظ على صلابتي ، وأظهرت للمحققين قلة اهتمامي بما يجري ، لكن مع تدهور الأوضاع على الساحة الأردنية بدأت أقلق بالفعل ، ولا بد أن فرو شعر بذلك ، فقد عرض عليّ حق اللجوء السياسي إلى بريطانيا ، زاعماً أن المقاومة الفلسطينية انتهت ، وأنني لن أجد مكاناً أذهب إليه . وكنت أعلم طبعاً أنه يحاول كسر إرادتي والحط من معنوياتي ، لكن ردي جاء بعكس ما كان يتوقع ، فقد أخبرته أنه «حتى لو انتهت المقاومة ، فإنني سأعود إلى المخيم لأتزوج وأنجب أبناء وأعلمهم القتال ، كما حاولت أن أشرح لفرو أن صراعنا مع النظام الأردني ليس وليد اللحظة ، وأننا كنا نعلم أن النظام يسعى لتدميرنا منذ مدة ، لكنه كان ينتظر الفرصة السانحة التي جاءت مع عمليات خطف الطائرات» .

كانت ليلى في زنزانتها يوم الثامن والعشرين من سبتمبر ، عندما تناهى إلى سمعها صوت نشرة الأخبار من مذياع يحمله أحد حراسها خارج الزنزانة ، وفي تلك اللحظة كان المذيع يعلن وفاة جمال عبدالناصر . لقد كانت المرة الأولى التي يرى فيها

الحرس ليلى تبكي ، وعندما سألها فرو تلك الليلة ، لماذا تبكي عبدالناصر ، وهي لم تبك لسماع أنباء مقتل المئات من أبناء شعبها في الحرب الدائرة في الأردن ، أجابت أن عبدالناصر يعني الكثير بالنسبة لها ، فهو زعيم قومي حقق الكثير للوحدة العربية وللفلسطينيين ، ثم أضافت «لكنني بكيت أيضاً حين سمعت نبأ اغتيال الرئيس كينيدي» ، فقد كان هو أيضاً زعيماً وطنياً لبلاده ، وبالطبع أظهر فرو دهشته البالغة «أحقاً بكيت من أجل كينيدي؟» .

فأجابت ليلى : «نعم ، فأنا أكره الاغتيالات» ، وفي اليوم التالي ظهر ذلك الحديث في الصحف تحت عنوان «ليلى تبكي من أجل كينيدي» .

تعاملت الصحافة البريطانية مع قضية ليلى خالد ، وحقيقة وجودها في سجن بريطاني بطريقة تثير الدهشة ، فلم تهاجمها يوماً بطريقة مباشرة ، بل وكان هناك أحياناً نوع من التعاطف ، فمعظم العناوين كانت تشير إليها باسم «ليلى» أو الخاطفة ، وتشير إليها عناوين الصحف الرصينة بلقبها «الآنسة خالد» ، وكانت معظم الأخبار تدور حول صحتها ، وتفاصيل حياتها اليومية في السجن وقضية إطلاق سراحها ، أما الاهتمام الحقيقي فكان موجهاً إلى الرهائن المحتجزين في الأردن ، حيث كان المراسلون يبعثون بتقاريرهم عن أحوالهم ، وخاصة الرهائن البريطانيين»[43] . كما حظيت ليلى باهتمام الجمهور البريطاني

كذلك ، فكانت تصلها عشرات الرسائل في سجنها يومياً ، بما فيها رسائل تعبر عن الكراهية ، ورسائل أخرى تحمل عروض زواج من الفتاة الخاطفة ، غير أن الشرطة البريطانية منعت ليلى من الرد على أي من تلك الرسائل ، وكان مسموحاً لها مراسلة عائلتها فقط[44] .

أُطلق سراح ليلى خالد أخيراً في الثلاثين من سبتمبر ، بعد أسابيع طويلة من المفاوضات بين الحكومة البريطانية والأردنية والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . وقد ودعت ليلى المحقق فرو بطريقة ساخرة ، وهي تقول : «لقد أعجبني هذا الفندق والخدمة فيه ممتازة! سأنصح رفاقي بالقدوم إلى هنا» ، وفي العام ذاته بعد وصولها إلى لبنان ، بعثت لفرو وعدد من الضباط في مركز الشرطة ، بطاقات معايدة بمناسبة عيد الميلاد ومعها صور للطائرات التي تم تفجيرها في مطار دوسون .

لم يكن إخراج ليلى من مركز شرطة إيلنج بالأمر الهين ، فقد أُمرت بأن تخرج مباشرة إلى عربة شرطة مغلقة وهي ترتدي زي الشرطة النسائية ثم تستلقي على أرضية العربة لتفادي الصحفيين الذين كانوا ينتظرون عند البوابة[45] ، ثم تحركت العربة يرافقها عدد من العربات المصفحة والدراجات النارية لتنقل ليلى إلى قاعدة نورث هولت ، ومن ثم حُملت بطائرة هليوكبتر إلى قاعدة لينهام الجوية الملكية[46] . حيث استقلت طائرة كوميت تابعة لسلاح الجو الملكي ، أخذتها إلى ميونخ

وزيورخ لنقل السجناء الفلسطينيين ، الذين تمت مبادلتهم بالرهائن الألمان والسويسريين الذين كانوا على متن الطائرات المختطفة ، ثم توجهت الطائرة إلى القاهرة ، حيث تم إطلاق سراحها بالإضافة للسجناء الفلسطينيين الآخرين في الأول من أكتوبر .

تم التحفظ على ليلى وبعض القيادات الفلسطينية التي قدمت من مطار الثورة في بيت آمن في القاهرة مدة أحد عشر يوماً[47] قبل أن يغادروا القاهرة ، ولكن قبل أن يغادروا ، كان لا بد من زيارة لضريح الزعيم جمال عبدالناصر ، حيث وضعوا الزهور على قبره ، وهناك وجّه الصحفي مايكل برونسون من قناة أي تي إن سؤالاً إلى ليلى فيما إذا كانت تشعر ببعض المسؤولية تجاه ما حدث في الشرق الأوسط في الأسابيع المنصرمة ، فأجابت : «كلا ، مطلقاً»[48] .

تقول ليلى : «لقد ذهبت ورفاقي الآخرين إلى سوريا ، ثم إلى لبنان ، حيث انتقل مقاتلو منظمة التحرير الفلسطينية بعد خروجهم من الأردن» .

الفصل الرابع
زواج وموت

عادت ليلى إلى موقعها في لبنان ضمن وحدة العمليات الخارجية بقيادة الدكتور وديع حداد ، داخل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . وتقول عن تلك الفترة : «كانت الأوضاع في منتهى الفوضى في ذلك الوقت ، فبعد خروج المقاومة من الأردن ، كان لا بد من مرور بعض الوقت قبل إعادة ترتيب القواعد من جديد في الجنوب» . ورغم أن المقاومة خرجت بالكامل تقريباً من الأردن ، إلى أن بعض القواعد ظلت موجودة لفترة في جرش وعجلون ، كما جاء في كتاب النحاس والريس :

«بقيت بعض قواعد المقاومة الفلسطينية موجودة في جرش وعجلون ، شمال الأردن حتى ربيع عام ١٩٧١ ، لكن الجيش الأردني كان قد قرر مسبقاً التخلص من كل أثر للمقاومة في الأردن ، وظل يهاجم تلك القواعد حتى انتهى الأمر بإخراج جميع المقاتلين من شمال البلاد ، ومع انتهاء عام ١٩٧١ انتهت المقاومة الفلسطينية المسلحة في الأردن ، وباتت مهددة في

مناطق أخرى من الشرق الأوسط»[1] .

كان هناك الكثير من العمل بانتظار ليلى في لبنان بعد خروجها من سجنها في لندن ، ولم يكن هناك بالطبع أي متسع للحياة الشخصية ، وتتذكر أنها حاولت أن تذهب لرؤية والدتها ليوم واحد ، لكن وديع حداد كان لها بالمرصاد : «جاءت أمي لزيارتي من صور حيث تسكن ، وذلك مباشرة بعد عودتي من لندن ، فحاولت أن أذهب إلى بيت أختي في بيروت لرؤية والدتي ، لكن وديع قال لي «سأمنحك ربع ساعة لرؤية والدتك!» فأجبته «غير معقول ، لا بد أن أقضي الليلة معها في منزل أختي» ، فقرر أن يأتي معي ، وقد كانت عائلتي تعرف وديع منذ تأسيس حركة القوميين العرب ؛ لأنه كان يأتي إلى بيتنا ليجتمع بإخوتي في الخمسينات والستينات . رجته أمي أن يدعني أقضي الليلة معها ، فرفض متعللاً بأنني كُنت في إجازة طويلة ، فقلت «إجازة ، في السجن!» فرد عليّ قائلاً : وماذا كنتِ تفعلين هناك؟ لا شيء . ولذلك عليك أن تعودي إلى عملك مباشرة . «وهكذا قضيت بعض الوقت مع أمي ، لكنني بالتأكيد لم أقض هناك ليلة كاملة» .

لم تكن عودتي للعمل بأقصى سرعة هي السبب الوحيد وراء إصرار وديع على عدم بقائي تلك الليلة ، فقد كانت هناك أسباب أمنية أيضاً ، وكان من الخطورة بمكان تواجدي في مكان واحد لفترة طويلة ، وذلك لتفادي أية ضربات قد توجهها

إسرائيل ، فقد كان هناك تصريحات كثيرة لمسؤولين إسرائيليين في تلك الفترة تهدد باستهدافي في بيروت ، ولذلك كنت دائماً أتحرك من مكان إلى آخر ، وفي الوقت ذاته ، كان عليّ التنقل كثيراً لحضور الاجتماعات المتتالية لإعادة بناء الحركة من جديد ، وبالطبع كان ذلك يعني فقدان أي نوع من الاستقرار في حياتي .

كانت بيروت في الستينات وجهة سياحية معروفة ، يأتيها الزوار من جميع أصقاع الأرض ، ويصفها الصحفي المعروف روبرت فسك بقوله : «كان الاقتصاد مزدهراً في بيروت ، وتوسعت البنوك في تقديم خدماتها ، وبحلول عام ١٩٦٢ كان هناك ٣٨ شركة طيران تُسير رحلاتها إلى بيروت بمعدل ٩٩ رحلة يومياً ، وكان هناك ٦٥,٠٠٠ سيارة يستخدمها السواح من أصل ٧٦,٠٠٠ سيارة موجودة في المدينة ، فأصبحت بذلك «بوابة الشرق» كما جاء في دليل هاشيت السياحي عام ١٩٦٥»[2] .

مما لا شك فيه ، أن ذلك الوجه الناعم المصقول لبيروت الستينات ، كان يخفي تحته توترات كانت تظهر بين الحين والآخر ، فقد كانت رفاهية بيروت مقصورة على فئات بعينها ، بينما كانت فئات أخرى تعاني نقص الخدمات الأساسية لحياة كريمة[3] ، وزاد على ذلك قدوم آلاف المقاتلين الفلسطينيين للاستقرار وبناء قواعدهم من جديد في لبنان ، وقد كان لبنان

بيئة مناسبة جداً للعمل الثوري في ذلك الوقت ، فهو بلد مجاور لإسرائيل ، حيث تسمح الحدود المشتركة بالعمليات الفدائية ، وهناك أيضاً حرية الإعلام الذي كان الأفضل في المنطقة ، ولذلك كانت بيروت حينها مركزاً للكثير من المعارضين والمنشقين في أنظمة استبدادية وقمعية في العالم العربي ، ومن خارج العالم العربي أحياناً .

وجدت ليلى ورفاقها في بيروت قاعدة عريضة لاستقطاب أعضاء جدد للجبهة ، ومقاتلين ينضمون إلى معسكرات التدريب التي أعدت في الجبال ، ولم تقتصر تلك القاعدة على أبناء المخيمات الفلسطينية في لبنان ، فقد كانت بيروت تعجّ بالثوار من مختلف الجنسيات ، وفي هذا السياق يذكر الكاتب ماركار ميلكونيان(*) في مؤلفه حول سيرة حياة أخيه مونتي ميلكونيان ، أن بيروت في السبعينات كانت مدينة صاخبة ، مثيرة ، تعج بالثوريين والحركات الثورية المسلحة من جميع الاتجاهات ، ويشير إلى ليلى خالد ووديع حداد ودورها في تلك الفترة . وقد كانت المجموعات الثورية تتبادل الخبرات والمعلومات

(*) ماركار ميلكونيان Markar Melkonian : كاتب أمريكي - أرمني ، وعضو في حركة التضامن العالمية ، وهو شقيق المناضل الأممي مونتي ميلكونيان Monte Melkonian ، الذي حارب في بيروت وإيران وأرمينيا ، وقُتل في إحدى قرى ناغورنو- كاراباخ عام ١٩٩٣ . (المترجمة) .

وحتى الأفراد[4] . أما ليلى خالد فتضيف : «لقد عمل معنا الكثير من الأجانب ومن مختلف الدول والمنظمات ومنهم باتريك أرغويلو الذي كان ينتمي للحركة الساندينية ، فقد كانت لدينا علاقات وثيقة مع الحركة . لقد اجتذبت القضية الفلسطينية الكثير من الجماعات المعارضة وحركات التحرر في العالم ، وكان يأتي إلينا أشخاص من أوروبا وأمريكا واليابان وجميعهم يريدون الانضمام إلى معسكراتنا للتدريب . منهم من كان يحارب معنا بعد ذلك في خدمة قضيتنا ، ومنهم من كان يحتاج إلى المهارات التي يكتسبها في معسكراتنا ليكمل طريقه في خدمة قضية أخرى .

ساهم بعض الرفاق الأجانب بإضفاء بعض الشكوك على مصداقية الجبهة الشعبية ، في التزامها بعدم تعريض المدنيين للمخاطر ، وتركيز عملياتها على الأهداف العسكرية الإسرائيلية فقط ، وهو ما تؤكده ليلى خالد والناطق الرسمي باسم الجبهة خليل مقدسي في جميع مقابلاتهما . وعلى سبيل المثال قتل عضوان في الجيش الأحمر الياباني عام ١٩٧٢ ، ٢٤ شخصاً معظمهم من المدنيين ، أثناء عملية في مطار اللد ، وكان الرجلان قد تدربا في معسكرات الجبهة الشعبية ، ودخلا إلى الشرق الأوسط عن طريق بيروت ، وقد مات أحدهما في العملية ، وكان متزوجاً من عضوة في الجيش الأحمر تدعى فوساكو شيجينوب ، لها صور مع ليلى خالد

أُلتقطت قبل أيام من تنفيذ العملية ، أما المقاتل الثاني كوزو أوكاموتو فقد قبضت عليه السلطات الإسرائيلية بعد أن فشل في تفجير نفسه خلال العملية ، وتعرض للكثير من التعذيب والحبس الانفرادي قبل أن يُحكم عليه بالسجن مدة طويلة . ذكر كوزو اسم بسام أبو شريف أثناء التحقيق ، الذي كان الناطق الرسمي باسم الجبهة في مطار دوسون أثناء عملية خطف الطائرات ، وأقر كوزو أن أبو شريف كان صلة الوصل بينه وبين رؤسائه عندما كان في بيت آمن في بيروت[5] .

قررت اللجنة المركزية في الجبهة الشعبية عام ١٩٧٠ إيقاف عمليات خطف الطائرات ، لكن وديع حداد عارض هذا القرار ، وقام بتنظيم عملية عنتيبي عام ١٩٧٦ ، والتي فُصل بسببها من عضوية الجبهة الشعبية حسب أقوال ليلى خالد ، لكن مصادر أخرى تقول إنه ترك الجبهة قبل ذلك بكثير ، ربما عام ١٩٧٢[6] ، وقد قامت القوات الإسرائيلية في عنتيبي بقتل الخاطفين وبعض الرهائن ، كما قُتل بعض الإسرائيليين كذلك من بينهم يوناتان نيتنياهو شقيق بنيامين نيتنياهو ، وقد كان يوناتان أحد أعضاء وحدة الكوماندوز التي هاجمت الخاطفين .

ظل حداد على علاقة طيبة مع بعض أفراد الجبهة الشعبية حتى وفاته بمرض السرطان في أحد مستشفيات ألمانيا عام ١٩٧٨ ، وقد سار في جنازته وفد من الجبهة الشعبية برئاسة جورج حبش ، توجه إلى العراق حيث دُفن[7] . أما جبهة الرفض ، فقد تكونت

من الفصائل الفلسطينية التي عارضت سياسة عرفات التفاوضية مع إسرائيل ، وضمت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وفصائل أخرى تبنت سياسة العنف بوضوح ، مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة برئاسة أحمد جبريل ، التي ارتبطت لدى بعض المحللين بتفجير طائرة «بان آم PAN AM» فوق مدينة لوكربي الاسكتلندية عام ١٩٨٨[8] .

كان ياسر عرفات من بين الشخصيات المعروفة كذلك في بيروت السبعينات ، فقد كان قائد الفصيل الأساسي في منظمة التحرير الفلسطينية ، فصيل فتح . وتقول ليلى إنها تعرفت على ياسر عرفات عن قرب من خلال دورها في المجلس الوطني الفلسطيني ، والاتحاد العام للمرأة الفلسطينية ، «لقد أسسنا بيتاً للأطفال في مخيم تل الزعتر ، وكان عرفات يأتي أحياناً لزيارة الأطفال وتفقد أحوالهم ، ويتناول معهم الغداء أو العشاء ، وكنا نتناقش في المواقف السياسية المختلفة ، لكنه كان يصر على أن قيادة منظمة التحرير هي المسؤولة الوحيدة عن صياغة الموقف السياسي للفلسطينيين ، فكنت أرد عليه بأننا شعب ديموقراطي ولا بد من استطلاع جميع الآراء ، والاستماع إلى وجهات النظر المختلفة ، لكن رده في معظم الأحيان كان يتلخص في أن الديموقراطية الفلسطينية هي ديموقراطية البنادق ، ولا بد من إيجاد توازن بين الديموقراطية والسلاح .

لقد كان شخصية براغماتية إلى أبعد الحدود ، يتمتع

بحيوية فائقة ، ونشاط يُحسد عليه ، كما كان محبوباً وودوداً ، لكنه مع الأسف كان ينفرد بالقرارات المهمة ، ولا يأخذ آراء قادة الفصائل الأخرى بعين الاعتبار ، وقد أعلنها صراحة ذات مرة حين قال : «تكلموا كما تشاؤون ، وأنا سأفعل ما أشاء» .

عرفت ليلى الأمين العام للجبهة الشعبية ، جورج حبش معرفة وثيقة ، وعملت معه أكثر من أربعين عاماً حتى وفاته في يناير ٢٠٠٨ ، ولا تزال تتحدث عنه إلى الآن بإجلال واحترام كبيرين ، أما لقب «الحكيم» فقد اكتسبه جورج حبش بصفته طبيباً ، أولاً ، ثم زعيماً حكيماً ، يشهد له بالإخلاص ورجاحة الرأي كل من عمل معه في المقاومة ، وتصفه ليلى أنه «يناقش الجميع ، ويخضع لرأي الأغلبية ، رجل ديمقراطي وحكيم ، يستمع بانتباه عندما تتحدث إليه قبل أن يجيب عن أي سؤال ، أو يبدي أي رأي . لم أره مرة يصرخ أو يغضب من أحد ، وقد قال لي يوماً : «عندما تغضب ، لا بد أن توجه هذا الغضب نحو المشكلة الرئيسية ، وفي حالتنا هذه ، مشكلتنا هي العدو الإسرائيلي ، ولذلك فغير مسموح لنا أن نغضب أو نصرخ طالما ظلت فلسطين تحت الاحتلال» . وتضيف ليلى : «كان صبوراً جداً ، وعطوفاً كذلك ، فقد رأيته عدة مرات يبكي عندما يتحدث عن أمهات الشهداء وأبنائهم ، وأحياناً عندما يُرسل له أحدهم سلاماً من الأراضي المحتلة ، لكن ذلك لم يمنع أنه كان رجلاً صلباً ، وقد تعلمت منه الكثير ، وحتى الذين كانوا

يعارضون أفكاره السياسية ، كانوا يكنون له كل الاحترام والحب ، ومن بينهم عرفات ، فقد كان دائماً يقول إنه يختلف مع الحكيم في وجهات النظر ، لكنه مع ذلك أخوه في النضال ، وأعتقد أنه كان دائماً الضمير الحي للثورة» . أما أسعد أبو خليل فيؤكد أنه «كان شخصية محبوبة جداً بالرغم من قيادته المتسلطة أحياناً ، والتي أدت إلى خلافه الحاد مع نايف حواتمة ، وانفصال حواتمة في النهاية ليكون الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين»[9] .

تعترف ليلى خالد أن العمل النضالي -رغم التزامها التام به- أثر سلباً على حياتها الخاصة ، فقد تقدم لخطبتها باسم ، قائدها المباشر في المعسكر الذي تدربت فيه قبل قيامها بخطف الطائرة عام ١٩٧٠ . وكما جاء في مذكراتها التي نُشرت عام ١٩٧٣ ، فقد بدأت علاقتها الرومانسية بباسم أثناء فترة تدريبها الأولى في معسكرات الجبهة الشعبية في الأردن عام ١٩٦٩ . غير أن ليلى تتحدث الآن عن تلك العلاقة بصورة شاعرية جميلة ، تختلف عن الخطاب السياسي الواقعي الذي يميز مذكراتها الأولى وتقول : «كان باسم قائد الوحدة التي أتدرب فيها ، وكنا أحياناً في أوقات الراحة تذهب لزيارة قبيلة بدوية ضربت خيامها على التلال القريبة من معسكرنا ، وقد دُعينا في إحدى الليالي إلى حفل عشاء ضخم بمناسبة زفاف أحد أبناء القبيلة ، وكم كانت ليلة رائعة ، رقصت فيها فتيات القبيلة

بثيابهن الملونة اللامعة تحت ضوء القمر الفضي ، وكان الجميع يشاركون بالغناء والتصفيق في أجواء من الفرح والرومانسية ، التي انعكست علينا ، وشعرنا أن الحب قد ربط بين قلبينا إلى الأبد» .

تم إعلان خطبة ليلى وباسم في فبراير عام ١٩٧٠ بموافقة قيادة الجبهة ، ولم يتم استشارة أي من العائلتين ، وفي ربيع ذلك العام ذهبت سميرة ، شقيقة باسم ، إلى الأردن لمقابلة العروس التي أخذت تتنقل مع سميرة من مكان إلى آخر في شوارع عمان ، المليئة بالسيارات المحترقة وعبوات الرصاص الفارغة ، ويسمع فيها دوي الرصاص في كل مكان مع تطور المواجهات بين الفدائيين وقوات الجيش الأردني[10] .

كان باسم عراقياً ، انضم إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، بعد أن سُجن عشر سنوات في العراق لانتمائه للحزب الشيوعي العراقي ، وبعد إعلان الخطبة أخذ الجميع يتساءلون : كيف ستكون حياة المناضلين معاً؟ فكانت ليلى ترد «لا توجد مشكلة ، سأذهب أنا إلى عملي ، ويذهب هو إلى عمله ونواصل حياتنا» ، لكن عائلة ليلى ظلّت مستاءة من هذا الزواج الذي لن يعيش فيه الزوجان معاً! وظلت ليلى تؤكد لعائلتها أنهما ما داما يناضلان من أجل قضية واحدة فهذا يكفي لبناء زواج ناجح .

تم الزواج في ٢٦ نوفمبر ، بعد حوالي شهر من عودة ليلى

من حبسها في لندن ، طبقاً لما جاء في مذكرات ليلى ، ولم يكن هناك أي نوع من الاحتفال بالمناسبة ، لكن كان على الزوج الحصول على موافقة قيادة الجبهة لإتمام الزواج . وتتذكر ليلى أنها كانت سعيدة جداً ذلك اليوم ، فقد كان باسم «أول من دربني على حمل السلاح ، وكنت أنظر إليه بإعجاب كبير تطور إلى حب ملأ قلبي ، ولذلك عندما تقدم لخطبتي ، لم أتردد لحظة واحدة» . نشرت الصحافة الغربية خبر زواج ليلى من باسم ، رغم التكتم الذي أحاط بمراسم الزواج ، فظهر الخبر في صحيفة الغارديان البريطانية ٧ نوفمبر عام ١٩٧٠ على النحو التالي : «تزوجت ليلى خالد البالغة ٢٥ عاماً ، والتي قامت بمحاولة فاشلة لخطف طائرة العال ، من رفيق لها من العراق ، وقد كان باسم مدرب ليلى على القتال» . أما مجلة التايم فقد أوردت الخبر في ١٦ نوفمبر «تزوجت ليلى خالد البالغة ٢٤ عاماً ، والتي تُعد شخصية محورية في عمليات خطف الطائرات التي جرت في سبتمبر الماضي ، من رفيق لها يدعى باسم في عمان – الأردن» . ويبدو أن الصحافة الغربية قد أوردت خبر الزواج قبل الموعد الذي حددته ليلى في مذكراتها ٢٦ نوفمبر ، وربما كان هناك خطأ في التاريخ المذكور في المذكرات .

سُمح للعروسين بإجازة لمدة أسبوع لقضاء شهر العسل وزيارة عائلة باسم في العراق ، وبعد انتهاء الأسبوع عاد باسم

إلى قاعدته في الأردن ، وعادت ليلى إلى لبنان ، وبعد ثلاثة أشهر التقيا سوياً لمدة ثلاثة أيام ، وبعد ثلاثة أشهر أخرى أتى لزيارتها في يوليو عام ١٩٧١ ، وتقول ليلى : «كانت كلّ تلك اللقاءات بترتيب مع القيادة ، لأكون موجودة في بيروت وقت زيارة باسم» .

ما إن وصل باسم إلى بيروت لرؤية زوجته ، حتى اندلعت مواجهات عنيفة بين الفدائيين وقوات الجيش الأردني ، فاستشاط باسم غضباً لأنه لم يكن موجوداً مع رجاله في ذلك الوقت الحرج ، وأخذ يقول لليلى «أنت السبب ، لولاكِ لكنت موجوداً مع رجالي في المعركة ، لا بد أن أعود على الفور» . «حسناً ، فلتذهب» قالت ليلى ، وتضيف «لقد كان مسؤولاً عن عدد كبير من المقاتلين ، ووردتنا أخبار بأنهم قُتلوا في المعركة ، فعز عليه ذلك وشعر بالذنب لأنه المسؤول عنهم ، ولم يلبث أن غادر إلى سوريا ، ومن ثم إلى شمال الأردن ليلتحق برجاله» .

لم يكن ذلك الحادث نهاية علاقتهما الزوجية بالطبع ، لكن الأمور بينهما ظلت تتدهور من سيء إلى أسوأ لأنهما لا يلتقيان بما يكفي ، ولا يعيشان تحت سقف واحد ليتآلفا ويستطيعا حل الخلافات التي تنشأ في وقتها ، وأخذت ليلى تلاحظ وجود خلافات كبيرة بينهما في الأفكار والآراء ، وبالإضافة لذلك كانت ليلى تذهب في مهمات تستغرق شهوراً تكون أحياناً خارج لبنان ، أما باسم ، فقد أرسلته الجبهة

في دورة تدريبية إلى الصين استغرقت ستة أشهر ، إذ كانت الصين في تلك الفترة أحد ممولي السلاح للمقاومة الفلسطينية[11] . وهكذا انقضى عام كامل دون أن يرى الزوجان بعضهما ، وعندما التقيا بعد عام ، التقيا كالغرباء ، ولم تعد تجمعهما أية علاقة حميمة .

تدخلت الأحداث السياسية في حياة ليلى الخاصة مرة أخرى ، ففي الثامن من يوليو عام ١٩٧٢ ، قام الموساد الإسرائيلي بتفجير سيارة الكاتب ، وعضو الجبهة الشعبية البارز ، غسان كنفاني في بيروت ، فذهب غسان ضحية التفجير بالإضافة لابنة أخته التي كانت ترافقه . وقد كانت العملية واحدة من عدة عمليات نفذتها إسرائيل لاستهداف رموز وقيادات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، والتي طالت كذلك بسام أبو شريف الناطق باسم الجبهة في عمليات خطف الطائرات إلى مطار دوسون ، إذ تلقى رسالة ملغومة في مكتبه ، وعندما فتحها انفجرت في وجهه فأصابت عينيه وأودت بعدد من أصابع يديه[12] . ولذلك بدأت الجبهة باتخاذ عدد من التدابير الأمنية لحماية قادة ورموز الجبهة المستهدفين ، وأُمرت ليلى خالد بالاختفاء لفترة من الزمن ، وكان ذلك القشة التي قصمت ظهر زواج ليلى وباسم ، إذ رفض باسم أن يرافق ليلى في مخبئها ، وأعلن اعتراضه على الإجراءات الأمنية التي فُرضت عليها ، وهكذا كان لا بد من الانفصال ، وإنهاء العلاقة

التي لم تُتح لها الفرصة الكاملة للنمو في أجواء طبيعية ، فتحدث الزوجان إلى المسؤولين في قيادة الجبهة وطلبا الإذن بالطلاق ، وتم الطلاق بالفعل ، ولم ير أحدهما الآخر بعد ذلك على الإطلاق .

تنظر ليلى الآن إلى تجربتها الأولى في الزواج ، وإلى تجارب رفاقها الآخرين التي فشلت في التوفيق بين حياة العائلة والعمل السياسي والعسكري ، وتقول : «الطلاق أمر صعب جداً في مجتمعاتنا ، وخاصة في وجود الأطفال ، لكن على المرأة ألا تخجل من فشل زواجها ، وعليها أن تواجه الأمر ، وتطلع عائلتها وأصدقاءها على موقفها ، ومع ذلك فعلينا احترام المجتمع الذي نعيش فيه . كما أن الالتزام بالعمل السياسي غالباً ما ينعكس سلباً على الحياة الخاصة للمرأة ، ولذلك فعلى المقاتلة أو القائدة السياسية أن تكون واضحة جداً مع شريكها منذ البداية ليقررا إن كانا يستطيعان إكمال طريقهما سوياً» .

قررت قيادة الجبهة الشعبية استغلال شهرة ليلى خالد في تلك الفترة ، وخاصة بعد احتجازها في لندن ، فعملت على الاتصال بالأكاديمي جورج حجّار ليساعد في كتابة وإصدار مذكرات ليلى خالد باللغة الإنجليزية ، بهدف الترويج للقضية الفلسطينية في الغرب .

كان حجّار في ذلك الوقت يعمل محاضراً في إحدى الجامعات الكندية ، فحضر إلى لبنان ، وقام بعدة تسجيلات

تروي فيها ليلى قصة حياتها ، وبدأ بكتابة الفصول تباعاً ، بينما كانت ليلى تراجع ما يكتبه مع غسان كنفاني ، وقبل أن ينتهيا من مراجعة آخر فصول الكتاب وصلتهما رسالة من حجّار يعلمها فيها أن منظمة صهيونية في الولايات المتحدة قد اتخذت إجراءات قانونية ضد الناشر الأمريكي الذي تم توقيع العقد معه ، وتنوي مقاضاة حجّار شخصياً بحجة أن الكتاب يشجع الإرهاب . وهكذا أُلغي العقد الذي تم توقيعه سابقاً عام ١٩٧٢ ، كما أجبر حجّار والجبهة الشعبية على دفع مصاريف القضية في المحكمة . وفي الوقت ذاته ، فُصل حجّار من عمله بالجامعة في كندا ، ورفضت الجامعة الأمريكية في بيروت تعيينه لديها بعد عودته إلى لبنان بسبب الكتاب ، وذلك حسب أقوال ليلى خالد . غير أن مؤسسة هودر وستاوتون Hodder and Stoughton قبلت بنشر الكتاب في بريطانيا عام ١٩٧٣ بعنوان (شعبي سيحيا My People Shall Live) ، غير أن معظم المكتبات اقتنت نسخاً قليلة فقط ، مثل مكتبة دبليو إتش سميث W.H. Smith لاعتقادها أن الكتاب «لن يلق رواجاً يذكر بين المستهلكين»[13] ، لكن الكتاب نجح ، وتُرجم إلى عدة لغات مثل الفرنسية والعربية واليابانية والأردو ، مع أنها كانت ترجمات غير قانونية ومخالفة لحقوق الملكية ، كما يوجد نسخ كاملة من الكتاب على مواقع الإنترنت .

لم يكن التهديد الإسرائيلي هو الخطر الوحيد الذي

واجهته ليلى ورفاقها في ذلك الوقت ، فقد كان الفلسطينيون جميعاً في خطر جراء تصاعد التوتر في جميع أنحاء لبنان ، وقد شكل الفلسطينيون عاملاً جديداً من عوامل التوتر في بلد تمزقه الانقسامات الطائفية والطبقية والسياسية ، بالإضافة للتدخلات الخارجية ، سواء من جيران لبنان مثل سوريا ، أو من بعض الدول الغربية .

تقول ليلى : «حاصر الجيش اللبناني المخيمات عام ١٩٧٣ ، وقد كنت يومها في منزل أحد الرفاق في بيروت الشرقية ، ولا بد أن أعود إلى المخيمات في الطرف الآخر من المدينة ، وهي مهمة ليست بالسهلة ، بل وخطرة أيضاً . كانت السيدة صاحبة المنزل حاملاً ، ولم يكن زوجها موجوداً ، فهو يعمل في أحد المطاعم ، وكانت قوات الجيش في كل مكان ، ولم يكن في المنزل غيرنا ، فقلت لها أنني سأتظاهر بأنني خادمتها وأنها تشعر بآلام المخاض ولا بد من نقلها إلى المستشفى ، فوافقت . وقد كان بحوزتي بعض الأسلحة التي لا بد أن أنقلها إلى المخيم ، فوضعت الأسلحة على غطاء السرير وطلبت من السيدة أن تجلس فوقها ، ولففت الغطاء حولها ، ثم ذهبت إلى النافذة ، وأخذت أصرخ على الجنود أن يأتونا بسيارة إسعاف لنقل السيدة لأنها على وشك الوضع ، كما طلبت من السيدة ألا تتفوه بكلمة ، وكل ما عليها أن تفعله هو الصراخ! وبالفعل ظلت المرأة تصرخ -من الخوف طبعاً- حتى جاؤونا بسيارة

وحمل رجلان السيدة الملفوفة بالغطاء ونقلونا إلى بيروت الغربية ، وهناك ذهبنا إلى المطعم الذي يعمل فيه الزوج ، وسلمته زوجته ، بينما أخذت أنا السلاح وتوجهت إلى المخيم» .

أمضت ليلى أكثر من شهر في مخيمي برج البراجنة وشاتيلا أثناء الاشتباكات مع الجيش عام ١٩٧٣ ، وهما المخيمان اللذان ارتبطا فيما بعد بمذابح ارتكبتها الكتائب المسيحية المارونية بدعم من إسرائيل بحق سكان المخيمين عام ١٩٨٢ ، وقد كانت ترى أن المخيمات أكثر أمناً بالنسبة لها من أي مكان آخر في لبنان . لكن الاشتباكات في ذلك الوقت انتهت باتفاقية بين الفلسطينيين والجيش اللبناني تنص على عدم التعرض للمخيمات في المستقبل ، والسماح للمقاتلين الفلسطينيين بالعمل داخلها بحرية .

قررت الجبهة الشعبية في اجتماع للجنتها المركزية عام ١٩٧٠ ، وقف عمليات خطف الطائرات ، وأعلنت اللجنة أن عمليات الخطف حققت هدفها في لفت أنظار العالم للقضية الفلسطينية ، ولم يعد هناك من مبرر لانتهاج هذا التكتيك ، وهكذا عادت ليلى خالد إلى صفوف المقاتلين على الأرض مع باقي رفاقها ، الأمر الذي واتى ليلى كثيراً ، إذ كانت تشعر منذ مدة أنها تعرضت للكثير من الأضواء ، وأن ذلك بدأ يخلق فجوة بينها وبين رفاقها ، فطلبت من القيادة السماح لها بالعودة

للعيش في المخيمات ؛ لتساهم في خلق وتنظيم جيل جديد يحمل أعباء القضية الفلسطينية .

بدأت ليلى كذلك في الانخراط في الحركة النسائية الفلسطينية عام ١٩٧٣ ، وقد كانت رحلتها مع العمل النسائي مثيرة للجدل كما سنرى لاحقاً ، لكن مع ذلك كان ذلك العمل هو شغلها الشاغل في السبعينات والثمانينات . اندلعت الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٧٥ ، وشارك فيها كل الأطياف السياسية في لبنان بمن في ذلك الفلسطينيون ، وقد كان هناك عدة حوادث في أماكن مختلفة من لبنان ، قادت كلها مجتمعة إلى نشوب الحرب ، وتقول ليلى : «كان هناك عدة إضرابات ، العمال ، والفلاحون ، والطلاب كانوا ينفذون إضرابات بصورة متواصلة ، وقد كان أحدها بقيادة معروف سعد البرلماني المعروف في الجنوب ، إذ نفذ الصيادون إضراباً في صيدا وقاموا بتسليم مطالبهم للحكومة ، لكن معروف سعد ما لبث أن قُتل عام ١٩٧٥» . وهناك بالطبع حادث هجوم الكتائب على الحافلة التي كانت تُقل فلسطينيين عائدين من مهرجان سياسي في مخيم تل الزعتر ، وقتل معظم ركاب الحافلة .

كانت ليلى في ذلك الوقت أحد ممثلي الجبهة الشعبية في الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية ، لكنها في الوقت نفسه تشارك في المقاومة المسلحة لحماية المخيمات من الجيش اللبناني والميليشيات اليمينية المسلحة ، وفي ٢٥ ديسمبر عام ١٩٧٦ أي

في يوم عيد الميلاد ، شهدت حياة ليلى الخاصة مأساة محزنة كان لها أكبر الأثر على مسار حياتها بعد ذلك .

تحكي ليلى قصة ذلك اليوم الحزين بتأثر واضح : «في نهاية عام ١٩٧٦ قُتلت أختي خادية التي كانت أيضاً عضواً في الجبهة . وخطيبها الرفيق عبدالوهاب الطيب عضو اللجنة المركزية العامة للجبهة في بيتي في بيروت بينما كنت خارج المنزل ، وقد كنتُ أنا المقصودة بذلك الاغتيال . كان ذلك يوم ٢٥ ديسمبر ، وقد أُعلن انتهاء الحرب بعد دخول القوات السورية إلى لبنان لفض الاشتباكات ، وجاءتنا الأوامر ذلك اليوم بعدم النوم في بيوتنا ؛ لأن الميلشيات المسيحية قد تهاجم رموزاً فلسطينية بمناسبة يوم الميلاد ، فأخبرت أختي التي كانت تقيم معي في بيتي بضرورة مغادرة البيت ، وكنت أنا في الخارج معظم الوقت بطبيعة الحال . كانت أختي وخطيبها يخططان للزواج قريباً ، لكن بدون حفل زواج تقليدي ولا ثوب زفاف بعد أن حرّمت أمي علينا ارتداء أثواب الزفاف البيضاء ما دمنا لاجئين ، وحسب اعتقادها ، فإن الزفاف الحقيقي لا بد أن يكون في حيفا ، وبالإضافة لذلك فقد كنّا في حالة حرب ، والأوضاع لا تسمح بالاحتفالات ، ومع ذلك ، فقد حاولت أمي أن تُدخل بعض البهجة على العائلة بأن دعت الجميع إلى عشاء عائلي بمناسبة زواج أختي ، وكان مقرراً أن نذهب جميعاً إلى صور حيث يقام حفل العشاء في منزل العائلة . اتفقت مع

أختي أن ألتقيها في منزلي في العاشرة صباحاً لنذهب سوياً إلى صور ، وقد كان الالتزام بدقة الموعد في ذلك الوقت في بيروت أمراً حيوياً لا يمكن التساهل فيه ، فإذا تأخر المرء عن موعده خمس دقائق مثلاً ، فهذا معناه أنه قُتل أو اُختطف من جهة ما ، ولذلك وصلت أمام منزلي في العاشرة تماماً ، ورأيت سيارة أختي أمام باب العمارة التي كنت أقطن الطابق الثامن فيها ، وبالطبع لم يكن هناك كهرباء وبالتالي لم يكن المصعد يعمل ؛ فأخذت أصعد الدرج حتى وصلت إلى باب الشقة ، ولدهشتي الشديدة وجدت الباب مفتوحاً ، مع أن الباب كان يحمل أربعة أقفال ، وهو حال كل البيوت في بيروت في تلك الفترة .

دخلت إلى غرفة الجلوس ، فوجدت عبدالوهاب خطيب أختي جالساً على المقعد الكبير ويداه متدليتان بجانبه وقد أصيب في رأسه ، إلا أنني لم أر الدم ، أما أختي فقد كانت ملقاة على الأرض فوق سجادة غرفة الجلوس الداكنة ، ولذلك لم ألحظ الدم . جلست بجانب عبدالوهاب ، وأخذت أسأله لماذا هو صامت؟ ثم نظرت إلى أختي وسألتها لماذا تنام على الأرض؟ لم يتقبل عقلي بتاتاً ما أراه ، وكنت في حالة إنكار تام ، ثم وقعت عيناي على بقع صغيرة من الدم على الحائط ، لم ألحظ كل الدم الموجود على الأرض ، لكنني لاحظت البقع الصغيرة على الحائط! وعندها فقط أخذت أصرخ ، وأخذت

مسدسي وجريت إلى خارج الشقة ، أريد أن أقتل من فعل ذلك ، وهبطت إلى الأسفل قبل أن أستفيق وأعود إلى الشقة ثانية في حالة هستيرية ، خوفاً من أن يعود القاتل ليقتلهما مرة أخرى . خرجت إحدى الجارات بعد أن سمعت صوتي فأخبرتها بما حدث ، وكان عليّ بعد ذلك أن أذهب إلى منزل أختي الأخرى لأخبرها بما حدث ، وقد كانت صدمتها كبيرة جداً ، فالجميع في العائلة كانوا يتوقعون موتي أنا عاجلاً أم آجلاً ، وهذا ما قلته لأمي منذ البداية ، فقد اخترت طريقاً صعباً وخطراً جداً وعليهم أن يكونوا مستعدين لاستقبال خبر موتي في كل وقت ، أما أن تُقتل أختي ورفيقي عبدالوهاب بدلاً مني فقد كان ذلك أمراً صعباً جداً بالنسبة لي ، وخاصة بعد أن رأيت وقع الخبر على أمي .

ناقشت ليلى الحادث مع قادتها في الجبهة الشعبية ، واقتنعت بأن العملية لا بد أن تكون من تدبير عميل مزدوج ، يعمل مع إسرائيل أو الكتائب من داخل الجبهة ، ولذلك أعلنت توقفها من العمل تماماً حتى يتم الكشف عن ذلك العميل ، وقد استغرق ذلك عاماً كاملاً .

ذهبت ليلى لزيارة إخوتها في الخليج ، هرباً من شعورها بالحزن والمسؤولية تجاه موت أختها ، ولتلتقط أنفاسها بعيداً عن جحيم الحرب الدائرة في لبنان ، لكنها لم تستطع البقاء هناك طويلاً بعيداً عن لبنان ، فعادت لتقيم مع والدتها في صور ،

لكنها لم تستطع العودة إلى عملها ، وظل شبح ذلك اليوم الرهيب يطاردها مدةً طويلة ، مع أن قادة الجبهة ظلوا يؤكدون لها أنهم مستمرون في التحقيق في عملية اغتيال عبدالوهاب وخالدية .

اجتاحت القوات الإسرائيلية الجنوب اللبناني عام ١٩٧٨ ، فغادرت ليلى مدينة صور متوجهة إلى بيروت لتعود إلى عملها في الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية ، وبالتعاون مع منظمات نسائية أخرى . كان الاتحاد يعمل على تأمين إقامة آلاف المهجرين الذين نزحوا من الجنوب باتجاه بيروت بعد القصف الإسرائيلي ، حيث كانت الأوضاع صعبة للغاية ، والعمل قائم ليل نهار من أجل ترتيب أمور المهاجرين الجدد ، وتعترف ليلى بأنها كانت ترغب في الانضمام للمقاومة المسلحة من جديد ، غير أن قيادة الجبهة لم تسمح لها بذلك ، ربما كان ذلك بسبب حالتها النفسية السيئة . ولذلك التزمت بمهمتها في العمل من خلال الاتحاد ، وأخذت علاقاتها تتوطد بالمنظمات النسائية العالمية .

تعرفت ليلى في مؤتمر للفدرالية النسائية الديموقراطية في موسكو على فالنتينا تريشكوفا عضو اللجنة السوفييتية في المؤتمر الذي انعقد عام ١٩٧٨ ، وعرفت فالنتينا أن ليلى لم تكمل دراستها الجامعية في بيروت في الستينات بسبب ظروفها المادية وحاجة عائلتها لدعمها ، فاقترحت عليها أن ترسل

أوراقها حال عودتها إلى بيروت ، إلى إحدى الجامعات السوفييتية لتتمكن من استكمال تعليمها .

تقول ليلى : «قمت بإرسال أوراقي وطلب الالتحاق بالجامعة السوفييتية ، لكن وزارة التعليم هناك رفضت طلبي بعد أن رأت أنني منقطعة عن التعليم منذ ستة عشر عاماً ، لكنهم عادوا وقبلوني بعد تدخل اللجنة النسائية التي وعدتني بمقعد في الجامعة في أثناء المؤتمر» .

كانت كتلة الاتحاد السوفييتي ، خلال فترة السبعينات ، تقدم منحاً دراسية كثيرة للطلاب من جميع دول العالم ، وفي مختلف التخصصات مثل الطب والهندسة والصيدلة ، لكن ليلى لم تتقدم لأيّ من هذه الفروع ، بل طلبت دراسة التاريخ لتتأكد من قبول طلبها ، وكما تقول : «لا أحد يدرس التاريخ خارج بلاده ، ولذلك وافقوا على طلبي» .

يُعد الفلسطينيون من أكثر شعوب الشرق الأوسط إقبالاً على التعليم ، أما وقد حُرمت ليلى من إكمال دراستها في بداية حياتها ، فقد أقبلت على الدراسة في الاتحاد السوفييتي بكل جدية ، وكان عليها في البداية أن تدرس اللغة الروسية عاماً كاملاً ١٩٧٨-١٩٧٩ قبل أن تبدأ دراسة مادة التاريخ ، وتذكر ليلى أنها كانت أحياناً الطالبة الوحيدة في فصل اللغة : «لم يكن الطلاب منتظمين في حضور الصف ، وكنت أجد نفسي أحياناً وحيدة مع معلمة اللغة الروسية ، ولذلك كنا

نتحدث كثيراً في أمور مختلفة . وكنت في البداية أجد صعوبة بالغة في العودة إلى مقاعد الدراسة بعد انقطاع ستة عشر عاماً عن التعليم ، لكنني كنت أشعر وكأنني تلميذة في المرحلة الأولى ، أكتب الوظائف التي تحددها المعلمة ، وأنجز ما يُطلب مني وأكثر ، لقد كانت تجربة مفيدة جداً بالنسبة لي» .

تعرفت ليلى في الاتحاد السوفييتي على الطالب في كلية الطب فايز رشيد ، الذي كان عضواً في الجبهة الشعبية كذلك ، وعلى وشك إتمام دراسته في الكلية ، وبوصفهما رفيقين في العمل السياسي ، وزميلين في الجامعة ذاتها ، أخذت تنمو بينهما علاقة تقارب تحولت إلى مشاعر جميلة لم تتوقعها ليلى ، وخاصة بعد تجربتها السابقة في الزواج ، وتقول : «ذهب فايز عام ١٩٧٩ إلى لبنان لحضور مؤتمر الاتحاد العام لطلبة فلسطين ، وعندما عاد إلى الاتحاد السوفييتي شعرت أن علاقتنا أصبحت أكثر قرباً وحميمية ، لكننا لم نقرر شيئاً في ذلك الوقت» .

تخرج فايز عام ١٩٧٩ وعاد إلى لبنان ، وعندما عادت ليلى إلى هناك في إجازتها بعد انتهاء السنة الدراسية ، اقترح فايز ، أن يعرضا موضوع ارتباطهما على قيادة الجبهة ، لكن ليلى أخذت تماطل وتطلب منه التريث حتى تكمل دراستها ، وكانت تعتقد أن علاقتهما لا زالت في بداياتها ، وأنهما بحاجة لمزيد من الوقت للتعرف على بعضهما أكثر ، لكن السبب الحقيقي

في تردد ليلى كان فشل زواجها الأول ورغبتها في عدم تكرار تلك التجربة المريرة .

عاد فايز إلى الأردن وحده لافتتاح العيادة التي كان يخطط لها ، وعادت ليلى إلى الاتحاد السوفييتي لإكمال دراستها ، ولسوء حظها كان عام ١٩٨١ هو العام الذي احتضن فيه الاتحاد السوفييتي دورة الألعاب الأولمبية ، مما جعل موسكو محط أنظار العالم وقبلة وسائل الإعلام ، وخاصة أن إدارة ريغان في ذلك الوقت كان تنادي بمقاطعة الألعاب الأولمبية عقاباً للاتحاد السوفييتي ، فقامت الاستخبارات السوفييتية بتشديد الرقابة الأمنية على الأجانب في البلاد ، منعاً لأي حوادث قد تحرج موسكو خلال الدورة الأولمبية ، وقامت بإصدار تصاريح إقامة خاصة للطلاب تحد من تحركاتهم خارج المدن التي يدرسون فيها ، أما بالنسبة لليلى خالد ، وبسبب تاريخها المعروف ، فقد أمرتها السلطات بالانتقال إلى جامعة روستوف التي تبعد ٢٠٠ كيلومتر عن موسكو ، بحجة أن الجامعة متخصصة في مجال الإنسانيات الذي تدرسه ليلى ، لكن ليلى اعترضت على قرار نقلها متعللة بأنها ليست مجرد طالبة ، بل تمثل الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية كذلك ، وأن تحديد تنقلاتها سيمنعها من أداء مهماتها على أكمل وجه ، غير أن السلطات السوفييتية ضربت باعتراضات ليلى عرض الحائط وأصرت على موقفها .

انصاعت ليلى في النهاية لأوامر الاتحاد العام للمرأة

الفلسطينية بتنفيذ أوامر الإدارة السوفييتية ، وانتقلت إلى روستوف لمتابعة دراستها ، لكنها لم تكن سعيدة هناك حسبما تقول : «كان الطلاب هناك صغار السن ممن لم يتجاوزوا العشرين ، وقد أنهوا للتو دراستهم الثانوية ، فكان من الصعب عليّ التعامل معهم وأنا في الخامسة والثلاثين» .

وقف القدر في وجه ليلى خالد للمرة الثانية ، ومنعها من إكمال تعليمها في الاتحاد السوفييتي ، فقد تدهورت الأوضاع في لبنان بصورة خطيرة عام ١٩٨١ بعد زيادة التوغل الإسرائيلي في لبنان ، وقامت منظمة التحرير الفلسطينية باستدعاء جميع كوادرها من كل الفصائل حيثما كانوا للمساهمة في التحضيرات الجارية لصد العدوان الإسرائيلي الزاحف إلى بيروت ، فما كان من ليلى إلا أن استجابت لأوامر التنظيم وعادت إلى لبنان مع عدد كبير من الطلاب الفلسطينيين الذين كانوا يدرسون في الاتحاد السوفييتي . ومع أن الجامعات السوفييتية منحت الطلاب المبعوثين من منظمة التحرير الحق في العودة لاحقاً لمتابعة دراستهم ، إلا أن ليلى لم تعد بعد ذلك إلى الجامعة .

تصاعدت المواجهات مع إسرائيل عام ١٩٨١ بعد تفجير الجسور التي تربط بيروت بجنوب البلاد ، وبدا واضحاً أن إسرائيل تنوي الانقضاض على المقاومة الفلسطينية والقضاء عليها ، وفي خضم تلك الأحداث ، ظهر فايز في لبنان ثانية ،

فقد علم أن ليلى قد عادت من الاتحاد السوفييتي ، وكان يتواصل معها بالرسائل من حين لآخر ، ولا يزال يرغب بالارتباط بها ، لكنه كان قلقاً أكثر من خطورة الوضع المتردي في لبنان ، وما إن رأى ليلى بعد طول انقطاع حتى طلب يدها للزواج ، لكنها عادت وتعللت بإكمال دراستها ، فأجاب بأنه يمكن أن يرافقها إلى الاتحاد السوفييتي لإكمال سنوات الاختصاص في الطب ، وعندها شعرت ليلى بالارتياح واطمأنت إلى جدية فايز وتفهمه طبيعة حياتهما المستقبلية فوافقت . لكن عندما فاتح فايز والدة ليلى في موضوع الزواج ، جاء ردها كالتالي : «لماذا تريد الزواج من ليلى؟ إنها دائماً مشغولة ولا تستقر في مكان ، ولو جاء ولدي بعروس مثلها لما قبلت! اعتبرني أماً لك وخذ بنصيحتي ، إياك والزواج من ليلى» ، وبالفعل كانت عائلة فايز كلها في الضفة الغربية ، عندما اعتقلته القوات الإسرائيلية بتهمة الانضمام إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فسُجن لمدة عامين ، ثم أُبعد خارج الضفة عام ١٩٧٠ ، ولم ير عائلته منذ ذلك الوقت .

دُهشت ليلى من كلام والدتها وقالت لها : «لم تقولين ذلك؟ أنا لست بهذا السوء؟» فأجابت الأم : «أعلم ، ولكنك لا يمكن أن تعيشي كالنساء الأخريات» ، وهنا تدخل فايز موضحاً أنه عضو في الجبهة الشعبية أيضاً ، ويتفهم ظروف العمل السياسي ، لكن الأم ردت قائلة : «لقد تزوجت سابقاً من قائد

المعسكر الذي تدربت فيه ، وانظر ماذا حدث!» . تعترف ليلى قائلة : «لم يكن يهمني كثيراً موضوع طلاقي الأول ، فقد كنت أعمل وأكافح وأحارب دون أن أنتبه إلى أن عائلتي ربما عانت من طلاقي أكثر مني ، فقد كان عليهم مواجهة المجتمع ، وتبرير أفعالي دون أن أدري ، أنا لم أكن أقيم معهم» .

لم تفلح جهود والدة ليلى في إثناء فايز عن الزواج بابنتها ، وقرر الاثنان المضي قدماً في إجراءات الزواج ، بعد موافقة قيادة الجبهة بالطبع ، غير أن ذلك لم يكن بالسهولة المرجوة ، فقد كانت ليلى تحمل جواز سفر لبنانياً ، لكن فايز لم تكن لديه أية أوراق ثبوتية بعد أن صادرت السلطات الأردنية جواز سفره ، فقررت منظمة التحرير الفلسطينية منحه وثيقة للتعريف والإقامة ، غير أن تلك الوثيقة لم تُقنع الشيخ الذي عقد القران إلا بعد أن أخبره فايز أنه قادم من الضفة الغربية ولا يملك أوراقاً غيرها ، وبعد أن وافق الشيخ من حيث المبدأ ، بدأ في مناقشة باقي تفاصيل عقد القران ، مثل المسكن والمهر والمقدم والمؤجل ، الأمر الذي أغضب ليلى ، وخاصة أن الشيخ كان يعرفها معرفة شخصية ، ويعلم أنها تقود المقاتلين ، فكيف يطلب من فايز تحديد مهر (أو ثمن لها ، كما كانت تراه ليلى) ، مؤجل ومقدم . لكن الشيخ أصّر على تحديد مهر مهما كانت قيمته لأن ذلك جزء من العقد ، وهكذا طلبت ليلى ليرة لبنانية مهراً مقدماً لها ، وليرة لبنانية أخرى مهراً مؤجلاً ، وتم عقد القران في

النهاية ، بعد استدعاء شاهدين من رفاق العريسين وحضور عائلة ليلى من صور بصورة عاجلة ، فقد كانت صور تتعرض لقصف مكثف من القوات الإسرائيلية ، وكان خروج العائلة إلى بيروت في مثل هذه الظروف مخاطرة كبيرة .

لم يكن هناك بالطبع أية احتفالات بالزفاف ، وخاصة أن والدة ليلى منعتها من الاحتفال وارتداء ثوب زفاف أبيض إكراماً لذكرى أختها التي قُتلت وهي على وشك الاحتفال بزفافها ، وتقول ليلى : «لم نعش يوماً حياتنا كالآخرين ، ولم يكن هناك وقت مخصص للراحة والفرح والاحتفالات ، هذا قدرنا» . كما أن فايز لم يستطع إخبار عائلته في الضفة الغربية بخبر زواجه ، فلم تكن هناك اتصالات هاتفية بين لبنان وفلسطين ، فقرر العروسان قضاء أسبوع في بلغاريا بعد زواجهما ، حيث يتسنى لهما الاتصال بعائلة فايز ، كانت والدة فايز سيدة مسنة ومشلولة ولم تر ابنها منذ اثني عشر عاماً ، أي منذ ترحيله من الضفة الغربية ، لكنه كان يتصل بها أحياناً عندما كان يدرس في الاتحاد السوفييتي .

تصف ليلى لحظات مؤثرة عندما اتصل فايز بوالدته بقولها : «لقد كنا نبكي نحن الثلاثة ، فايز ووالدته وأنا ، ولم يستطع فايز ووالدته تبادل أية كلمة على الهاتف ، لكنني أخذت منه السماعة محاولة التحدث إلى الأم ، وعندما أخبرتها بزواجنا ، استطاعت في النهاية أن تقول كلمتين «بدي بدر» ، أي أنها

تريديني أن أنجب صبياً وأسميه بدر» .

تعرضت ليلى في أثناء وجودها مع زوجها في بلغاريا إلى وعكة صحية نُقلت على أثرها إلى المستشفى في مايو ١٩٨٢ ، وهناك سمعت ببعض الإشاعات التي تدور حول اجتياح كبير تخطط له إسرائيل ، فأصرت على العودة إلى لبنان ، وما هي إلا أيام قليلة بعد وصولها مع زوجها حتى بدأ القصف المكثف على بيروت ، وفي هذا الوقت العصيب بالذات ، علمت ليلى بأنها حامل ، لكن الأطباء اللبنانيين حذروها من أنها قد تفقد الطفل في أية لحظة إذا تعرضت للإجهاد ، ونصحوها بأن تبقى دائماً مستلقية مدة ثلاثة أشهر لتثبيت الحمل ، الأمر الذي أضحك ليلى بمرارة لصعوبة تنفيذه ، وفي هذا الوقت تحديداً ، فقد كانت والدتها مريضة جداً بعد أن تتابعت عليها نوبات الربو بسب التوتر والخوف الذي صاحب الاجتياح الإسرائيلي ، أما فايز ، فقد كان يقضي جل يومه وبعضاً من الليل في المستشفى ، بعد أن تم استدعاء جميع الأطباء إلى المستشفيات بصورة طارئة استعداداً لما سيحدث في بيروت .

أصر فايز على أن تنتقل زوجته ووالدتها إلى بيت أخت ليلى الذي استأجرته في الجبل ، حيث يمكن لليلى الابتعاد قليلاً عن التوتر ، كما تستفيد الأم من هواء الجبل النقي للسيطرة على نوبات الربو المتكررة .

اصطحبت ليلى والدتها إلى بيت الجبل ، وفي نيتها العودة

إلى بيروت خلال أيام ، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، فقد انسحبت القوات السورية من الجبل بعد غارات جوية إسرائيلية مكثفة ، ووصلت الدبابات الإسرائيلية إلى القرية التي تقيم بها ليلى مع والدتها وأختها في الثاني عشر من يونيو .

فزعت والدة ليلى وأختها من أن يتعرف الجنود الإسرائيليون على ليلى بسبب شهرتها القديمة ، ولكنها حاولت طمأنتهما بقولها : «هؤلاء جنود لا يعرفون شيئاً ، وليسوا من رجال الاستخبارات ، كما أن هيئتي قد تغيرت كثيراً في السنوات الماضية ، ولا أظنهم سيتعرفون عليّ» . لكن إقناع الكبار كان أسهل كثيراً من محاولة السيطرة على الأطفال في المنزل ، فقد كان ابن اختها الصغير يكرر بأنه سيقتل الإسرائيليين لو حاولوا القبض على خالته! ، لكن ليلى أمرت الأطفال بألا يتفوهوا بكلمة حتى لو دخل الجنود إلى المنزل ، ظل فايز في بيروت قلقاً على زوجته ، ولم تكن هناك وسيلة اتصال بينهما ، لكن الدكتور جورج حبش ظل يطمئنه قائلاً «نحن نعرف ليلى ، فلا تقلق عليها ، يمكنها أن تتدبر الأمر» ، وربما كان ذلك صحيحاً ، فقد وقف الحظ إلى جانبها مرات عديدة ، لكن هذه المرة كان الأمر مختلفاً ، فقد اكتشفت أختها أن صاحب البيت الذي استأجرته ، كان من الكتائب! الأمر الذي أقلق ليلى كثيراً ومنعها من النوم لأيام ، كما وصلتها

بعض الأخبار من سكان القرية بأنهم يعرفون أن ليلى تسكن في هذا البيت ، وربما كان من الأفضل أن تبحث عن مكان آخر للحفاظ على سلامة الجميع في القرية .

مرّت ليلى بأوقات عصيبة جداً ، وهي حبيسة المنزل تنظر من النافذة إلى أطفال القرية وهم يقتربون من الجنود ويسألونهم عن الدبابات ، فكان الجنود يقولون : «عودوا إلى منازلكم ، فنحن هنا لقصف بيروت فقط!» .

تتذكر ليلى «كانت أختي على وشك الإصابة بانهيار عصبي ، أما أنا فقد بدأت أتقبل فكرة اعتقالي في أية لحظة ، لكنني كنت قد جهزت مسدسي وحشوته بالرصاص ، وكنت أفضل أن أقتل نفسي على أن يأخذوني حية ، وفي النهاية حضرت لزيارتي صديقة قديمة من صور كانت تقيم مع عائلتها في أحد بيوت القرية في الجبل ، وعرضت عليّ الذهاب للإقامة في منزلها بعد أن انتهى الإسرائيليون من تفتيشه ، قبل أن يأتي دور المنزل الذي أقطنه ، فوافقت وبقيت عندها اثني عشر يوماً حتى قررت العودة إلى بيروت ، استعرت بطاقة هوية صديقتي فاطمة ، فقد كانت صورتها في الهوية تشبهني تماماً ، وتوجهنا إلى بيروت بالسيارة ، وفي الطريق أوقفتنا الحواجز الإسرائيلية بالطبع ، لكنهم لم ينتبهوا للركاب ، وخاصة عندما أخبرتهم أنني أنقل أمي المريضة إلى المستشفى في بيروت ، فكانوا يحذروننا أن بيروت تحت القصف! . وأخيراً ، وصلنا إلى

بيروت لنجد بيتنا وقد تحول إلى قاعدة للمقاتلين ، بينما كان فايز في المستشفى يساعد في معالجة مئات الجرحى الذين كانوا يتوافدون على المستشفى جراء القصف الإسرائيلي المتواصل» .

مَنعت قيادة الجبهة ليلى من الانضمام إلى المقاتلين بسبب حملها ، وسمح لها فقط بالمشاركة مع الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية في العناية بالجرحى ، ومساعدة المهجرين من بيوتهم في ظل الفوضى العارمة التي كانت تعم بيروت . تقول ليلى : «كنت أنتقل من مكان إلى آخر طوال اليوم بين قواعد المقاتلين لمساعدة الجرحى ، والملاجئ التي تضم المهجرين ، وكذلك المستشفى الذي يعمل فيه فايز ، فقد كان عليّ أن أتلقى حقناً خاصة لتثبيت الجنين ، وإيقاف النزيف الذي كان يصيبني بين الحين والآخر . وفي الأول من أغسطس انتشرت شائعات تقول إن الطيران الإسرائيلي سيكثف غاراته لاستهداف قادة منظمة التحرير بالتحديد ومنهم أبو عمار ، فكنت كلما لجأت إلى أحد الملاجئ اتقاءً للقصف ، كان الناس يفزعون من وجودي خوفاً من أن أكون سبباً لقصف الملجأ» .

ظل المقاتلون الفلسطينيون يدافعون عن بيروت مع مقاتلي الحركة الوطنية اللبنانية مدة ثلاثة أشهر ، وفي النهاية وافقت منظمة التحرير على خروج مقاتليها بعد مفاوضات دامت شهراً كاملاً أسفرت عن اتفاقية تنص على أن تخرج القيادة

الفلسطينيـة والمقـاتلون من لبنان إلى سـوريا براً أو بحـراً ، أو يتـوجـهون إلى تونس في سـفن تحـملهم عـبر البـحر الأبيض المتـوسط ، وحضـرت قـوات متـعـددة الجنسيات من الولايات المتحـدة وإيطاليـا وفـرنسـا إلى بيـروت لتـأمين خـروج المقـاتلين ، وضمان سـلامة المدنيين الذين سيظلون في المخيمات ، لكن مع الأسف نفذت القـوات الأممية الجزء الأول من مهمتهـا المتعلق بتـأمين خروج المقاتلين ، لكنهـا فشلت في تنفيـذ الجزء الثـاني الخـاص بحـفظ سـلامة الفلسطينيين المتبـقين في المخيـمات ، الذين تعرضوا لمذابح بشعة من قبل قوات الكتائب اليمينية ، ومن خلفها القوات الإسرائيلية(14) .

غادرت ليلى لبنان مع زوجـها عن طريق البـحر إلى سوريا ، وتوجهـا أولاً إلى أحد المخيمات ليتم توزيعـهما بعد ذلك ، لكن رفاقـهما تمكنوا من جمع بعض المال لهـما ليـذهبا إلى فندق في المدينة مـراعـاة لحـالة ليلى ، وعـاد فـايز للعـمل في إحـدى المستشفيات ، وفي السابع عشر من سبتمبر علمت ليلى بمذبحة صـبرا وشـاتيـلا التي نفـذتهـا ميليشـات الكتـائب بالتـعـاون مع القـوات الإسـرائيلية ، عندمـا كـانت تشـاهد نشـرة الأخـبـار في التلفاز ، وقد أخذت تصرخ وتصـيح حتى فقدت الوعي وتم نقلها إلى المستشفى من قبل عمال الفندق الذي تقيم فيه .

حـاول الـزوجـان إعادة ترتيب حيـاتهـمـا الخـاصة من جـديد ، وسط الحزن والفوضى السائدة ، وقد كان فايز قد قدّم طلباً لإكمال

اختصاصه في تشيكوسلوفاكيا في أثناء وجوده في بيروت ، وبعثت له الجامعة بأوراق القبول في حينها ، لكنه ترك كل شيء في بيروت عند خروجه منها ، فحاول أن يتقدم ثانية لسفارة تشيكوسلوفاكيا في دمشق لتجديد طلبه ، لكن السفارة رفضت ذلك بحجة عدم وجود أي قبول مسبق من الجامعة ، لكنها منحت الزوجين تأشيرة للذهاب إلى تشيكوسلوفاكيا على أمل التواصل المباشر مع الجامعة هناك ، وقد ذهب الزوجان بالفعل ، لكنهما عادا بخفي حنين بعد فشل مفاوضاتهما مع الجامعة .

ظل الزوجان يقيمان في الفندق مدة طويلة ، إذ لم يكن العثور على منزل مناسب في دمشق بالأمر الهين . وفي الخامس من ديسمبر توجهت ليلى إلى المستشفى الذي يعمل فيه فايز وأطباء آخرون من الهلال الأحمر ، في معالجة ضحايا الحرب على بيروت ، وذلك لإجراء فحص روتيني لمتابعة أوضاع حملها ، وقد وافقت إحدى الطبيبات على معاينتها بسرعة إكراماً لفايز وسط مئات الجرحى والحالات الحرجة التي كانت تعالجها . وتذكر ليلى ذلك اليوم بوضوح «كانت الريح تعصف بقوة في الخارج ، وكنت أجلس في مقهى المستشفى أشرب قهوتي وأدخن عندما جاء فايز برفقة زميلته ، فدهشت الطبيبة عندما رأتني أدخن وقالت لفايز «لماذا تسمح لها بالتدخين؟ إنها حامل!» فرد فايز «لقد جئتها بعشرات النشرات عن مضار التدخين عندما كنّا في بيروت ، لكن مع تواصل

القصف ، ونزولنا إلى الملاجئ باستمرار ، صرت أنا من يحضر لها السجائر! كنّا نعتقد أننا لن نخرج من بيروت أحياء» .

ألقت الطبيبة المعاينة بالخبر المفاجأة في وجه ليلى «أنت على وشك الولادة» ، فصعقت ليلى وزوجها بالخبر ، فقد كانت ما تزال في شهرها الثامن ، ولم تتوقع أن تلد طفلها قبل شهر يناير على الأقل ، لكن الطبيبة أصرت على رأيها ، وأمرت ليلى أن تستعد للولادة ، وطلبت من فايز أن يذهب لإحضار ملابس الطفل الجديد ، وبالفعل ، لم تمض دقائق حتى كانت ليلى تشعر بانقباضات الولادة ، وتستعد للوضع في غرفة الولادة ، وتصف ليلى ذلك اليوم «اتبعت تعليمات الطبيبة بدقة ، ولم يصدر عني أي صوت ، كما ساعدتني عضلاتي القوية على تجاوز الألم ، لكنني كنت أخشى أن ألد طفلاً ميتاً ، لأنه لم يكمل المدة المفروضة لنموه» .

وُلد الصبي سليماً معافى ، وسمته ليلى «بدر» تنفيذاً لرغبة جدته في الضفة الغربية ، تلك الجدة التي لم يُكتب له أن يراها مطلقاً ، وفي تلك اللحظة فقط سمحت ليلى لنفسها أن تبكي بعد الولادة ، فقد كانت تتمنى أن تكون لحظة ولادة طفلها الأول لحظة فرح حقيقي تتشاركها مع زوجها وعائلتها وأصدقائها ، لكن الأمور سارت على غير ما تشتهي ، فقد كان الزوج غائباً يبحث عن ثياب للمولود ، وعائلتها هي في لبنان ، بينما عائلة زوجها في الضفة الغربية ، لا يعلم أحد منهم عن

الآخر شيئاً ، فأخذت تبكي بحرقة ، وتم لفّ المولود الجديد بأحد أغطية المستشفى في انتظار الثياب التي سيحضرها الأب .

لقد خاضت ليلى حروباً في المخيمات ، وتدربت مع المقاتلين في المعسكرات ، وخطفت الطائرات وسُجنت ، ومع ذلك وجدت نفسها الآن عاجزة عن التعامل مع مولودها الجديد ، فقد كان الطفل يبكي طوال الوقت ، وفشلت في محاولة إرضاعه في الأيام الثلاثة الأولى ، وحاولت بعض الرفيقات المتزوجات مساعدتها ، فاستضافتها إحداهن في بيتها فترة من الزمن ، وتدريجياً بدأت ليلى تتعلم العناية بطفلها والتعامل معه ، وفي النهاية استطاع فايز إيجاد منزل للعائلة في مخيم اليرموك ، بعد أن أصدرت القيادة العامة للجبهة أوامرها للكوادر بتوفير منازل لأعضائها القادمين من بيروت في المخيمات المكتظة أصلاً بسكانها .

تغيرت حياة ليلى بعد ولادة طفلها الأول ، فوجود طفل في العائلة يعني صعوبة عودتها إلى العمل السياسي والاجتماعي الذي ظلت تمارسه لسنوات طويلة ، وكان من ضمن أولوياتها ، والجبهة الشعبية تعيد بناء هياكلها من جديد في دمشق ، المطالبة بإنشاء حضانات ورياض أطفال داخل المخيمات تستوعب أطفال الرفيقات العاملات في الجبهة الشعبية بالإضافة لأطفال المخيمات عامة .

تقول ليلى : «عندما انتسبنا إلى الجبهة الشعبية ، كنا

صغيرات وعازبات ، لا نحمل إلا مسؤولية عملنا وكفاحنا ، لكن الشابات كبرن وتزوجن وأنجبن الأطفال ، وأصبح من واجب الجبهة أن تدعم هؤلاء النساء ، وتقدم لهن خدمات وأماكن لائقة يتركن فيها أطفالهن وهن مطمئنات ، حتى يتمكنّ من مواصلة عملهن ، وقد كانت دور الحضانة هي أول ما فكرنا فيه ، وطلبنا ذلك من القيادة فوافقت ، ثم رتبنا نحن كل شيء ، من معدات وتجهيزات ، وقمنا بتدريب بعض الفتيات على رعاية الأطفال للعمل في دور الحضانة ، لنتمكن في النهاية من العودة إلى أداء عملنا النضالي ، دون أن يؤثر ذلك سلباً على أطفالنا» .

إن التوفيق بين عمل المرأة النضالي والسياسي أمر في غاية الصعوبة ، كما تؤكد ليلى خالد : «أرى من خلال تجربتي الخاصة ، وتجارب بعض الرفيقات أيضاً أن انضمام المرأة إلى الأحزاب السياسية ، والتزامها بالعمل النضالي ، أمر في غاية التعقيد وخاصة بالنسبة للنساء المتزوجات والأمهات ، وذلك بسبب طبيعة العمل الخطرة جداً ، بالإضافة للساعات الطويلة التي تقضيها المرأة بعيداً عن بيتها وعائلتها ، وربما تضطر المناضلة للاختفاء أحياناً لتحاشي الاعتقال ، وغيرها من الأمور التي تميز حياة المناضلات» . وتضيف ليلى بأن عدداً لا يستهان به من النساء انسحبن من الجبهة الشعبية «لصعوبة التوفيق بين عملهن السياسي والنضالي ، وحياتهن العائلية ، كما انتهت

عدة زيجات في أوساط الجبهة بالطلاق» . وتؤكد جولي بيتيت ما تشير إليه ليلى من انسحاب النساء من العمل الحزبي ، في دراستها التي تُظهر انسحاب عدد كبير من الشابات من صفوف حركة المقاومة في لبنان ، في فترة السبعينات وأوائل الثمانينات ، وخاصة ممن وصلن إلى سن الزواج . فالنشاط السياسي يقتصر على الفتيات في أوائل سن الشباب ، ولكن ما إن تصل الفتيات إلى سن الزواج ، حتى يصبح مطلوباً منهن أن يتحملن فقط المسؤولية العائلية ، وشؤون المنزل ، وتربية الأطفال ، أما المناضلات اللواتي يخترن الاستمرار في العمل السياسي إلى جانب حياتهن العائلية فيواجهن الكثير من الصعوبات والاتهامات «بالبرجوازية» وسوء التصرف ، إذا حاولن إثارة بعض الأمور الخاصة بالنساء وتحسين أوضاعهن الحياتية»[15] .

تأقلمت ليلى مع حياتها الجديدة في فترة الثمانينات ، وخاصة أنها كانت ترعى طفليها (بدر وبشار ، الذي أنجبته لاحقاً) وحدها ، «فقد كان فايز في الاتحاد السوفييتي يتابع اختصاصه في الطب في ذلك الوقت» كما تقول . وكانت تزوره مع أطفالها أحياناً ، لكنها واصلت دورها السياسي كعضو في اللجنة المركزية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، بعد أن تم انتخابها لذلك المنصب عام ١٩٨١ ، وظلت عضواً قيادياً كذلك في الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية حتى عام ١٩٨٥ ، وفي عام

١٩٨٧ انفجرت الانتفاضة في الأراضي المحتلة ، مما أضاف عبئاً جديداً على كاهلها ، فقد كان العديد من النشاطات والفعاليات لدعم الانتفاضة ، ثم جاء غزو العراق عام ١٩٩١ بمزيد من العمل في شتى المجالات ، فاضطرت ليلى لدعوة ابنة أختها للإقامة معها لتساعدها في العناية بالطفلين ، في أثناء غيابها لحضور اجتماعات المجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر وفي أماكن أخرى» .

تعترف ليلى بأنها كانت محظوظة بزواجها من فايز ، وتؤكد أنها تعتمد كثيراً على تفهم زوجها لطبيعة عملها ، غير أن ذلك التفاهم لم يكن وليد اللحظة ، فقد استغرق ذلك مدة طويلة ، وتضيف ليلى : «كان فايز في البداية يقلق كثيراً من غيابي الدائم وسفري المتكرر ، لكنه اعتاد ذلك مع الوقت ، وينسحب ذلك على كثير من النساء المناضلات ، حتى العازبات منهن يواجهن مشاكل مع عائلاتهن ، وخاصة من الرجال ، فإن لم يكن الأب ، فهناك الأخ ، وإن لم يكن الأخ فهناك العم وهكذا» . لعبت ليلى ورفيقاتها دوراً محورياً في تغيير مواقف الحزب وسياساته تجاه النساء العاملات فيه ، وساهمن في تطبيق النظريات التقدمية التي ينادي بها الحزب على أرض الواقع ، فكان لا بد من مراجعة جذرية لدور النساء في العائلة وعلاقة الرجال بالنساء داخل العائلة وفي العمل الحزبي ، فطالبت النساء أن يضطلع الرجال بدور أكبر في رعاية شؤون

أبنائهم ، بعد أن ظل ذلك الدور مقتصراً على النساء لفترة طويلة . كما طالبن بإعفاء النساء من البقاء في الاجتماعات التي قد تمتد إلى ما بعد منتصف الليل ، وتؤثر على تواجدهن بين أطفالهن ، وتؤكد ليلى أن قيادة الجبهة كانت متفهمة جداً لتلك المطالب وعلى أعلى المستويات ، بمن في ذلك الدكتور جورج حبش وأبو علي مصطفى ، فقد كان على الجبهة أن تتجاوب مع متغيرات الحياة ، واختلاف حياة أعضائها مع مرور الزمن ، وخاصة النساء .

الفصل الخامس
نساء ثوريات

لا تزال صورة ليلى خالد كأيقونة «نسائية» للثورة الفلسطينية غامضة بعض الشيء ، وكما تقول إحدى الناشطات الفلسطينيات الشابات : «لقد تربيت على تقدير الرموز النسائية الثورية ، لكنني لم أتطلع يوماً لأكون واحدة منهن ، فقد كان مطلوباً مني أن أتزوج وأنجب الأطفال وأحسن تربيتهم وأساند زوجي ، وقد تعلمت أن هؤلاء النساء مكوَّن مهم في المقاومة الفلسطينية ، لكنني لا يمكن أن أنضم إليهن ، لأن ذلك يعني أنني لست امرأة عربية صالحة»[1] .

تؤكد كثير من ناشطات الحركات النسوية الغربية والفلسطينية وجود فجوة كبيرة بين الاحترام والتقدير الذي تلقاه المناضلات البارزات مثل ليلى خالد ، والقمع المركب الذي تواجهه النساء في مجتمع أبوي صارم في المخيمات الفلسطينية أو داخل الأراضي المحتلة ، حيث تواجه الناشطات السياسيات العاديات عدة ضغوط ، بسبب نشاطاتهن السياسية وانتماءاتهن الحزبية ؛ لإجبارهن على العودة إلى أداء الأدوار

التقليدية للنساء داخل العائلة والمجتمع[2] . كما تظهر تلك الفجوة بصورة واضحة في الخطاب القومي الفلسطيني ، فنجد في معظم الوثائق والأدبيات القومية خطاباً جذرياً يُشّبه فلسطين بالأنثى الأم التي اغتصبها الاحتلال الذكوري الصهيوني ، ولا بد من الدفاع عن شرفها وحمايتها من العدوان . ومع أن هذا النوع من الخطاب يُفترض أنه يُعلي من شأن المرأة التي يتسابق الجميع لحمايتها ، إلا أنه في الواقع يقدمها بصورة سلبية تقليدية[3] ، لم تنجح في تغييرها محاولات النخبة المثقفة ، التي كانت تدعو لتحديث المجتمع الفلسطيني في السبعينات والثمانينات ، إلا أن تلك الأفكار لم تترجم عملياً على أرض الواقع[4] . انخرطت النساء في الحركة القومية الفلسطينية منذ بدايات القرن العشرين تقريباً[5] . فقد شاركن في المظاهرات التي خرجت ضد وعد بلفور عام ١٩١٧ ، بالإضافة لاعتراضهن على توافد المهاجرين برعاية الحركة الصهيونية التي اشترت عدداً من الأراضي من أصحابها العثمانيين الغائبين[6] . كما شاركت النساء في ثورة عام ١٩٣٦ بنقل السلاح والطعام والماء للمقاتلين ، ونظّمن حملات دعم للعائلات التي فقدت أبناءها في القتال أو في سجون الانتداب البريطاني آنذاك . وتذكر إحدى الناشطات في مقابلة أجرتها معها الكاتبة الفلسطينية ثريا أنطونيوس في السبعينات ، أنها «تدرّبت على استعمال البندقية ، لكنها لم تشارك في القتال ،

وكان دور النساء يقتصر على حمل الطعام والشراب للمقاتلين من الرجال في أماكن تمرينهم ، فقد كانت النساء تتمتع بحرية أكبر في التنقل بعيداً عن أعين السلطات البريطانية» . كما وصفت السيدة ذاتها بعض التدريبات التي شاركت فيها خلال حرب عام ١٩٤٧-١٩٤٨[7] . وقد شاركت بعض النساء في عمليات الإغاثة في النكبة عام ١٩٤٨ ، كما شارك عدد قليل جداً في حمل السلاح ، كما حدث مع حلوة زيدان ، التي التقطت بندقية ابنها وحاربت بها بعد أن قُتل زوجها وابنها أمام عينها عام ١٩٤٨[8] .

تراجع النشاط النسائي العام بعد نكبة عام ١٩٤٨ ، فقد انشغلت النساء بتجاوز الآثار المدمرة التي تركتها النكبة على حياة جميع الفلسطينيين ، لكن النساء عاودن نشاطهن في فترة الخمسنيات والستينات ، من خلال جمعيات نسائية خيرية ترأسها وتديرها سيدات من الطبقة الوسطى ، ثم تحولت الجمعيات إلى منظمات متحالفة مع الفصائل السياسية المختلفة في أواخر الستينيات[9] . لكن الحركة النسائية بدأت تتطور في أواخر السبعينات ، مع أنها ظلت مقصورة تقريباً على نساء الطبقة الوسطى[10] ، ومرتبطة بالحركة القومية ، أما النشاطات فقد كانت في معظمها تدور حول فعاليات خيرية لدعم النساء والأطفال ، دون التطرق فعلياً إلى المواضيع التي تمس حياة المرأة الخاصة بعيداً عن متعلقاتها العائلية والاجتماعية[11] .

تقول عالمة الأنثروبولوجيا جولي بيتيت إن المرأة الفلسطينية في لبنان شاركت في كل قطاعات المقاومة ، وحصلت بعض النساء على مواقع قيادية ، لكن أغلبيتهن كن يمارسن العمل الاجتماعي ، ومع ذلك فقد أصبحت النساء جزءاً من مختلف القطاعات بعد أن كانت أدوارهن تقتصر على الزواج والأمومة ، فكان هناك الطالبات والعاملات والناشطات السياسيات والمقاتلات وأيضاً الشهيدات في حركة المقاومة ، وقد أدى انخراط المرأة في جميع تلك الأدوار إلى رفع سقف الطموحات لدى النساء ، رافقه شعور جديد بالهوية النسوية[12] . وقد شاركت النساء في عمليات فدائية في الأراضي المحتلة وعلى المستوى الدولي ، وكانت تلك الإنجازات تلفت أحياناً نظر القيادة السياسية ، كما تقول ثريا أنطونيوس : «عندما بدأت حركة المقاومة الفلسطينية في الأردن ، وفي مخيمات لبنان عام ١٩٦٩ ، أخذت القيادة الفلسطينية تعي تدريجياً أن النساء يُشكلن نصف القوة البشرية المطلوبة لمواصلة الكفاح ، وهو عدد لا يمكن إهماله في أمة صغيرة مثل الأمة الفلسطينية ، وهكذا فُتح المجال أمام النساء للمشاركة في كل المعارك صغيرها وكبيرها . ومن معارك مخيم الوحدات عام ١٩٧٠ في عمان إلى الاجتياح الإسرائيلي لجنوب لبنان»[13] .

أما بسام أبو شريف ، الناطق السابق باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فيصف دور النساء في الانتفاضة الأولى بقوله

«لقد حاولت قوى الأمن الإسرائيلية وقف الانتفاضة باعتقال أكبر عدد ممكن من الشباب وتجميعهم في معسكرات خاصة في صحراء النقب ، لكن اللجان النسائية أخذت بزمام الأمور وقادت الانتفاضة بنجاح لأكثر من ثلاثة أشهر»[14] .

يبقى السؤال الذي تتناوله الدراسات النسائية بين الحين والآخر هو «إلى أي حد يمكن اعتبار ممارسة المرأة للكفاح المسلح ، خيانة لذاتها كامرة أولاً ، وخيانة لأخواتها من النساء ثانياً؟» وتجيب عن هذا السؤال وينونا غيلز في كتابها «نساء تحت النار» قائلة : «الحرب سلاح ذو حدين بالنسبة للمرأة ، فمن جهة تعاني المرأة بشدة من العنف الواقع عليها في الحرب ، ومن جهة أخرى ترى المرأة في الحرب فرصة للانعتاق من قيود المجتمع المفروضة عليها ، لكن هذه الفرصة تبدو مؤقتة يزول مفعولها بانتهاء الحرب ، وتختلف مشاركة المرأة باختلاف الحرب الدائرة ، كما تتأثر حياة النساء بعدة طرق تبعاً لنتيجة الحرب التي يشاركن فيها»[15] .

كما تجيب نيلوفر دي ميل عن السؤال ذاته في جزء آخر من الكتاب بتحليلها لقضية تواجد النساء في الجيوش ، فتقول إن امرأة من ثوار التاميل قد تشعر بالقوة من خلال اشتراكها في حمل السلاح ، ولكنها في الحقيقة ، ومن خلال انضمامها لقوة عسكرية ، تخضع لقمع القوة العسكرية وتفقد حريتها من خلال قمع هويتها الجندرية كامرأة . ومع أن المرأة المقاتلة تتمتع

بدرجة من الحرية بعيداً عن الدور التقليدي للمرأة ، إلا أن هذه الحرية تتقلص أمام النظام الأبوي ، التسلطي المفروض في الجيش»[16] . كما تتحدث بعض الكاتبات النسويات عن النساء اللواتي يتبنين قضايا التحرر الوطني كما لو كنّ مخدوعات بالخطاب الأبوي ، وأنهن ضحايا القيود الحديدية الأبوية التي تمنعهن من النظر إلى خيارات أخرى في الحياة[17] . وبالنسبة للناشطات والباحثات الفلسطينيات اللواتي مارسن العمل السياسي والحزبي عن قرب ، فهن أيضاً يختلفن في وجهات النظر حول هذا الموضوع[18] .

وإذا تحدثنا عن ليلى خالد تحديداً بوصفها أيقونة للتحرر النسائي ، فإن غموض موقفها يبدأ منذ دخولها ميدان العمل النسائي الفلسطيني ، فهي لم تكن ترغب في ولوج هذا الميدان منذ البداية .

عادت ليلى للعمل في الجبهة الشعبية بعد عودتها من السجن في لندن في بداية السبعينات ، وقد كانت تحمل السلاح في المخيمات الفلسطينية في لبنان ، بالإضافة لكتابة مذكراتها بالتعاون مع جورج حجار ، لكن الدكتور جورج حبش طلب من ليلى أن تُمثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية ، وهو إحدى المنظمات الجماهيرية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ويعتبر المظلة التي تغطي كلّ الفلسطينيات ، سواء المنتسبات منهن إلى الفصائل

الفلسطينية أو غير المنتسبات . رفضت ليلى في البداية الانضمام للاتحاد ، وقالت للقيادة : «أنا مقاتلة وأريد أن أحمل السلاح» . لكن جواب القيادة كان «لكنك امرأة أيضاً ، ولا بد أن تحاربي من أجل حقوق المرأة» . تتذكر ليلى أنها في تلك الفترة لم تكن ترغب مطلقاً في ممارسة ذلك النوع من العمل ، وتقول : «مثلي مثل بعض الرفيقات الأخريات ، كنّا نريد أن نثبت أننا مثل الرجال ولسنا أقّل منهم ، فكنا نرتدي اللباس العسكري مثلهم . ونتدرب على حمل السلاح ، ونقص شعورنا لنبدو مثلهم . لم نفكر حينها بالنساء الأخريات وحقوقهن ، لم يكن ذلك من شأننا» .

قد يبدو ما تقوله ليلى مفهوماً ضمن النظريات النسوية التي تناقش موقع المرأة في المجتمع ، ويكون ذلك بطريقة من الطرق الثلاث الآتية ، فإما العمل على دراسة التحديات التي تواجه المرأة ومن ثمّ تذليل الصعوبات أمامها ، أو دمج المرأة في الأدوار المقتصرة على الرجل ، لإثبات مساواتها بالرجل ونجاحها في لعب تلك الأدوار ، أو خلق مجتمع مثالي ينتفي فيه القمع بكل أشكاله ، بما في ذلك القمع والتمييز على أساس الجنس .

كانت ليلى في ذلك الوقت تتبنى وجهة النظر الثانية : «كان المجتمع ينظر إلى النساء كمواطنات من الدرجة الثانية ، وكنت ورفيقاتي نريد أن نثبت للمجتمع باننا لسنا أقل من الرجال بانضمامنا للكفاح المسلح . ومع ذلك اضطررت للموافقة

على الانضمام للاتحاد النسائي بعد أن استدعاني الدكتور جورج حبش بنفسه ، وطلب مني أن أمثل صوت النساء بصفتي امرأة قبل أن أكون مقاتلة» .

لا تزال ليلى تصر حتى اليوم على أن الكفاح المسلح الذي تبنته بعض النساء في الستينات والسبعينات كان له أثر إيجابي على جميع النساء الفلسطينيات ، وتعتقد أنها وزميلاتها حققن الكثير للمرأة الفلسطينية ، لأنهن أقنعن الرجال أن النساء يمكن أن يقمن بأي عمل يقوم به الرجال ، لأن حمل السلاح هو تعبير عن موقف سياسي بالأساس . لكن ليلى تعتقد أيضاً أن المرأة الفلسطينية تخضع لقمع مُركب ، فهي مثل الرجل تخضع لقمع الاحتلال داخل الأراضي المحتلة ، وقمع اللجوء في مخيمات الشتات ، لكنها أيضاً تنفرد بخضوعها لقمع المجتمع وهو أمر صعب للغاية ، ولذلك فقد حملت بعض النساء السلاح للتخلص من قمع الاحتلال وقمع المجتمع في الوقت ذاته . كان المؤتمر الثاني للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية عام ١٩٧٠ في لبنان ، أول التحديات التي واجهتها ليلى بعد انضمامها للاتحاد ممثلة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، فقد كانت الخلافات بين الفصائل الفلسطينية من اليمين واليسار على أشدّها ، وتلقي بظلالها على السياسة الداخلية للاتحاد . أما المؤتمر الأول للاتحاد فقد عُقد في القدس عام ١٩٦٧ ، لكن السلطات الإسرائيلية اعتقلت عدداً من

المشاركين في المؤتمر من بينهم رئيسة الاتحاد عصام عبدالهادي ، ورحّلت عدداً آخر إلى الأردن ولبنان . امتدت أعمال المؤتمر الثاني للاتحاد لسبعة أيام عوضاً عن ثلاثة ، وكان ياسر عرفات شخصياً يتابع سير أعمال المؤتمر ، فقد كان على رأس جدول الأعمال ، مقترح فتح بالحل المؤقت للقضية الفلسطينية ، الذي سيحول سياسة منظمة التحرير من الكفاح المسلح إلى العمل السياسي . وتصف أمل قعوار الأجواء داخل المؤتمر في كتابها على النحو التالي : كانت السيدة أبو خضرا ممثلة فتح تقود المجموعة المؤيدة للقرار ، مبررة موقفها على أساس أن التوازنات الدولية قد تغيرت لصالح إسرائيل بعد حربها مع مصر عام ١٩٧٣ ، أما ليلى خالد من الجبهة الشعبية فقد ترأست جناح المعارضة ، على أساس أن هذا التوجه الجديد نحو حل سياسي يتعارض تماماً مع ميثاق منظمة التحرير ، وأن الكفاح المسلح هو الورقة الوحيدة التي يلعبها الفلسطينيون ضد إسرائيل . وفي النهاية قرر المؤتمر تمرير حلّ عرفات المؤقت ، لكن القرار تضمن أيضاً تأكيد قرارات المجلس الوطني الفلسطيني جميعها ، بما فيها الميثاق الوطني الفلسطيني الصادر عام ١٩٦٨ ، وتأكيد حق الشعب الفلسطيني في الكفاح المسلح ، وقد عارضت كلّ من ليلى خالد وعصام عبدالهادي قرار المؤتمر رغم تمريره بتصويت الأغلبية لصالحه . لقد كان قرار المؤتمر محاولة لحفظ ماء وجه عرفات الذي يقف خلف القرار ، ومع ذلك لم يكن عرفات

سعيداً تماماً بذلك ، بعد أن شهد انقساماً داخل فصيله فتح بين مؤيد للقرار ومعارض له[19] .

أما ليلى خالد فتؤكد أنه «كان يريد تغيير القرار الذي توصلنا إليه في نهاية المؤتمر ، لكننا رفضنا ، فغضب كثيراً . لقد كانت هناك أكثر من ١٥٠ مندوبة في المؤتمر ، بعضهن يمثل دولاً والبعض الآخر يمثل منظمات غير حكومية ، وكان من غير المعقول أن نغير قراراً توصلنا إليه بالإجماع» .

كان عام ١٩٧٥ العام الدولي للمرأة في الأمم المتحدة ، وفي العام ذاته نشبت الحرب الأهلية اللبنانية ، وتقول ليلى عن ذلك العام : «لقد كنا وسط حرب أهلية ، وفي الوقت ذاته كان علينا في الاتحاد تنفيذ البرامج والخطط التي أقرتها الأمم المتحدة لهذا العام ، وأول تلك الخطط كان تكوين لجنة وطنية في كل بلد ترعى شؤون المرأة وتسعى إلى تمكينها في المجتمع ، لكن ذلك كان صعباً جداً بالنسبة لنا ، فنحن لسنا دولة ، ثم تمّ بعد ذلك الاعتراف بمنظمة التحرير كعضو مراقب في الأمم المتحدة عام ١٩٧٤ ، وأصبحنا رسمياً حركة تحرر وطني» .

انخرطت ليلى بكامل طاقتها في العمل النسائي ضمن الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية ، وبدأت تشعر أن هذا العمل أضاف إليها الشيء الكثير ، مع أنها لم تكن راغبة فيه في البداية : «كان عليّ تدريب النساء على القتال في المخيم ، فقد كنّا في حالة حرب وعلينا الدفاع عن أنفسنا ، ومن جولاتي داخل

المخيم ولقائي بالنساء باستمرار ، بدأت أتعرف على مشاكلهن عن قُرب ، ليس فقط المشاكل المتعلقة بالمخيم ومعاناة اللجوء ، فكلنا لاجئون ونعاني بصورة أو بأخرى من المشاكل ذاتها ، لكنني بدأت أكتشف المعيقات الخاصة بالنساء ، وأخذت أستمع إلى شكوى هؤلاء النساء بوعي مختلف ، مما دفعني للعمل الجاد من داخل الاتحاد أكثر فأكثر ، ليس فقط بصفتي ممثلة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، بل لأنني امرأة تحسست مشاكل النساء وتحاول العمل على تقديم حلول مناسبة لها . كما تعرفت من خلال عملي على هموم النساء في القرى وليس فقط في المخيمات ، فالعائلة الكبيرة في الريف تستغل النساء في العمل في الحقول وفي بيع المنتجات في المدن لتأمين دخل للعائلة ، لكنها لا تمنح المرأة حق اختيار شريكها مثلاً ، أو حتى اختيار موقفها السياسي ، فهي لا بد أن تتبع موقف أبيها أو أخيها أو زوجها» .

نقلت ليلى بعد ذلك خبراتها ومعرفتها بمعاناة النساء الفلسطينيات إلى جميع المواقع التي شغلتها بعد ذلك ، سواء في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أو المجلس الوطني الفلسطيني أو منظمة التحرير الفلسطينية ، وطرحت موضوع تمثيل المرأة في منظمة التحرير الفلسطينية ، وكان هناك نساء بالطبع في المنظمة ، لكن لم تصل إحداهن إلى اللجنة التنفيذية ، وكذلك الحال بالنسبة للمجلس الوطني الفلسطيني . كما دعت من خلال موقعها في الاتحاد ، قيادات

الفصائل كلها إلى التعاون مع الاتحاد والعمل معه على مناقشة أمور النساء الفلسطينيات داخل الأراضي المحتلة وفي الشتات .

المرحلة الدولية:

شارك الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية في محافل دولية كثيرة ، بعيداً عن أجواء المخيمات الرثة في لبنان ، فقد عُقد أول مؤتمر عالمي للمرأة برعاية الأمم المتحدة في المكسيك في يونيو عام ١٩٧٥ ، حيث تمت الموافقة على إضافة بند يدين الحركة الصهيونية بوصفها حركة عنصرية ، وتم تبني الاقتراح في الجمعية العمومية للأمم المتحدة عام ١٩٧٥[20] . لكن ليلى تؤكد أن إدانة إسرائيل والحركة الصهيونية في المحافل الدولية لم يكن بالأمر الهين ، حتى في المؤتمرات التي عقدتها الدول الاشتراكية ، والتي طالما ساندت الفلسطينيين منذ الستينات ، فقد كان الوفد الفلسطيني يعاني دائماً من ضغوط متزايدة لتجنب ذكر الصهيونية من قبل الوفد السوفييتي ومن رئيسة الفيدرالية الديموقراطية العالمية للمرأة ، فريدا برون ، وكانت تقول : «طالما أن الصهيونية أدينت في الأمم المتحدة ، فلا داعي لذكرها هنا مرة أخرى» ، ولذلك كانت الخلافات تنشب دائماً بين الوفد الفلسطيني والوفود الأخرى حول الأمور السياسية وليس حول قضايا المرأة .

تعلمت ليلى الكثير عن شعبها من خلال عملها مع النساء

في المخيمات الفلسطينية في لبنان ، لكن المؤتمرات الخارجية فتحت عينيها على أمور أخرى لم تكن تحلم بمواجهتها من قبل . ففي إحدى المؤتمرات ، صعدت سيدة إلى المنصة لتلقي خطابها وقدّمت نفسها أنها ممثلة عن المثليات ، فدُهشت ليلى وأخذت تقول لنفسها : «ما هذا؟ لا يمكنني أن أتخيل شيئاً كهذا»! ثم أخذت تلك السيدة تهاجم رجلين كانا من بين الموجودين على المنصة وكان أحدهما قسيساً ، وطلبت منهما مغادرة المنصة ، لأنهما برأيها يمثلون أعداءها ، فغادر الرجلان القاعة ، ولحق بهما الوفد الفلسطيني . ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي تصطدم فيها الطبيعة الفلسطينية المحافظة مع الأفكار التحررية الغربية . ففي عام ١٩٦٩ زار وفد من الطلبة الأجانب معسكراً للتدريب تابع للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وذلك على هامش مؤتمر للاتحاد العام لطلبة فلسطين ، وتذكر ليلى أنها كانت موجودة حين سألت إحدى الزائرات : «كيف تمارسن حياتكن الجنسية هنا؟» ، فردت عليها ليلى : «نحن لا نفكر في ذلك هنا ، ولا نناقش مثل هذه الأمور ، فكما ترين هناك خيام للفتيات منفصلة عن خيام الرجال ، فنحن لا نستطيع أن نستفز تقاليد مجتمعنا هنا ، ولا نريد أن تمنع العائلات بناتها من الانضمام لمعسكراتنا ، وبالتدريج يمكن أن نحاول تغيير الأفكار التقليدية شيئاً فشيئاً» ، وتضيف ليلى : «لكن إحدى الفتيات في المعسكر حاولت أن تقنع الطلاب

الزائرين بأننا تقدميون ويساريون ونناقش تلك الأفكار داخل الحزب ، لكن ذلك لم يكن صحيحاً ، فنحن لم نكن نناقش الأمور الجنسية مطلقاً ، لا داخل الحزب ولا خارجه»[21] .

لم تقتصر تجربة ليلى في المؤتمرات الدولية على اطلاعها على الأفكار الجنسية الجديدة حول العالم ، فقد وجدت نفسها في أحد المؤتمرات في مواجهة شخصية مع أعدائها الإسرائيليين ، ولم تكن تلك مواجهة عسكرية ، أو داخل طائرة مخطوفة ، بل كانت في أروقة المؤتمر ، حيث قابلت الوفد النسائي الذي يمثل الحزب الشيوعي الإسرائيلي ، الذي كان يضم بين أعضائه أيضاً فلسطينيين من المواطنين الإسرائيليين .

تقول ليلى : «قررنا فيما بيننا أننا لن نتعاطى مع الوفد الإسرائيلي البتة ، وكان الأصدقاء المشتركون بيننا وخاصة السوفيت يسألوننا دائماً لماذا لا تتحدثون إليهم؟ ، وكنا نقول «نحن لن نتحدث إلى أشخاص يحتلون أرضنا ويسكنون بيوتنا ، وحتى الفلسطينيون منهم يمثلون دولة إسرائيل ولذلك لن نتحدث إليهم كذلك» . وفي إحدى المرات كانت ليلى تستعد لحضور إحدى الجلسات عندما اقترب منها رجل وامرأة ليسلما عليها ، كانت تعرف الرجل ، فهو كاتب سوفيتي التقته من قبل ، لكنها لم تتعرف إلى السيدة ، وكان كلاهما يتحدث العربية بلكنة أجنبية . قال الرجل لليلى «هل تعرفين السيدة؟» ولكن قبل أن تجيب ليلى ، اقتربت منها السيدة واحتضنتها

بشدة ، فقالت ليلى «من أنت سيدتي؟» فأجاب الرجل عنها «إنها المحامية فاليسا لانغر ، التي تدافع عن كل المعتقلين الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية» ، وهنا انسحبت ليلى من اللقاء بعد أن ودعت الكاتب وفاليسا لانغر وأخذت تبكي في طريقها إلى قاعة الجلسة ، وعندما سألتها رفيقاتها في الوفد عما يبكيها ، أجابت «تخيلوا ، لقد احتضنتني فاليسا لانغر!» .

لكن ليلى تقول : أن وفد الجبهة الشعبية حضر الجلسة التي ألقت فيها فاليسا خطابها ، وكانت تُخرج من حقيبتها الرسالة تلو الأخرى من الرسائل التي تلقتها من معتقلات فلسطينيات يعانين الاضطهاد والتعذيب في السجون الإسرائيلية ، وتكلمت كذلك عن عنصرية دولة إسرائيل بالتفصيل ، مدعومة بوثائق جمعتها خلال عملها . «لقد ذهلنا مما سمعنا ، فقد كانت تتكلم مثلنا تماماً! وأخذنا نلوم أنفسنا على موقفنا السابق منها» تقول ليلى .

استضافت الدانمرك مؤتمر الأمم المتحدة الثاني حول المرأة عام ١٩٨٠ في العاصمة كوبنهاجن ، وحضرت ليلى المؤتمر ضمن وفد منظمة التحرير الفلسطينية ، فبعد حصول المنظمة على صفة مراقب في الأمم المتحدة أصبح من حقها حضور المؤتمرات التي تنظمها الأمم المتحدة وتقديم أوراق عمل فيها ، لكن لا يجوز لها التصويت على القرارات . وقد واجهت ليلى تهديدات بالقتل منذ لحظة وصولها إلى كوبنهاجن ، وكانت هناك أخبار

تؤكد أن الحكومة الإسرائيلية كانت تسعى لإبعادها من كوبنهاجن[22] . وتتذكر ليلى : «كنت أتلقى رسائل تهديد كل يوم خلال فترة المؤتمر ، وكان بعضها يؤكد أنني لن أخرج حية من كوبنهاجن ، مما أثار فزع بقية أفراد الوفد ، فاضطررت إلى التزام برنامج مختلف عن بقية السيدات في الوفد ، بحيث تصبح تحركاتي أكثر حرصاً ، وبعيدة عن وسائل الإعلام» .

ومع ذلك ، فقد عادت ليلى للظهور في الصحف الغربية التي كانت مهتمة بتغطية أخبار الحركة النسائية ، وجدول الأعمال في مؤتمر كوبنهاجن ، حيث هاجمتها بعض رموز الحركات النسائية الغربية ، أمثال روبن مورغان من الحركة النسائية الأمريكية ، التي كانت ترى أن النساء اللواتي يشاركن في الأعمال الإرهابية لسن أكثر من بيادق في أيدي الرجال ، بل وحاضنات للرموز الذكورية ، وقد كتبت عن ليلى خالد ما يلي «عبّرت الوفود النسائية في مؤتمر كوبنهاجن عن امتعاضها بصورة غير رسمية من موقف ليلى خالد التي لم تتطرق إلى هموم النساء في خطابها في المؤتمر ، لكن دوافع ليلى خالد تبدو واضحة جداً الآن من خلال المقابلة التي أجرتها مع صحيفة نسوية ألمانية . فقد أظهرت موقفاً متعالياً يميز قادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، رافقه رؤيتها للمرأة في مجتمعها بقولها : «أنا أمثل كل الفلسطينيين وليس النساء فقط ، ومع أن المجتمعات العربية تؤكد على دور المرأة كزوجة وأم في أغلب الأحيان إلا

أنني شخصياً لا أتعرض لأية ضغوط من هذه الناحية ، فالمرأة التي تمارس العمل السياسي تحظى باحترام كبير . . . وإذا بدأنا بالمطالبة بحقوق المرأة على حدة فإن المنظمات والقادة لن يأخذونا على محمل الجد ، وسيتهموننا بأننا نريد أن نصبح كالأوربيات وسيرفضوننا . لذلك فنحن نحاول أن نوضح لمجتمعنا إن معنى الشرف يتخطى حدود عذرية الفتيات ، بل يتجلى بمعناه الحقيقي في النضال من أجل استعادة الأرض المسلوبة» .

من الواضح أن ليلى خالد تعتز بكونها امرأة ، ونحن نقول إن المرأة التي تثور من خلال النموذج الذكوري تستطيع أن تفعل ذلك إلى حدّ معين لتصل إلى النقطة التي تبدأ فيها ثورتها الخاصة كامرأة»[23] .

لا بد أن نشير هنا إلى أن وفد الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية إلى كوبنهاجن لم يقتصر على ليلى خالد بالطبع ، لكنها انفردت بالهجوم الذي تعرضت له من بعض ممثلات الحركات النسائية . وقد كان من ضمن الوفد الفلسطيني ، مي صايغ التي رأست الوفد وجيهان حلو ، وكلتاهما تنتمي إلى حركة فتح ، أما رئيسة الاتحاد عصام عبدالهادي فقد حضرت جزءاً من الفعاليات ، ثم غادرت لأسباب صحية ، كما تؤكد أمل قعوار[24] .

أما الصحفية البريطانية جيل تويدي ، فقد شاركت مورغان الرأي في نقدها لليلى خالد والوفد الفلسطيني عموماً لعدم تقديمه

لقضايا المرأة الفلسطينية بمعزل عن الشأن السياسي في مؤتمر كوبنهاجن ، وقد حاولت تويدي إجراء مقابلة مع ليلى ، لكنها لم تفلح إلا في اقتناص بضع دقائق علمت خلالها منها أنها «تعيش في بيروت منذ أن عادت من لندن ، وأنها غير متزوجة ، وأنها عضو في الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية ، وتكرس جلَّ وقتها للعمل في المخيمات الفلسطينية في لبنان ، وتعطي دروساً لمحو أمية النساء ، وتساهم في رعاية الأيتام وأبناء الشهداء» . وتضيف تويدي : «إن عمل ليلى الآن لا يختلف عن عملها السابق كمقاتلة وخاطفة طائرات ، فكل ما تفعل يصب في هدف واحد ، هو خدمة القضية الفلسطينية» ، كما تضيف تويدي بعض التعليقات حول مظهر ليلى وجاذبيتها في نهاية المقال[25] .

النسوية والوطنية:

يبدو موقف ليلى واضحاً في ما يتعلق بموضوع النسوية والوطنية ، وأيهما يستحق الأولوية في حياة النساء ، فهي تقول : «هناك بعض الباحثين في منطقتنا ممن ينادون بتحقيق المساواة بين الجنسين قبل كل شيء ، لكن بالنسبة لي ، السؤال الأهم هو : أين يكمن القمع المباشر؟ إنه الاحتلال ، وهو قمع واقع على النساء والرجال والأطفال ، فالجميع يعاني منه دون تمييز» ، وتضيف : «في ظل الأوضاع السائدة في الضفة الغربية وغزة بعد عام ١٩٦٧ ، يتم اعتقال معظم النشطاء الاجتماعيين

سواء كانوا يعملون ضد الاحتلال مباشرةً أم لا ، ولذلك يبقى إنهاء الاحتلال القضية الأولى والمباشرة قبل أي محاولة لتغيير المجتمع . فالاحتلال أكثر خطورة من أن يقمع حق الفتاة في اختيار شريك حياتها بالتأكيد» .

بالإضافة لذلك ، لا تؤمن ليلى أن المساواة الحقيقية ستتحقق من خلال الاشتراكية : «نحن نعتقد أن كفاحنا الوطني سيحقق لنا بعض المكاسب على مستوى حقوق النساء ، لكن ذلك لا يعني أن المجتمع سيتغير بالكامل ، فهناك موروث ضخم من العادات والأفكار والتقاليد التي لا يمكن تغييرها بين ليلة وضحاها من خلال القوانين والسياسة ، فالأمر يحتاج إلى عدة أجيال متعلمة تقود التغيير تدريجياً ، ونحن نعرف أن الرجال سيفقدون الكثير من سلطتهم وامتيازاتهم إذا ما حصلت النساء على حقوقهن» .

أما الناشطة الحقوقية ليندا كلير ، وهي بريطانية يهودية ومن أصدقاء ليلى بعد لقائهما في أحد المؤتمرات في ليبيا عام ١٩٨٨ ، فتقول : «لا أعتقد أن الذين يؤكدون الجانب النسوي أولاً ، قد خبروا الكفاح عن كثب ، ولكن هناك من الناشطات الفلسطينيات من لا تشاركها ذلك الرأي ، وعلى سبيل المثال تروي العضوة السابقة في الجبهة الشعبية في غزة السيدة اعتماد مهنا تجربتها عندما هاجمها بعض أعضاء حركة حماس ؛ لأنها لم تكن ترتدي الحجاب وتقول : «لم يعن لهم

انتمائي للمقاومة الوطنية شيئاً عندما تعلق الأمر بالحجاب ، إن هويتي كمناضلة وطنية لم تحجب حقيقة أنني امرأة قبل كل شيء وأعاني ما تعانيه النساء الأخريات ، ولذلك فأنا لا أعتقد بوجود رابط مباشر بين التحرر الوطني عامة وحرية المرأة على وجه الخصوص»[26] .

نجد كذلك في كتابات مي الصايغ ومنذ عام ١٩٧٩ أنها تصف موقف أبو عمار من مشاركة المرأة في العمل النضالي بقولها : «يعتقد أبو عمار أن على المرأة الانضمام إلى قواعد الفدائيين والعيش معهم والتدريب على حمل السلاح ، لكنه لا يفهم الصعوبات التي نواجهها لإخراج النساء من بيوتهن لقضاء حوائجهن اليومية في وضح النهار ، ناهيك عن تشجيعهن على الانضمام إلى معسكرات التدريب . لا يمكننا تخطي جميع الحواجز دفعة واحدة ، فهذا خطأ كبير يوازي خطأ حبس النساء في بيوتهن ، وما لا يفهمه أبو عمار أن المرأة التي تذهب إلى قواعد الفدائيين لتعيش وسط الرجال تخاطر بسمعتها ، وينظر إليها المجتمع وكأنها عاهرة . ولا زلت أتذكر عندما بدأنا بالانضمام إلى المعسكرات في الأردن عام ١٩٦٧-١٩٦٨ أن الرجال كانوا يصطفون لتحيتنا بسخرية في الشارع وهم يغنون «إجت الفدائية»[27] . وتضيف صايغ إن الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية كان يحفر في الصخر لتغيير موقع المرأة في المجتمع الفلسطيني . كما تؤكد فاطمة ، إحدى الناشطات من

مخيم تل الزعتر في لبنان ، «أن حصار المخيم عام ١٩٧٦ كان الحالة الوحيدة التي أقنعت بعض الرجال في المخيم بأهمية وجود النساء في الصفوف الأمامية للدفاع عن المخيم ، فقد كان الخطر واضحاً وكبيراً ويطال جميع السكان ، ولم يستطع أحدهم أن يمنع ابنته أو زوجته من المشاركة لأن الجميع كان في خندق واحد»[28] .

لقد شهدت ليلى تغيرات جذرية خلال أربعة عقود من عملها في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . ويؤكد خليل مقدسي أن الحزب كان دائماً سباقاً في استقطاب النساء وتمكينهن من العمل والقتال في صفوف الجبهة ، فهناك مثلاً شادية أبو غزالة ، المقاتلة التي انضمت إلى صفوف الجبهة الشعبية في نابلس ، وكانت أول شهيدة فلسطينية في صفوف المقاومة في الستينات ، وقد أطلق اسمها على العملية التي قامت بها ليلى خالد عام ١٩٦٩ .

لكن تلك التغييرات لم تحدث في يوم واحد ، إذ كان على النساء مواجهة المواقف الرافضة لعملهن في البداية ، وتقول ليلى : «عندما أوكلني الحزب لقيادة مجموعة من المقاتلين للمرة الأولى في لبنان ، اعترض أحد المقاتلين على ذلك ، ورفض آخرون العمل تحت قيادتي ، لكن مسؤول العمل العسكري أصر على بقائي وقال لهم : «نحن في حالة حرب ، وفي الحرب لا تختار قائدك ، بل تطيع الأوامر فقط» ، ومع ذلك فقد جرت

الأمور بالنسبة لي بسهولة أكبر من باقي القائدات ، وكان عددنا أربعة ، وذلك لأن الجميع كانوا يعرفونني بعد حوادث خطف الطائرات . لقد استغرق الأمر الكثير من الوقت والجهد لتكسب النساء ثقة المقاتلين في أرض المعركة «والآن بعد مرور أربعين عاماً ، يمكن أن نقول إننا استطعنا تغيير بعض الأفكار والتقاليد البالية في المجتمع وفي الحزب كذلك . أما بالنسبة لحياة النساء اليومية في المنزل وفي الشارع ، فقد كانت الأمور أصعب ، فقد كانت بعض الناشطات في السبعينات يؤكدن المساواة في كل شيء ، حتى في تقاسم الأعمال المنزلية ، وقد ناقشنا الكثير من هذه الأفكار داخل الحزب ، وكان البعض يؤكد تقديم تلك الأفكار بالتدريج حتى لا نخيف الأعضاء الرجال في الحزب ، ناهيك عن استقطاب أعضاء جدد قد لا يحبذون الانضمام إلى حزب يدعو إلى مساعدة الزوجات في غسل الصحون» .

وبعد مرور الوقت ، قرر تنظيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين إدراج القضايا النسائية ضمن برامجه التعليمية والتثقيفية المفروضة على الأعضاء ، وذلك بعد الكثير من الضغوطات من كادره النسائي ، التي حثته على الاعتراف بخصوصية المشاكل التي تواجهها الناشطات السياسيات وعضوات الجبهة الشعبية ، وخاصة في الأراضي المحتلة . وتؤكد ليلى أهمية تلك الخطوة بقولها : «لقد كانت تلك خطوة إيجابية جداً ، إذ يمكن لأي تنظيم أن يدعي نظرياً أنه يطبق المساواة بين

أعضائه دون تمييز بين الجنسين ، لكن الأمر أصبح مختلفاً في الجبهة الشعبية ، فقد أصبحت قضايا المرأة جزءاً من البرنامج التعليمي الذي يؤهل أعضاء التنظيم للترقي من رتبة إلى رتبة أعلى» .

النساء في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

استلهمت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بعض مبادئها من كتابات رموز ثورية معروفة مثل تشي غيفارا ، وفيدل كاسترو باعتبارهما تنظيماً ثورياً ماركسياً[29] ، وحددت نظاماً داخلياً صارماً يقوم على تحديد الواجبات والمسؤوليات المناطة بأفراد التنظيم[30] .

وكما رأينا سابقاً ، فإن على أعضاء التنظيم استشارة القيادة في قرارات حياتهم الخاصة مثل الزواج أو السفر وخلافه ، كما يُفترض بالمتقدمين للالتحاق بالتنظيم إثبات التزامهم التام من خلال نشاطهم قبل منحهم العضوية الكاملة . ولذلك كان التأثير السياسي للجبهة أكبر بكثير من حجمها من حيث عدد الأعضاء . ومع أن العدد الحقيقي للأعضاء المنتسبين للجبهة الشعبية يظل سرياً لأسباب أمنية بالطبع ، إلا أن المراقبين يُقَدرون العدد ببضعة آلاف ، وربما مئات في السنوات الأخيرة[31] .

تؤكد ليلى خالد أن النساء داخل الجبهة واجهن الكثير من

العقبات التي حاولن اجتيازها ، وحاربن لتطبيق الأفكار الماركسية التي يتبناها الحزب ، وقدّمن طرقاً جديدة لتطبيق تلك الأفكار على أرض الواقع ، وفي إطار الكفاح المشترك بين النساء والرجال ضد العدو . وتضيف : «كان الأمر مختلفاً بالنسبة لحركة فتح مثلاً ، فهي حركة تضم طبقة البرجوزاية الصغيرة ، وكانت تستقطب عدداً كبيراً من الأعضاء لأنها حركة منفتحة على كثير من الأفكار السياسية» .

ظهر دور النساء في الفصائل الفلسطينية المختلفة بوضوح على مستوى القاعدة أكثر منه في القيادات ، إذ تقول مقاتلةً فلسطينية من مخيم نهر البارد في لبنان ، في لقاء مع روزماري صايغ في السبعينات : «لقد كُسر حاجز الخوف ، ولدينا الآن حركة نسائية نشيطة في المخيم ، ولأول مرة نرى النساء في موقعهن الصحيح ، وهناك تدريبات عسكرية للشباب من الجنسين ، لقد شعرنا أننا استعدنا هويتنا الفلسطينية والإنسانية كذلك»[32] .

ومع ذلك ، فإن ما قالته تلك المقاتلة ، لا ينطبق على جميع المقاتلات في الفصائل الفلسطينية ، فقد قابلت صايغ أخريات ممن لهن رأي مخالف حول دور المرأة في المقاومة الفلسطينية ، وتقول إحداهن وقد نشأت في أحد مخيمات لبنان :

«لم تمنح الثورة حتى الآن للمرأة دورها الحقيقي ، فدور المرأة في الثورة حتى هذه اللحظة لا يؤهلها للخروج من قفصها

الاجتماعي ، ولا تزال معظم النساء غير قادرات على مواجهة عائلاتهن للانضمام للعمل السياسي ، وهناك رجال من المسؤولين في فصائل الثورة ، وممن ينادون بالأفكار الثورية ، لا يسمحون لبناتهم ولا زوجاتهم الاشتراك في العمل السياسي[33] .

تعترف ليلى بأن الطريق لا يزال طويلاً للوصول بالمرأة إلى موقعها المناسب ، لكنها تؤكد أيضاً بأن النساء قادرات على الوصول إلى مراكز قيادية بالتأكيد ، وتقول أن المرأة وصلت إلى اللجنة المركزية في الجبهة الشعبية للمرة الأولى عام ١٩٧٢ ، ثم زادت أعداد النساء بعد ذلك تدريجياً سواء في اللجنة المركزية أو في المكتب السياسي . وهناك ثلاث نساء في المكتب السياسي منذ المؤتمر السادس للجبهة عام ٢٠٠٠ ، وهن : ليلى خالد ، خالدة جرار ، مريم أبو دقة ، وكلهن منتخبات بالطبع ، وربما كان العدد أكبر لولا أن الجبهة لم تعقد مؤتمراً عاماً منذ عام ٢٠٠٠ بسبب الوضع في الضفة الغربية وغزة . واعتقال الأمين العام أحمد سعدات المسجون في السجون الإسرائيلية .

لم تلق كل مقترحات عضوات الجبهة الشعبية آذاناً صاغية لدى القيادة ، ففي المؤتمر الرابع للجبهة عام ١٩٨١ ، طالبت نساء التنظيم بمنع تعدد الزوجات بين أعضاء التنظيم ، غير أن هذا الطلب جوبه بالرفض من معظم الأعضاء ، فقد رأوا أن تلك قضية هامشية ، وخاصة أن عدد الأعضاء الذين يمارسون

تعدد الزوجات ضئيل جداً ، ولذلك فليس من الحكمة إثارة بلبلة ، وربما معارضة بعض حلفاء الجبهة ؛ لأن الجبهة ترفض علناً قانوناً إسلامياً واضحاً . وتقول ليلى : «نحن لا نذكر هذا الموضوع في وثائقنا ، لكننا نناقشه حالة بحالة إذا كان الأمر يخص أحد الأعضاء ، لكن الجبهة لم تتبن موقفاً رسمياً من تعدد الزوجات حتى الآن ، وهو أمر علينا القبول به» .

رغم وجود المرأة في مراكز متقدمة في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، إلا أن وجود النساء في تلك المراكز ضمن منظمة التحرير الفلسطينية شبه معدوم ، وتعزو ليلى ذلك إلى عدم وجود النساء في مراكز القرار في الفصائل الفلسطينية عامة ، ولذلك فهن لا يترشحن للقيادة في منظمة التحرير الفلسطينية التي تضم جميع الفصائل ، كما تشير ليلى إلى قلة التوثيق حول العلاقة بين التحرر الوطني والتحرر الاجتماعي في منظمة التحرير ، وتؤكد الحاجة إلى معرفة المزيد حول التاريخ النضالي للمرأة الفلسطينية .

قدمت أمل قعوار بعض الإحصاءات حول موقع المرأة في الفصائل الفلسطينية الرئيسية في منتصف التسعينات ، وقد حلّت الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين في المرتبة الأولى من حيث وجود النساء فيها في مواقع مختلفة ، وطبقاً لإحصاءات قعوار ، شكلت النساء ٢٨٪ من عدد الأعضاء ، ١٧٪ من اللجنة المركزية ، و١٣٪ من المكتب السياسي ، وذلك في

الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين ، أما في الجبهة الشعبية ، فقد مثلت النساء ١٥٪ من كوادرها ، و٥٪ من اللجنة المركزية ، ولم يكن هناك نساء على الإطلاق في المكتب السياسي (تغير ذلك عام ٢٠٠٠ ، بعد انتخاب ليلى خالد وخالدة جرار ومريم أبو دقة في المكتب السياسي) . أما حركة فتح فقد حلّت في المرتبة الأخيرة في نسبة احتلال النساء مراكز مختلفة في التنظيم . شكلت النساء نسبة ٧٪ فقط في المؤتمر الرابع للحركة عام ١٩٨٠ ، أما في المؤتمر الخامس ، فقد تم انتخاب ست نساء يشاركن في المجلس الثوري الذي كان عدد أعضائه في ذلك الوقت ثمانين[34] .

أما في المجلس الوطني الفلسطيني فكان عدد النساء قليلاً جداً ، بينما خصص المجلس مقاعد محددة لمجموعات أخرى مثل الفلسطينيين المسيحيين ، وعقدت منظمة فتح صفقات بعينها مع عدة أطراف لتعزيز قاعدتها في المجلس ، مما زاد من صعوبة حصول النساء على مقاعد أكثر داخل المجلس . وقد طرحت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مشروع الكوتا النسائية في مؤتمرها السادس عام ١٩٩٣ ، لضمان حصول النساء على مقاعد محددة في الهياكل التنظيمية المختلفة ، ولكن قعوار تنقل في كتابها على لسان إحدى القياديات في الجبهة : «أنها ذُهلت عندما اكتشفت أن العلاقات الخاصة والروابط العائلية لعبت دوراً رئيسياً في اختيار العضوات المرشحات ، إذ كان

القادة يختارون قريباتهم لمواقع معينة»[35] ، لكن ليلى خالد تؤكد أن ما جاء على لسان السيدة لا يعكس الواقع داخل الجبهة الشعبية .

تعتقد ليلى خالد أن وضع المرأة الفلسطينية بحاجة إلى مزيد من الدراسة المعمقة ، لتقييم التحديات التي تواجهها ، وتأثير حالة اللجوء طويلة الأمد عليها من جميع الجوانب ، بالإضافة لتأثير الاحتلال طويل الأمد على النساء في الأراضي المحتلة ، وتضيف ليلى أن الدراسة لا بد أن تبحث في أسباب تراجع موقع المرأة ومشاركتها في المجتمع ، بعد أن حققت الكثير من المكاسب في السبعينات والثمانينات . كما تشير إلى أن الدراسة لا يجوز أن تقتصر على النساء فقط : «إن الوضع بأكمله صعب للغاية ، فنحن لدينا النظريات ، لكننا لا بد أن نناقش ما يحدث على أرض الواقع ، ليس بالنسبة للنساء فقط ، إذ لا بد من دراسة تأثير الاحتلال على الأطفال أيضاً ، وتقييم المناهج الدراسية والأفكار التي يتعرضون لها من خلال وسائل الإعلام . كما أننا بحاجة إلى معرفة التغيرات التي طرأت على الفلسطينيين كأفراد بعد مرور عشرات السنين وهم تحت الاحتلال أو في المنافي» .

كان هناك الكثير من الخلافات بين أعضاء الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية المنتميات إلى فصائل فلسطينية مختلفة ، لكن تلك الخلافات تعمقت أكثر فأكثر بعد خروج الفصائل

الفلسطينية من بيروت عام ١٩٨٢ ، إذ اتجه معظم الأعضاء من حركة فتح إلى تونس ، بينما خرجت عضوات الفصائل اليسارية إلى دمشق واستقررن هناك ، ليتسع الشقاق داخل الاتحاد وتزداد الخلافات بسبب البعد الجغرافي . كما ساهمت زيارة ياسر عرفات لمصر عام ١٩٨٥ في تدهور العلاقات بين سوريا وفتح[36] ، فمنع أبو عمار الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية من العمل في سوريا ، ودعا إلى اجتماع عام للمجلس الوطني الفلسطيني في عمّان ، لكن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين قاطعت اجتماع المجلس بسبب خلافاتها السياسية مع عرفات ، وخاصة حول التفاوض مع إسرائيل ,كما قاطعت الجبهة ، بالإضافة لفصائل أخرى في منظمة التحرير ، اجتماعاً آخر للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية تقرر عقده في عمان بالتزامن مع اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني .

ظلت علاقة الجبهة الشعبية بالاتحاد العام للمرأة الفلسطينية متوترة بعد ذلك ، لكن ذلك لا يعني أن قضايا المرأة قد أهملت داخل الجبهة ، فقد كانت هناك لجان خاصة لعرض ومناقشة قضايا الكادر النسائي تسمى لجان المرأة الفلسطينية ، وقد أسست هذه اللجان مجموعة من الناشطات الشابات في السبعينات لنشر الوعي السياسي ، إلى جانب الأعمال الخيرية التي كانت تقوم بها الحركات النسائية في الأراضي المحتلة . وقد انقسمت الحركات النسائية إلى أربع منظمات في فترة

الثمانيات تبعاً للفصيل الفلسطيني الذي تؤيده كل منظمة[37] ، وفي عام ١٩٨١ تكوّن اتحاد لجان المرأة الفلسطينية المنبثق عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بهدف «الكفاح من أجل تمكين المرأة الفلسطينية ، وتطوير ظروفها الحياتية لتحقيق المساواة بين النساء والرجال ، والقضاء على الفروقات الطبقية بين أفراد المجتمع . . . كما يؤكد اتحاد لجان المراة الفلسطينية أنه جزء من الحركة الوطنية الفلسطينية المكافحة ضد الاحتلال الإسرائيلي ، ويسعى لتحقيق الاستقلال الوطني»[38] . وبالإضافة لنشاطاته السياسية ، سعى اتحاد اللجان إلى إقامة التعاونيات لمساعدة الأسر الفقيرة بإقامة مشاريع صغيرة تدر دخلاً على المشتركين فيها ، وساهم في تأسيس دور حضانة للأطفال ، وقد أُنتخبت ليلى خالد رئيسة للاتحاد عام ١٩٨٦ عندما كانت تقيم في مخيم اليرموك[39] .

ترد ليلى على الاتهامات التي تقول إن الجبهة الشعبية أنشأت اتحاداً موازياً للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية بقولها : «لقد توقف الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية عن العمل في سوريا بسبب الخلافات السياسية ، فكان لا بد أن نقوم بعمل ما هنا في سوريا ، فأنشأنا منظمة جماهيرية خاصة بنا ، وقد كان اتحاد اللجان يأمل أن يصبح أحد المنظمات العاملة تحت مظلة الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية ، وليس بديلاً عنه ، كما كان أحد أهدافه ، تنظيم المرأة الفلسطينية بغض النظر عن انتمائها لحزب

ما ، وتوعيتها بالقضايا الوطنية والاجتماعية» .

وفي النهاية ، أصبح اتحاد اللجان أداة تنظيمية هامة بالنسبة للنساء اليساريات ، خاصة خلال الانتفاضة في الأراضي المحتلة وغزة عندما تعرضت الناشطات لحملات اعتقال واسعة من قبل قوات الأمن الإسرائيلية[40] . ومع أن عضوية الاتحاد لم تكن علنية ، إلا أن عدد الناشطات في الاتحاد وصل إلى حوالي ٦٠٠٠ امرأة في فترة التسعينات معظمهن من الطالبات ، حسب ادعاء المسؤولين في اتحاد اللجان[41] .

انضم فرع الضفة الغربية وغزة من اتحاد اللجان إلى اللجنة طاقم شؤون المرأة في وزارة التخطيط في السلطة الفلسطينية عام ١٩٩٤ ، رغم أن الجبهة الشعبية تعارض اتفاقيات أوسلو التي انبثقت عنها السلطة الوطنية الفلسطينية ، لكن الاتحاد سعى من وراء تلك الخطوة إلى «أن يكون جزءاً من البنية التحتية للدولة الفلسطينية القادمة ، لدمج النساء في جميع الجوانب التحضيرية لعملية السلام ، وليساهم في بناء مؤسسات الدولة بطريقة تعبر عن إعلان الاستقلال (١٩٨٨) الذي يؤكد على مبادئ المساواة بين الفلسطينيين بغض النظر عن الجنس أو العرق أو الدين» .

يعتقد جايكمان وجونسون أن «اتحاد لجان المرأة الفلسطينية قد رأى جدية اللجنة الفنية لشؤون المرأة في فرض قضايا النساء قبل كل شيء ، كما أنها لجنة غير حكومية ، ولذلك قبل اتحاد

لجـان المرأة الفلسطينيـة بالانضـمـام إلى اللجنة الفنيـة ، رغم معارضة الجبهة الشعبية لاتفاقيات أوسلو وكل ما ينشأ عنها . بالإضـافـة إلى ذلك ، يسعى اتحاد لجـان المرأة الفلسطينيـة إلى اكـتـسـاب المزيد من القـوة السـيـاسـيـة والمادية التي تمكنه من مـواصلة مـهـمـتـه في مـلاحـقـة قـضـايا المرأة ، وقـد وجـد في الانضمام إلى اللجنة الفنية غايته المنشودة»[42] .

الفصل السادس
الانتقال إلى الأردن والعودة إلى فلسطين

قررت ليلى خالد وزوجها الانتقال من دمشق إلى عمان في الأردن عام ١٩٩٢ ، وكما هو الحال بالنسبة لجميع اللاجئين الفلسطينيين ، لم يكن تطبيق قرار الانتقال بالأمر الهيّن .

بدأ الدكتور فايز ، زوج ليلى ، بالخطوة الأولى وهي محاولة استرجاع جواز سفره الأردني ، الذي تحفظت عليه السلطات الأردنية منذ أكثر من عشرين عاماً . فقد أراد أن يفتح عيادة للعلاج الطبيعي في العاصمة عمان ليعيل عائلته الصغيرة ، أما ولداه بدر وبشار فلم يكن لديهما أية إثباتات شخصية غير شهادات الميلاد السورية .

كانت الأردن عام ١٩٩٢ قد فتحت لتوها صفحة جديدة مع الملاحقين السياسيين والمبعدين الذين يريدون العودة إلى البلاد ، وبعد عدة مقابلات وتحقيقات ، حصل فايز على جواز سفر مؤقت ، كما حصل ولداه على جوازات مماثلة .

أما الأم ، ليلى خالد ، فقد منعها سجلها الحافل في أحداث عام ١٩٧٠ من دخول الأردن لعدة سنوات ، ولم تتراجع

السلطات الأردنية عن قرارها إلا بعد عامين من المقابلات والمراجعات والتحقيقات مع ليلى ، ثم سُمح لها في النهاية بالبقاء في عمان بصحبة عائلتها ، لتبدأ العائلة رحلة جديدة في محاولة لتأسيس حياة مستقرة .

تتذكر ليلى تلك المرحلة بقولها : «وصلنا إلى الأردن عام ١٩٩٢ ، وكان من الصعب جداً إيجاد منزل للعائلة في ذلك الوقت ، فقد غصّت عمان بالفلسطينيين العائدين من الكويت بعد حرب الخليج ، فاضطررنا للإقامة في شقة مفروشة لفترة من الزمن ، فأتى ذلك على جزء كبير من مدخراتنا ، كما اقترض فايز من البنك ليتمكن من افتتاح عيادته ، أما الولدان ، فقد واجها بعض الصعوبات في بداية العام الدراسي بسبب منهاج اللغة الإنجليزية ، ولم يكونا قد درسا لغة أجنبية من قبل . وهكذا بقيتُ في عمّان عاماً كاملاً دون أن أقوم بأي نشاط سياسي يُذكر ، وكنت أحاول فقط أن أرتب أمور العائلة من جديد» . لكن مشاكل ليلى العائلية لم تبدأ بقدومها إلى عمان فقط ، فقد فقدت اثنين من إخوتها في العام السابق لقدومها إلى عمان ، عام ١٩٩١ ، مما ترك في نفسها أعمق الأثر وجعلها تشعر «بالحزن والتعاسة لفترة طويلة ، ولم أجد في نفسي القوة للمقاومة» كما تقول ليلى .

تتحدث ليلى عن تربية ولديها قائلة : «لقد كنت حريصة على تربية الولدين على الاستقلالية التامة والاعتماد على

النفس ، وكنت أحذرهما من ذكر اسمي الكامل أمام زملائهما في المدرسة ، فلم أشأ لولدي أن يتلقيا أي معاملة خاصة ، إيجابية كانت أم سلبية بسبب أمهما ، ولذلك لم يكن أحد من أصدقائهما يعرف أنهما أبناء ليلى خالد حتى وقت قريب» ، وتضيف : «كنت دائماً أحاول أن أخلق توازناً ما بين حياتي العائلية وعملي الحزبي ، لكنني كنت أفشل أحياناً ، وأظن أن جميع النساء الناشطات في العمل السياسي يواجهن الظروف ذاتها ، وعندما كان أبنائي صغاراً ، كانوا يفتقدونني كثيراً عندما أسافر للمؤتمرات ، وكانوا دائماً يتساءلون عن سبب غيابي المتكرر ، وعندما كبروا أخذت اصطحبهم معي في بعض المهام ، فقد أخذت بدر معي إلى أحد المؤتمرات السياسية في اليابان ، وطلبت منه أن يتحدث مع الحاضرين الشباب ويخبرهم عن معاناة الشباب الفلسطيني تحت الاحتلال . لقد أردته أن يعرف أهمية عملي ، ولماذا كنت أقضي وقتاً طويلاً بعيداً عنهم ، أما بشار فقد اصطحبته معي في مناسبة أخرى إلى جنوب أفريقيا ، وعندما عدنا كان يقول لي : «الآن أفهم أهمية التواصل مع الآخرين ، لكنني ما زلت أعتقد أنكِ لو حملت السلاح مرة أخرى لكان أفضل» .

تعترف ليلى خالد أنها كانت تخشى كثيراً على ابنيها عندما كانا صغيرين ، فقد يتعرضان للخطف أو الأذى كوسيلة للضغط عليها ، لكنها الآن تحس بالارتياح بعد أن كبرا واختار

كلّ منهما طريقه ، فأحدهما اختار الدراسة في لندن ، ولم يتبع خطى والديه على طريق العمل السياسي ، لكن ليلى تؤكد «لقد ربينا الولدين على المبادئ التي نحملها ، لكننا تركنا لهما اختيار الحياة التي يريدان ، ونحن نلتقي معهما في الثوابت الفلسطينية ، من وضوح الهوية وحق العودة وغيرها من المبادئ التي نصر عليها أنا وفايز ، لكنهما يقرران طريق المستقبل حسب رغبتهما وقناعتهما» .

أثّر انتقال ليلى خالد إلى عمان تأثيراً كبيراً على عملها السياسي ، فمنذ أحداث أيلول الأسود عام ١٩٧٠ ، مُنعت الفصائل الفلسطينية ، وخاصة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، من ممارسة أي نشاط على الأراضي الأردنية ، وتقول ليلى : «لقد سمحوا لي بالإقامة في عمان بصفتي الشخصية ، وبوصفي عضوة في المجلس الوطني الفلسطيني ، لكنهم منعوني من التحدث باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في المحافل العامة ، أو الإدلاء بأية تصريحات للصحافة ، وهو أمر صعب بالنسبة لي ، لكن كان لا بد أن أقبل» .

ومع ذلك ، فقد وجدت ليلى بعض المنظمات العاملة في عمان لمساندة الانتفاضة في الضفة الغربية ، ومنظمات أخرى تعمل على جمع التبرعات لدعم الشعب العراقي في محنته بعد الغزو الأمريكي ، فعاودت نشاطها السياسي من خلال تلك المنظمات ، وتصف ليلى خالد مقابلتها الأولى مع أحد

ضباط جهاز المخابرات الأردنية بعد وصولها إلى عمان مباشرة ، بأنها مقابلة مقتضبة أخبرها خلالها الضابط بأنها يمكن أن تستقر في عمان ، ولكنها يجب أن تتقيد بالقوانين المعمول بها في البلاد ، فأجابت بأنها تعرف ذلك . وبعد ذلك قبلت ليلى عدة دعوات لإلقاء المحاضرات وإجراء المقابلات الصحفية والتلفزيونية دون مشاكل تُذكر .

كان على ليلى أن تتخلى عن منصبها في قيادة الجبهة الشعبية ، فرع سوريا ، بعد مغادرتها دمشق ، لكنها ظلت عضواً في اللجنة المركزية للحزب بعد أن تم انتخابها عام ١٩٨١ ، وأعيد انتخابها عام ١٩٩٣ وعام ٢٠٠٠ . وقد تركت موقعها في قيادة الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية عام ١٩٨٥ بعد أن سحبت الجبهة الشعبية مؤقتاً دعمها لمنظمة التحرير الفلسطينية ، لكنها عادت إلى المجلس الإداري الاتحاد منذ عام ١٩٨٧ . ولا زالت ليلى كذلك أحد ممثلي الجبهة الشعبية في المجلس الوطني الفلسطيني بعد أن تم انتخابها عام ١٩٧٩ ، كما ترأس لجنة الحزب لشؤون اللاجئين وحق العودة ، وبالطبع يستدعي كل ذلك سفرها الدائم وتنقلها بين عمان ودمشق وبلدان أخرى بصورة دورية .

لطالما كانت علاقة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بالفصائل الأخرى داخل منظمة التحرير الفلسطينية علاقة غير مستقرة ، يشوبها الكثير من التوترات ، فقد سحبت الجبهة

ممثليها من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير مرات عدة خلال فترة السبعينات بسبب موضوع التفاوض مع إسرائيل ، وفعلت ذلك ثانية عام ١٩٩١ ، ثم ازداد الخلاف بعد اتفاقية أوسلو ، لكن ليلى تؤكد أن الجبهة الشعبية «لا تزال عضواً في منظمة التحرير ، ولديها ممثلون في لجنتها التنفيذية ، لكنها لا تشارك في السلطة الفلسطينية ، بل في المجلس الوطني الفلسطيني الذي يمثل الفلسطينيين داخل الأراضي المحتلة وفي الشتات ، بينما يقتصر تمثيل السلطة الفلسطينية على فلسطيني الضفة الغربية ، وهذه السلطة هي نتاج اتفاقية أوسلو التي عارضناها منذ البداية» .

كما تنتقد ليلى كذلك التعاون الأمني الذي تنفذه السلطة الوطنية الفلسطينية مع إسرائيل حسب خطة دايتون ، وبموجبه اعتقلت السلطة الفلسطينية عدداً من أعضاء حركة حماس ، بل وقتلت عدداً منهم أيضاً . «وهكذا فإن السلطة الفلسطينية تستخدم قواتها الأمنية لمنع شعبنا من المقاومة ، ولا يقتصر الأمر على حماس وحدها ، وفي المقابل تصول إسرائيل وتجول في المدن الفلسطينية ، فتعتقل من تشاء وتقتل من تشاء ، فلا بد أن تسعى السلطة الفلسطينية إلى دعم من يرغبون في المقاومة لا أن تعتقلهم . ولكن مع الأسف ، لقد بُنيت السلطة الفلسطينية تطبيقاً لرؤية دايتون وليس لخدمة مصلحة الشعب الفلسطيني»[1] .

أضافت ليلى عام ٢٠٠٢ نقداً جديداً للسلطة الوطنية الفلسطينية لأنها اعتقلت الأمين العام للجبهة الشعبية بالإضافة لأربعة أعضاء آخرين من الجبهة عام ٢٠٠٢ ، وسجنتهم في أريحا تحت رقابة قوات أمريكية وبريطانية ، وعندما هاجم الجيش الإسرائيلي أريحا ، نُقل المعتقلون إلى إسرائيل وحُكم عليهم بفترات سجن طويلة ، وما زالوا حتى الآن في زنازين انفرادية .

تأسست السلطة الفلسطينية عام ١٩٩٤ بموجب اتفاقية أوسلو الموقعة بين منظمة التحرير الفلسطينية ، التي كانت تهيمن عليها فتح آنذاك ، وإسرائيل . ولكن بعد مرور سبعة عشر عاماً على تأسيس السلطة الفلسطينية ، لا يزال وضعها مبهماً ، إذ لا تزال مناطق واسعة من الضفة الغربية (مناطق ب ، ج) تخضع للرقابة العسكرية الإسرائيلية ، أما المنطقة (أ) التي من المفترض أنها تحت حكم السلطة الفلسطينية ، فتخضع مدنها وقراها للعديد من الحواجز الأمنية ، ويمكن لإسرائيل التدخل فيها في أي وقت ، وبالإضافة لذلك فمعظم تلك المدن والقرى محاطة بالمستوطنات الإسرائيلية .

كما أدى قطع العلاقات بين فتح وحماس بعد فوز حماس في انتخابات عام ٢٠٠٦ ، إلى تقسيم الأراضي التابعة للسلطة الوطنية الفلسطينية ، إذ ظلّ الطرف المهزوم في الانتخابات يسيطر على الضفة الغربية ، بينما كوّنت حماس حكومة

خاصة بها في غزة .

ظلت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تعارض وجود السلطة الفلسطينية ، بدعوى أن الاعتراف بالسلطة الفلسطينية يعني الاعتراف بحل الدولتين وهو ما تعترض عليه الجبهة الشعبية[2] . كما ترى الجبهة أن الهيكل الحالي للسلطة الفلسطينية ، هيكل غير شرعي ما لم تحدث انتخابات جديدة في المجلس الوطني الفلسطيني .

تبقى الجبهة الشعبية معارضة لاتفاقية أوسلو مع إسرائيل لعدة أسباب ، منها أن الاتفاقية لا تنص على حق العودة لجميع اللاجئين الفلسطينيين ، وأنها تعترف بوجود إسرائيل على أرض فلسطين ، وقد علقت ليلى خالد عام ٢٠٠٦ على مخرجات اتفاقية أوسلو بقولها : «لقد رأينا كيف تم تهميش عرفات بعد الاتفاقية» ، ثم احتجازه ، وقتله في النهاية ، «ومع أنه ضحى بالكثير من أجل توقيع الاتفاقية ، إلا أن الولايات المتحدة أرادت أن تظهر للعالم أن إسرائيل هي من تريد السلام ، وأنها دولة ديموقراطية . غير أننا شهدنا جميعاً في السنوات العشر الأخيرة ، كيف أعادت إسرائيل احتلال بعض المدن والقرى التي انسحبت منها سابقاً ، وكيف تنصلت من تنفيذ عدة بنود في الاتفاقية»[3] . وتؤكد ليلى أن الجبهة الشعبية دعت لإعادة بناء منظمة التحرير الفلسطينية من جديد ، وإجراء انتخابات حرة في السلطة الوطنية الفلسطينية ؛ لإعادة

الاعتبار لمنظمة التحرير الفلسطينية بصفتها ممثلاً لكل الفلسطينيين في كل مكان .

لقد منح موقع ليلى في المجلس الوطني الفلسطيني لها الفرصة الأولى لزيارة فلسطين منذ كانت طفلة صغيرة ، فقد عُقد اجتماع المجلس الوطني عام ١٩٩٦ في مدينة غزة ، وكان ذلك جزءاً من اتفاقية موقعة بين عرفات وشمعون بيريز . ومع ذلك فلم يكن قرار الذهاب إلى غزة أمراً سهلاً ، إذ أعلن الأمين العام للجبهة الشعبية آنذاك ، الدكتور جورج حبش ، أنه لن يذهب إلى فلسطين بأي طريقة ومع أي جهة ، ما لم يتم الاعتراف بحق العودة لجميع اللاجئين الفلسطينيين ، وتقول ليلى : «كان الخيار صعباً جداً بعد أن أعلن الأمين العام موقفه ، ومع ذلك فقد كان هناك آخرون في اللجنة المركزية ممن لهم رأي مختلف ، وكانوا يقولون ، لقد كنا نعبر الحدود اللبنانية والأردنية للقيام بعمليات فدائية داخل فلسطين في السابق ، وهذه بلادنا ، ولا عيب أن نزورها . وهكذا كان الموقف الرسمي للجبهة الشعبية رفض الزيارة ، لكننا أردنا الذهاب بصفتنا أعضاء في المجلس الوطني الفلسطيني ، وخشينا أننا إن ضيعنا الفرصة فإنها قد لا تتاح مرة أخرى» .

اهتمت الصحافة الإسرائيلية والغربية باجتماع المجلس الوطني الذي سينعقد في غزة ، وخاصة بماهية الأشخاص الذين سيحضرون الاجتماع ، ومنهم بالطبع ليلى خالد . وقد

بدأ الصحافيون محاولات الاتصال بليلى قبل ثلاثة أشهر من موعد الزيارة ، فاتصل بها صحفيون من صحيفة يديعوت أحرونوت ، ومن التلفزيون الإسرائيلي ، لكنها كانت ترفض التحدث إليهم من حيث المبدأ ، وعندما ألحّ عليها محرر قسم الشرق الأوسط في جريدة معاريف في الحصول على تعليق ، ردّت عليه قائلة : «أرجو ألا تحاول الاتصال بي ، فأنا لن أتحدث إليك إلا بعد أن تخرج من بلادي» ، وقد ظهر هذا التعليق في صحيفة معاريف بالفعل .

لقد كان اسم ليلى خالد ضمن قائمة تضم ١٥٤ اسماً تمت الموافقة على حضورهم الاجتماع من قبل السلطات الإسرائيلية[4] ، ومع ذلك ، فقد كانت مسألة عبورها الحدود عبر نقاط التفتيش الإسرائيلية مفتوحة لجميع الاحتمالات حتى اللحظة الأخيرة . أعلن المتحدث العسكري الإسرائيلي قبل أيام من سفر ليلى إلى غزة ، أنها لن تعبر الحدود ما لم توقع تعهداً بنبذ الإرهاب ، ودعم عملية السلام . وعندما وصلت ليلى إلى جسر الملك حسين لعبور نهر الأردن والتوجه إلى الضفة الغربية ، أصرّ رجال الاستخبارات على الحدود أن توقع ذلك التعهد ، فرفضت رفضاً باتاً ، وبالطبع مُنعت من الدخول وعادت إلى الأردن حزينة جداً ، وفي حالة شديدة من الإحباط بعد أن تهيأت نفسياً قبل أشهر لهذه الزيارة .

لقد كان منع ليلى من دخول الضفة الغربية خرقاً للاتفاق

الذي وقعه عرفات وبيريز ، والذي ينص على السماح لأعضاء المجلس الوطني الفلسطيني بحضور اجتماعات المجلس بغض النظر عن ماضيهم السياسي . وهكذا تدخل عرفات مرة أخرى لدى الإسرائيليين ليذكرهم ببنود الاتفاقية ، وعادت ليلى بعد ذلك مرة أخرى إلى جسر الملك حسين ، وفي هذه المرة تعرضت للتحقيق من قبل جهاز الاستخبارات الإسرائيلية شين بيت ، وتصف ذلك الموقف بقولها : «أدخلوني إلى غرفة صغيرة جداً حيث جلس رجلان خلف طاولة يحمل أحدهما جهاز كمبيوتر ، بينما ظل الآخر يحدق فيّ بعينيه الصغيرتين ، وكان هناك مجندة تقف في الزاوية» . بدأ التحقيق بسؤال ليلى عن اسمها ، لكنها أخذت تستخدم وسائل الدفاع التي تعلمتها في إثارة توتر المحققين فلم تجب ، وقالت للمحقق إنهم لا بد يعرفون اسمها بما أنهم استدعوها للتحقيق ، وعندما سألها المحقق إن كانت ضد السلام ، أجابت «أي سلام؟ السلام يتحقق عندما لا أراكم هنا ، وعندما أدخل إلى أرضي دون أن أتعرض للتحقيق! ليس لديكم الحق في التحقيق معي» .

«ظل المحقق يناور قائلاً إذاً أنت مع الإرهاب» . فقلت له «لست أنا من بدأ بحمل السلاح ، الاحتلال هو الإرهاب» ، فلم يجب . بالنسبة للمحقق الآخر ، فقد كان ينظر إليّ بنظرات مليئة بالكراهية ، ثم أخذ يسألني : «هل ستحاولين إلغاء مواد الدستور التي تدعو إلى تدمير دولة إسرائيل؟» . وفي الحقيقة لم

يكن هناك مادة في الدستور الفلسطيني تدعو إلى تدمير دولة إسرائيل ، فقد قامت منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤ ولم تكن غزة والضفة الغربية تحت الاحتلال بعد . فالدستور ينص على تحرير فلسطين وهو يمثل الفلسطينيين في الداخل والخارج ، لكنني أجبته بأن تغيير مواد الدستور ليس من شأنه ، بل هو شأن فلسطيني خاص . ثم سألني ، هل لك أقارب في إسرائيل؟ فأجبت : أنت تتحدث عن مناطق عام ١٩٤٨ ، نعم . كل سكان تلك المناطق أقاربي ، ولن تتوقع مني أن أسمي لك ٨٥٠,٠٠٠ شخص! فأجاب : لكن هناك ٩٥٠,٠٠٠ شخص من العرب في إسرائيل ، فقلت له : «نعم ، ولكن ١٠٠,٠٠٠ منهم هم عملاء لكم ولا يمتون لي بصلة قرابة» . عاد المحقق وذكر اسم أحد أبناء عمومتي ممن يعيشون في فلسطين ، وقال «ماذا عن سامر؟» ، فقلت «لقد أخبرتك أنهم جميعاً أقاربي ، فإن أردت أن تعرف أي شيء ، فاسأل الحكومة الإسرائيلية» . أحياناً ، كان المحقق يسأل أسئلة عادية مثل «ما هو أفضل شيء فعلته في حياتك؟» فأجبته «ما هذا السؤال؟ هل أنت صحفي؟ إذا كنت مصراً على سؤالك ، فإن أفضل ما فعلت في حياتي هو حمل السلاح ضدكم» ، فأخذ المحقق الآخر يضحك وهو يسألني عما سأفعله بالسلاح الآن ، لكنني قطعت عليه الطريق بقولي : «لن أخبرك عما يمكنني أن أفعله بالسلاح الآن» .

لم يستغرق التحقيق مع ليلى أكثر من ربع ساعة ، رغم حالة العداء الواضحة بين الطرفين ، بينما استمر التحقيق لساعات وأحياناً لأيام مع أعضاء آخرين في المجلس الوطني ، وتقول ليلى : «لقد كان هدفهم الرئيس إذلالنا ، ومن ثم التعرف إلينا ، لقد أرادوا رؤية أعضاء المجلس الوطني الفلسطيني عن قرب ، لم يكن عبور حاجز الاستخبارات الإسرائيلية نهاية المطاف بالنسبة لليلى ، فبعد عبورها الحاجز الإسرائيلي ، تقدمت منها مجندة إسرائيلية فأخذت تصيح : «ألا تؤمنين بالسلام ليلى؟» ، لكن ليلى لم تجب وأدارت وجهها ، لكن مجموعة أخرى من المستوطنين كانت تنتظرها على الجانب الآخر من الحاجز رافعين لافتات تندد بليلى ، وتسخر من بيريز كذلك ، لكن أحد المسؤولين في السلطة الفلسطينية تقدم منها بعد خروجها من مبنى الاستجواب مباشرة ، طالباً منها أن تصعد إلى سيارته مباشرة ، خوفاً من أن تحاول السلطات الإسرائيلية أخذها في سيارة عسكرية إلى جهة ما ، فصعدت معه دون تردد ، وأخيراً سنحت لها الفرصة لرؤية فلسطين (الضفة الغربية وغزة) بعد غياب طويل .

تصف ليلى اجتماعات المجلس الوطني الذي لم تحضره أنها كانت «عاصفة أحياناً ، حيث قدّم الأعضاء البارزون في المجلس وجهات نظر مختلفة حول المواضيع الوطنية الساخنة ، ومن ثم انقسم بقية الأعضاء إلى لجان متعددة لمناقشة تلك القضايا ،

وعاد الجميع للتصويت فيما بعد» ، لكن ليلى تعترف أن النقاشات الأكثر جدية حدثت خارج قاعات الاجتماع بصورة غير رسمية ، حيث يلتقي أعضاء المجلس الوطني القادمون من جميع أنحاء العالم . فهناك أعضاء يعيشون في الولايات المتحدة وأوروبا وأمريكا اللاتينية والبلدان العربية ، ولذلك فإن تجربة اللقاء في مكان واحد تظل تجربة فريدة من نوعها وتعني الكثير للأعضاء ، وخاصة أولئك الذين قضوا جلّ حياتهم بعيداً عن فلسطين ، فبالنسبة لهم ، مجرد وجودهم في غزة على أرضهم وبين أبناء جلدتهم كان حدثاً عظيماً .

يروي الصحفيون الذين تابعوا اجتماعات أخرى للمجلس الوطني الفلسطيني قصصاً مشابهة كذلك . فيقول أحد مراسلي صحيفة بريطانية عن اجتماع المجلس الوطني الثامن عشر في الجزائر عام ١٩٨٧ : «لا أعرف كيف أصف هذا الحدث الغريب ، فهو يبدو وكأنه مؤتمر حزبي يجمع رفاقاً قدامى في عرس عائلي!» ، وقد علّق المراسل كذلك على ليلى خالد التي كانت حاضرة في الاجتماع بقوله «لقد أصبحت ليلى أكثر هدوءاً ، وزاد وزنها قليلاً عما كانت عليه عندما كانت تخطف الطائرات» . لكن المراسل لم يعلق على هيئة أي من زملائها الآخرين الحاضرين للاجتماع[5] .

حاول أعضاء الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، البقاء لعدة أيام أخرى بعد انتهاء جلسات المجلس الوطني الفلسطيني ،

لكن طلبهم رُفض رفضاً قاطعاً ، وكان الجميع يعلم مغبة البقاء دون تصريح بذلك ، فقد كان هناك العشرات من الفلسطينيين العالقين في معبر إيريز (المعبر الذي يصل غزة بإسرائيل) ومنهم عائلة فلسطينية قدمت خصيصاً من كندا لزيارة غزة ، لكن حاجز المعبر أغلق بعد أن غادروا غزة ولم يستطيعوا النفاذ إلى إسرائيل ليعودوا إلى كندا ، وظلت العائلة أسبوعاً كاملاً على المعبر . وقد كانت ليلى بدورها تنتظر أن يتم التصريح لزوجها وأبنائها بالقدوم إلى غزة لبضعة أيام ، وهو ما تنص عليه اتفاقية عرفات وبيريز في منح أعضاء المجلس الوطني الحق في اصطحاب عائلاتهم إلى غزة في أثناء فترة الاجتماع ، لكن عائلة ليلى لم تحصل على التصريح المطلوب ، فقررت العودة إلى عمّان .

انتهجت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين نهجاً جديداً في علاقاتها السياسية مع رفاقها وخصومها في حركة فتح ، وكذلك مع الحركات الإسلامية الصاعدة وخاصة حركة حماس ، وذلك منذ الانتفاضة الأولى . فقد وجدت الجبهة أرضية مشتركة بينها وبين حركة حماس في رفض اتفاقيات أوسلو ، ومواجهة الاحتلال الإسرائيلي ، وحاولت عدة مرات لعب دور الوسيط بين حركتي فتح وحماس لحلّ الخلافات القائمة بينهما ، والتي نتج عنها موجات من القتل والاعتقال للأعضاء من كلا الطرفين ، وتؤكد ليلى أن الجبهة الشعبية

تسعى بكل جهدها «لجمع فتح وحماس على طاولة الحوار ليحلا خلافاتهما ، فإن ما يحدث من خطف وقتل وتعذيب بين الجهتين مُدمر لقضية شعبنا وخاصة ممن يعيشون في غزة» . وأضافت في تصريح لها عام ٢٠٠٩ : «تدعو الجبهة الشعبية كلا الفصيلين لحل كل خلافاتهما بالحوار ، لأن ما يحدث بينهما يضر بمصالح شعبنا ويضعف موقفه في مواجهة إسرائيل ، كما يؤثر على حركة التضامن العالمي مع الشعب الفلسطيني ، ونحن نعتقد أن حماس لم تحسن استخدام شرعيتها التي منحتها لها الانتخابات ، ولا يجب أن يتم حلّ خلافها مع فتح باستخدام السلاح»[6] . كما وجهت ليلى الانتقاد ذاته لحركة فتح عام ٢٠١١ .

ارتفعت عام ٢٠١١ أصوات الشباب الفلسطيني للمطالبة بإنهاء حالة الصراع والانقسام بين الفصيلين ، فتم تنظيم حملة من المظاهرات والمسيرات ، انطلقت في ١٥ آذار/ مارس عام ٢٠١١ في الضفة الغربية وغزة ، طالبت جميعها بالعودة للوحدة الوطنية ونبذ الخلاف ، وقد أتت تلك المسيرات أكلها ، إذ اجتمع الطرفان في القاهرة ووقعوا على وثيقة للوفاق الوطني وإنهاء الانقسام في شهر مايو عام ٢٠١١ ، لكن محمود عباس أصرّ على بقاء رئيس وزرائه غير المحبوب سلام فياض على رأس الحكومة الفلسطينية[7] . وفي نوفمبر عام ٢٠١١ صرّحت ليلى خالد مرة أخرى أن الجبهة الشعبية «ما زالت تصر على إنهاء

الانقسام بين الفصائل الفلسطينية ، وتدعو إلى لقاء بين خالد مشعل وأبو مازن لتجاوز نقاط الخلاف ، بالإضافة إلى ضرورة إجراء حوار وطني بين جميع الفصائل الفلسطينية» .

لا تخفي ليلى خالد شكوكها في مصداقية حركة حماس رغم الأرضية المشتركة في رفض التفاوض مع إسرائيل التي تجمعها بالجبهة الشعبية وتؤكد أن «حركة حماس كانت جزءاً من الإخوان المسلمين قبل أن تصبح حركة حماس المعروفة الآن ، ولطالما انتقد الإخوان اليسار الفلسطيني ووقفوا ضده» ، وترى ليلى أن تصاعد الحركات الإسلامية مقابل تراجع الجبهة الشعبية واليسار الفلسطيني عموماً له عدة أسباب . وقد يكون أول هذه الأسباب فشل اتفاقية أوسلو ، وظهور الفساد في السلطة الوطنية الفلسطينية ، مما دفع بالفلسطينيين إلى البحث عن ممثلين جدد يحملون عبئ القضية الفلسطينية ، وهناك أيضاً تقلص عدد أعضاء الجبهة الشعبية ، ففي أثناء الانتفاضة الأولى ، كانت أجهزة الأمن الإسرائيلية تسلط كل جهودها للقضاء على اليسار الفلسطيني المعروف تاريخياً بحمل السلاح ومواجهة الاحتلال ، أما الجماعات الإسلامية فلم تكن تشكل خطراً يذكر حسب اعتقاد المؤسسة الأمنية الإسرائيلية ، ولذلك كان هناك حوالي ٥٠٠ معتقل من نشطاء الجبهة الشعبية في السجون الإسرائيلية في فترة التسعينات ، وتم اغتيال الأمين العام للجبهة آنذاك أبو علي مصطفى . وشعر الفلسطينيون أن

الجناح اليميني وتمثله حركة فتح ، فاسد ولا يمكنه تقديم أية حلول ، وأن اليسار لا يمكن أن يحل محله بوضعه الحالي ، فتوجهوا إلى القوة الجديدة المتمثلة في الحركات الإسلامية التي كانت فاعلة جداً اجتماعياً قبل أن تظهر كحركة سياسية ، فقد أنشأت الجامعات والمدارس والمستشفيات والمراكز الصحية ، وساعدت الفقراء ، ولذلك فقد ساندهم الناس عندما أعلنوا عن أنفسهم . ثم بدأت تلك الحركات في تشجيع العمليات الانتحارية داخل إسرائيل ، فرأى الفلسطينيون ذلك طريقاً للمقاومة واستمروا في دعم الحركات الإسلامية أو حركة حماس على وجه التحديد .

يبقى النقد الذاتي تقليداً متبعاً لدى أجنحة اليسار ، وفي هذا الإطار تلوم ليلى تنظيمها على تقصيره بل وفشله في إقناع الناس ببرنامجه ، لكنها لا تنسى أن تضع المشكلة ضمن سياقها الجيوسياسي ، فمن جهة كان تدهور الكتلة السوفييتية سبباً حيوياً في نقص الدعم المادي والعسكري للأحزاب اليسارية وبالتالي انكماشها ، ومن جهة أخرى صعد تيار الإسلام السياسي بقوة في الشرق الأوسط ، وخاصة بعد نجاح الثورة الإيرانية كمثال واضح على إمكانية طرد الأنظمة الموالية للولايات المتحدة . وتوضح زميلة ليلى في المكتب السياسي للجبهة السيدة خالدة جرار هذه النقطة كما يلي :

«لا يستطيع أي تنظيم سياسي يساري أن يتقدم بمفرده ،

ولذلك فإن اليسار عموماً يواجه الآن الكثير من الصعوبات ، فلا يوجد لدينا السلطة ، ولا الدعم المادي ، ولا الدعم الدولي ، وحتى في العالم العربي ، أخذت التيارات الإسلامية حصة الأسد . ونحن نواجه مشاكل داخلية كثيرة ، منها المشاكل المادية ، فنحن تنظيم فقير ، وتنفيذ البرامج الاجتماعية على الأرض يحتاج إلى الكثير من الأموال ، فكيف يمكننا أن ننافس حماس التي تمتلك بنية تحتية ضخمة ، والكثير من الموارد؟ لا أحد يريد النظريات ، بل يريد الناس أن يروا أفعالاً حقيقية وبرامج تنفذ على أرض الواقع»[8] .

ومع ذلك ، تعتقد ليلى خالد أن حماس قد تواجه المصير ذاته الذي تواجهه الآن الفصائل اليسارية وخاصة الجبهة الشعبية ، وترى أن الفلسطينيين سرعان ما سيكتشفون أن حماس ليست البديل المناسب لفتح ، فكلاهما يعاني من تفشي الفساد داخل كوادرهما . بالإضافة إلى ذلك ، فقد فقدت الحركة عدداً من قادتها بسبب حملات الاغتيال التي تقوم بها إسرائيل بين الحين والآخر ، مما يضعف الحركة في النهاية ، كما حدث مع الجبهة الشعبية بعد اغتيال أمينها العام أبو علي مصطفى ، وسجن أمينها الحالي أحمد سعدات .

يرتبط اسم حماس في الغرب بالعمليات الانتحارية ، لكن موقف ليلى خالد من هذه العمليات يظل غامضاً بعض الشيء ، فهي تقول : «لقد أخبرنا قادة حماس أن هذه العمليات

يجب أن تبقى تكتيكاً مؤقتاً فقط ، ولا يجوز أن تتحول إلى خط استراتيجي للحركة ، لأن هذا النوع من الكفاح يؤسس لثقافة الموت ونحن نريد ثقافة الحياة ولذلك نكافح لاستعادة وطننا» . وتعتقد ليلى أن تلك العمليات تعطي العالم الفرصة لإلصاق صفة الإرهابيين بالفلسطينيين ، وتسيء إلى القضية الأم – ومن المفارقات الواضحة أن ليلى ذاتها ربما تكون قد ساهمت في إلصاق تلك الصفة بالفلسطينيين في الماضي ، عندما كانت تقوم بعمليات خطف الطائرات . لم تقتصر العمليات الانتحارية على حركة حماس وحدها ، فقد أعلنت كتيبة أبو علي مصطفى من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مسؤوليتها عن تنفيذ عدة عمليات انتحارية عام ٢٠٠٢ وعام ٢٠٠٣ ، بما في ذلك عملية انتحارية في سوق في نتانيا في شهر مايو عام ٢٠٠٢ ، وعمليات في مستوطنتي كارني شومرون وأرييل في شهري فبراير ومارس من عام ٢٠٠٢[9] .

وتبرر ليلى تلك العمليات بأنها عمليات عسكرية محدودة قامت بها الجبهة في وجه عملية الدرع الواقي ، التي قامت بها القوات الإسرائيلية في إطار القضاء على الانتفاضة الفلسطينية الثانية ، والتي أعادت فيها إسرائيل احتلال الضفة الغربية وغزة عام ٢٠٠٢ . كما تعترض ليلى على العمليات الانتحارية لأنها تعتقد أن تلك العمليات تنزع صفة الإنسانية عن الكفاح الفلسطيني «نحن لا نريد لهذا الجيل أن يعتقد أن الكفاح يكون

بضغطة زر مثل ألعاب الانترنت ، بل هو جزء من حياتهم اليومية ، ولذلك فنحن لا نبرر هذه العمليات ، ولكننا لا نستطيع شجبها أيضاً ، فمن يقومون بهذه العمليات هم أبناء شعبنا ، ولا يمكننا أن ندين من يضحون بحياتهم في سبيل قضيتهم» .

أشارت ليلى في مقابلة أخرى عام ٢٠١٠ إلى حالة اليأس المسيطرة على الشباب الفلسطيني «فالشباب الفلسطيني يحلم مثل غيره من شباب العالم بمستقبل أفضل ، لكن إسرائيل بمواصلة احتلالها لبلادهم تضيق المسافة بين الموت والحياة بالنسبة لهم ، لدرجة أنهم يذهبون ليفجروا أنفسهم في عمليات انتحارية غير عابئين بالموت» . وتدعي ليلى خالد كذلك أن تدخل الفصائل اليسارية قد حدّ من عدد العمليات الانتحارية التي يقوم بها أعضاء من حماس والحركات الجهادية «لقد توقفت هذه العمليات الآن ، وأعتقد أن الجماعات الإسلامية قد لاحظت أن تلك العمليات لا تصب في مصلحة الكفاح الفلسطيني»[10] .

ومع ذلك فإن ليلى ، مثلها مثل عدد كبير من الفلسطينيين والمناصرين للقضية الفلسطينية ، تعترض على تركيز الإعلام الغربي على العمليات الانتحارية ، ومبالغته في إبراز عدد ضحايا هذه العمليات من المدنيين الإسرائيليين . ويؤكد كلّ من جريج فيلو ومايك بيري في بحثهما حول تأثير الإعلام

الغـربي على الرأي العـام في مـوضـوع ضـحـايا العـمليـات الانتحارية ، أن وجهة النظر الغربية تتأثر بشدة بما تعرضه وسائل الإعـلام ، فقـد كـانت أغلبيـة عينة المشاهدين في برنامج فـيلو وبيري تعتقد أن عدد القتلى الإسرائيليين الذين ذهبوا ضحية الصـراع العـربي الإسـرائيلي ، يفـوق عـدد الفلسطينيين ، كـمـا اعـتـقـد عدد منهـم أن عدد القـتلى في الطرفين مـتساو . وأظهـر تحليل النشـرات الإخـبـارية التي تورد أخـبـار الصـراع العـربي- الإسـرائيلي ، أن هناك توجـهـاً لغـوياً نحـو وصف المقـاومين الفلسطينيين بالمهاجمين أو «القتلة» ، بينما توصف العـمليات العـسكرية الإسـرائيليـة بأنهـا خلفت عـدداً من القـتلى ، كـمـا أتاحت وسـائل الإعـلام وقـتـاً أطول لعـرض الضـحـايا من الإسرائيليين ، وقدمتهم بطريقة مفصلة ، وسردت الكثير عن حياتهم ، ولم يكونوا مجرد أرقام تورد في نشرات الأخبار[11] .

لكن جـمـعـيـة حقـوق الإنسـان الإسـرائيليـة «بيت سـيليم» ترسم في إحـصـائيـاتها صـورة مـغـايرة تماماً لتلك التي قـدمـتـهـا وسـائل الإعـلام الغـربيـة ، وتُظهـر تلك الإحـصـائيـات أن عـدد ضحايا العدوان الإسرائيلي من الفلسطينيين في الفترة ما بين عامي ٢٠٠٠ (بداية الانتفاضة الثانية) و٢٠٠٨ قد فاق ٤,٨٠٠ شـخص في الأراضي الفلسطينيـة المحـتلة ، دون الأخـذ بعين الاعـتـبـار بالطبع أعـداد القـتلى والجرحى أثناء عـمليـة الرصـاص المصـبـوب التي قـام بهـا الجـيش الإسـرائيلي في الفـتـرة مـا بين

ديسمبر ٢٠٠٨ ويناير ٢٠٠٩ ، بينما لم يتجاوز عدد القتلى الإسرائيليين ٤٨٠ شخصاً ، وقد كان من بين الضحايا الفلسطينيين ٩٥٢ قاصراً رغم تأكيدات إسرائيل المتواصلة أنها تستهدف دائماً المسلحين والإرهابيين فقط[12] .

لا ترى ليلى خالد (خلافاً لبعض الفلسطينيين) أن اشتراك النساء في العمليات الانتحارية يظهر تقدم موقع المرأة في المجتمع الفلسطيني[13] ، مع أنها كانت تؤكد دائماً قدرة المرأة على حمل السلاح جنباً إلى جنب مع الرجل في وجه الاحتلال . وقد صرحت في مقابلة عام ٢٠٠٢ «نحن في الجبهة الشعبية نؤمن بالمساواة بين النساء والرجال في كل شيء ، وقد قبلني رفاقي منذ اللحظة الأولى للعمل معهم في الكفاح المشترك ، وكنت أحظى باحترامهم على الدوام ، لكنني اليوم أرى تصاعداً في المد الديني في المجتمع ، وعندما أرى الزعماء الدينيين يؤكدون أن النساء اللواتي يقمن بعمليات انتحارية مساويات للرجال ، فأنا أعتقد أن هناك مشكلة ما في هذا الطرح ، فالجميع متساوون في الموت الرجال والنساء والعرب واليهود والأغنياء والفقراء ، كلهم متساوون ، ولكن ما أحب أن أراه حقيقة هو مساواة النساء والرجال في الحياة وليس في الموت»[14] .

وفي الإطار ذاته ، أعربت ليلى عن مخاوفها من تأثير التيار الديني المتصاعد على موقع المرأة في الضفة الغربية وغزة ،

وتشاطرها تلك المخاوف عدد من الحركات النسائية الفلسطينية ، ويؤكد الجميع تراجع مكاسب المرأة منذ التسعينات على مستوى الاستقلالية الفردية والحقوق المدنية ، وترى الحركات النسائية أن فشل التنظيمات الفلسطينية الأساسية في الوقوف في وجه حركة حماس ، لحماية حقوق النساء في أواخر الثمانينات ، عندما فرضت حركة حماس الحجاب بالقوة في قطاع غزة ، كان إشارة واضحة إلى أن قادة الأحزاب من الرجال مستعدون للتضحية بحقوق الناشطات الفلسطينيات في سبيل المحافظة على حلفائهم[15] .

ظهرت في غزة عام ١٩٨٨ عدة شعارات تنادي باحتشام النساء وإظهار احترامهن لشهداء الانتفاضة بارتداء الحجاب ، وقد وقفت بعض الناشطات في وجه تلك الشعارات ، مثل اعتماد مهنا من لجان المرأة الفلسطينية التابعة للجبهة الشعبية ، وكانت تقول : «لن أرتدي الحجاب حتى لو أصبحت شهيدة الحجاب» ، ومع ذلك فشلت قيادات الأحزاب اليسارية في دعم كوادرها من النساء في هذا الموضوع . كما رأت إيلين كُتاب من لجان المرأة ، أن فرض الحجاب بالقوة سيخرج المرأة من الحياة العامة ، لكن ذلك على ما يبدو لم يكن مصدر قلق للقيادات الحزبية ، التي كانت تخشى أكثر أن تؤدي المواجهات المتكررة حول موضوع الحجاب إلى انقسام في المجتمع الفلسطيني في خضم الانتفاضة الأولى[16] .

أشارت السيدة مهنا في كلمة ألقتها في معهد سواس SOAS في لندن عام ٢٠١٠ ، إلى «فشل الأحزاب اليسارية في تفعيل أيديولوجيتها داخل المجتمع ؛ لأنها أقامت حاجزاً وهمياً بين الكفاح الوطني والإيديولوجي من جهة ، والتغيير الثقافي والمجتمعي من جهة ثانية . لقد كانوا يخافون إثارة الرأي العام ضدهم إذا ما عارضوا بصورة علنية ، الأنظمة التقليدية القائمة على السلطة الأبوية أو على التعاليم الإسلامية»[17] .

أما مريم أبو دقة ، رفيقة ليلى خالد في المكتب السياسي للجبهة الشعبية ، فتقول لصحيفة روسية أثناء لقاء معها في غزة ، أنها في الثامنة والخمسين من عمرها ولا يزال البعض يطالبها بارتداء الحجاب :

«ها أنا ذا ، المرأة الوحيدة غير المحجبة ، والمرأة الوحيدة المدخنة ، لقد طلب مني أحد إخوتي أن أغطي شعري بوشاح أحمر يرمز للجبهة الشعبية ، لكنني رفضت وقلت له إنني غادرت هذا المنزل وأنا ابنة عائلة أبو دقة ، لكنني عدت إليه ابنة فلسطين الوفية . لو أنني كنت محجبة لافتخر بي الملالي ، لكنهن الآن يخجلون من وجودي ، والآن عندما تتصرف أي امرأة بشجاعة في غزة يعلم الجميع أنها تنتمي للجبهة الشعبية ، وأنا على استعداد دائماً لحماية هؤلاء النساء ومساعدتهن»[18] .

لم يتوقف الأمر على غزة ، فقد كانت هناك حوادث أخرى

في الضفة الغربية ، وإن كانت بصورة أقل . فقد ظهر عدد من الرجال في الخليل يهددون النساء غير المحجبات في الشارع ، وعندما قبض عليهم نشطاء الجبهة الشعبية ، تبين أنهم من عملاء إسرائيل المحليين[19] .

لا يوجد في حكومة غزة بقيادة حركة حماس غير وزيرة واحدة هي مريم صالح وزيرة شؤون المرأة ، لكن خالد حروب يؤكد أن هناك عدداً كبيراً من الناشطات في حركة حماس ، وخاصة في الجامعات ، لكن عملهن ينصب بالأساس في مجالات العمل الخيري والتعليم «أي ضمن المجالات التقليدية للمرأة» ، ويؤكد حروب أن النشاط النسائي يتجلى في أوضح صوره في تحريك القاعدة الانتخابية لحماس ، لكن في غير ذلك «تكاد المرأة أن تختفي تماماً من العمل السياسي في حركة حماس ، مقارنة بأحزاب أخرى في الحركة الوطنية الفلسطينية ، حيث لعبت النساء أدواراً مختلفة ، وتركن بصمات واضحة في العمل العام وعلى مستوى القيادة أحياناً»[20] .

تلخص ليلى خالد دور النساء في الحركات الإسلامية من وجهة نظرها بقولها : «أعتقد أن الحركات الإسلامية (الجهاد الإسلامي وحماس) لديها وجهة نظر خاصة ، فهي لا تؤمن حقاً بالمساواة بين الرجال والنساء ، ومع أن البعض يؤكد أن الإسلام منح المرأة حقوقها كاملة ، إلا أن تنفيذ ذلك على

الأرض لا يبدو عادلاً . ونجد في القواعد الداخلية لحركة حماس وصفاً لدور المرأة في الحركة والمجتمع يقصرها على تربية الأجيال تربية صالحة . وفي الانتخابات التي جرت في غزة رشحت الحركة سبع نساء ، لكن ذلك كان تنفيذاً لقانون الانتخاب الفلسطيني ، الذي ينص على أن يكون الاسم الثالث في أي قائمة انتخابية اسم امرأة ، وقد فازت سبع نساء في قائمة حماس للمجلس التشريعي سنة ٢٠٠٦ .

الفصل السابع
مستقبل ليلى خالد، ومستقبل فلسطين

«أتقاعد؟ كيف؟ سأتقاعد فقط عندما أعود إلى حيفا» . هذا ما قالته ليلى خالد عام ٢٠٠٨ . وقد حددت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عام ٢٠٠٠ سناً لتقاعد كوادرها . فأصبح تقاعد النساء عند سن ٥٥ وتقاعد الرجال عند سن ٦٥ ، لكن ليلى ما زالت مصرة أنها لا تستطيع أن تتقاعد عن الكفاح ، وتضيف إنها قد لا تشغل المراكز ذاتها ، وربما لن تتمكن من أداء المهام التي تحتاج إلى طاقات جسدية كبيرة بحكم تقدمها في السن ، لكنها لا تزال تملك إرادة صلبة تحثها على مزيد من العطاء .

«ولذلك ، لا أعتقد أنني قد أتقاعد يوماً ، لقد فكرت في الأمر سابقاً ، وخاصة مع تزايد المصاعب في العمل السياسي ، ولكنني لم أستطع ، لا يمكنني أن أتوقف عن العمل السياسي الآن ، ولكن يرجع الأمر بالطبع إلى المؤتمر العام ، ولا أدري إن كانوا سينتخبونني مجدداً أم لا ، لكن بالنسبة لي ، سأمضي

في الطريق ذاته ما دمت على قيد الحياة» ، تقول ليلى خالد ضاحكة وهي تحمل سيجارتها التي لا تفارقها طوال النهار . وتؤكد قول ليلى صديقتها المقربة ليندا كلير ، التي بدأت معرفتها بها في الثمانينات . «إنها ملتزمة جداً ، ومرتبطة كثيراً بعملها ، ولا يمكنني أن أتصورها بعيداً عن العمل السياسي ، لكنني أتمنى فقط لو أنها تقلع عن التدخين» .

لا يبدو أن تقدم ليلى في العمر ، فهي في منتصف الستينات ، ولا إدمانها على النيكوتين ، يمنعانها من التنقل بين عمان ودمشق للقيام ، بدورها السياسي في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، فهي ترفض التحجر التنظيمي والإيديولوجي الذي أصاب معظم التنظيمات اليسارية بعد سقوط الاتحاد السوفييتي ، وتبنت في المقابل سياسة تفعيل المجتمع المدني على المستويين الفلسطيني والدولي كقوة ضاغطة ، إلى جانب سياسة حزبها في الكفاح المسلح . وتؤكد ليلى دائماً الدور الإيجابي للمجموعات الدولية الناشطة مثل حركة التضامن العالمي ، في التعريف بالقضية الفلسطينية وفضح الممارسات الإسرائيلية العدوانية على المستوى الدولي .

تقول ليلى : «يساهم الناشطون المتضامنون مع قضيتنا في رفع درجة الوعي لدى شبابنا الفلسطيني وليس فقط التعريف بكفاحنا دولياً ، فعندما قُتلت راشيل كوري على يد الإسرائيليين على أرض فلسطين ، كان ذلك رسالة قوية لشبابنا

في الداخل وللعالم أجمع تؤكد أن الفلسطينيين ليسوا وحدهم ، وأن هناك من يهتم لقضيتهم ومستعد للوقوف في وجه العنف الإسرائيلي . كان يأتي إلينا في السابق متضامنون أجانب لكننا اكتشفنا بعد مدة أنهم جواسيس لإسرائيل ، ولذلك لم يكن شعبنا يثق بالزوار الأجانب في الأرض المحتلة . لكن تلك النظرة تغيرت بجهود حركة التضامن العالمي ، التي زرعت الأمل في تحقيق ضغوطات على الحكومات الغربية من خلال المجتمع المدني» .

لا تزال ليلى ناشطة في المؤتمرات الدولية ، وقد كانت مشاركاتها مقصورة في السابق على مؤتمرات الأمم المتحدة ، والمؤتمرات التي ينظمها النشطاء الاشتراكيون برعاية الاتحاد السوفييتي ، لكنها اليوم تشارك بانتظام في المنتدى العالمي الاجتماعي ، والمؤتمرات الخاصة بالمجتمع المدني ، التي تفرعت عن اللقاء الأول للمنتدى العالمي الاجتماعي الذي عقد في بورتو اليغر Porto Alegre في البرازيل عام ٢٠٠١ . وتؤكد ليلى أن هذه اللقاءات مهمة جداً لأنها تتيح فرصة اللقاء للنشطاء من جميع أنحاء العالم ، حيث يمكنهم التواصل والتضامن في شبكات واسعة»[1] .

وقد تحدثت ليلى في مؤتمرات المنتدى العالمي الاجتماعي في الهند وفي البرازيل وفي كينيا ، وشاركت في ورش عمل مختلفة حول عدة مواضيع ، ابتداءً من السياسة الأمريكية في

الشرق الأوسط حتى حقوق الطفل ، بالإضافة طبعاً لأوضاع الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة وفي بلدان الشتات . ولم تخل تلك اللقاءات من بعض الخلافات ونقاط الجدل بالطبع كما حدث في كينيا عام ٢٠٠٧ ، إذ خلص المؤتمر في توصياته الأخيرة إلى دعم الكفاح الفلسطيني ، بالتوازي مع دعم الجماعات الإسرائيلية المناهضة للاحتلال ، حتى وإن لم تكن تلك الجماعات تؤمن بحق العودة لجميع الفلسطينيين ، أو بتقاسم مدينة القدس .

تعلمت ليلى من تجربة لقائها مع المحامية الإسرائيلية فاليسا لانغر في الثمانينات ألا تلغي احتمالية التعاون مع بعض الإسرائيليين الناشطين في مجال الدفاع عن الفلسطينيين ، أو ممن ينظمون الاحتجاجات ضد وجود الجدار العازل في الضفة الغربية ، غير أنها ما زالت متشددة في موضوع العمل مع حركة السلام الإسرائيلية ، وتقول «إن التعامل مع من لا يؤمنون بعدالة قضيتي ، وليسوا حقيقة ضد الاحتلال ، هو مجرد مضيعة للوقت ، وقد يؤدي إلى خلق صورة وهمية حول التعايش بسلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين . وقد اكتشفنا أن تلك الحركات مثل حركة السلام الآن لا تتناقش على الإطلاق في موضوعين أساسيين بالنسبة للفلسطينيين وهما موضوع القدس ، وموضوع اللاجئين ، فهم يعتقدون أن اللاجئين الفلسطينيين ، في الدول العربية يجب أن يظلوا فيها ،

وليس لهم حاجة في العودة إلى مدنهم وقراهم الأصلية في فلسطين ، ولذلك فقد نستفيد مرحلياً من التعاون مع مثل هذه الحركات ، ولكننا لا يمكن أن نبني علاقة استراتيجية متينة معهم ، إلا إذا غيروا قناعاتهم ، فهناك فرق كبير بين دعم حقوق الشعب الفلسطيني ومطالبه المشروعة ، ومساعدة الفلسطينيين على أسس إنسانية بحتة» .

وقد تفجرت بعض الخلافات في مؤتمرات أخرى حول فرض عقوبات دولية على إسرائيل ، ولم تكن تلك الخلافات حول شرعية فرض العقوبات بالضرورة ، بل كان بعض تلك الخلافات يتمحور حول الآثار المترتبة على العقوبات ومدى تأثيرها على الشعوب وليس على الحكومات فقط ، وبما أن ليلى ورفاقها في الجبهة الشعبية ما زالوا يرون أن الدول والحكومات هي المتحكم الأول في السلطة وليس الشعوب ، فلا غرو إذاً أن تظهر بعض الخلافات مع الناشطين الذين يطالبون باستراتيجيات موجهة أكثر نحو المجتمعات وليس الحكومات ، مع أن ليلى قد اشتركت سابقاً في حملة مشابهة ضد سياسات الفصل العنصري في جنوب أفريقيا[2] . وفي السياق ذاته ، تؤكد ليلى أن التغيير يجب أن يأتي من الدول والحكومات ، لكن من الضروري أن تتغير عقلية الشعوب كذلك ليتمكن الناس العاديون من فهم وجهة نظرنا ومساندتنا في رفض الاحتلال .

ترى ليلى نفسها حتى الآن جزءاً لا يتجزأ من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وترفض أحياناً تسليط الضوء عليها كشخص كما حدث عندما دُعيت بصفتها الشخصية إلى أحد المؤتمرات في سيرلانكا «لقد دُعيت إلى المنتدى العالمي الاجتماعي في سيرلانكا ، لكنني لم أتمكن من الذهاب ، فاعتذرت للمنظمين وأخبرتهم أنني أرشح شخصاً آخر من حزبي ، ولكنهم رفضوا وأصروا على توجيه الدعوة لي شخصياً . ربما كانوا يرون أن لبعض الأشخاص تأثيراً معيناً» .

تحولت ليلى خالد بفضل دورها البارز إلى ما يشبه السفيرة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، فزارت رئيس نيكاراغوا دانييل اورتيغا في نوفمبر عام ٢٠١٠[3] ، وتحدثت ضمن مسيرة لتجمع العمل والديموقراطية والحرية في مدينة مرسين جنوب تركيا في يونيو عام ٢٠١١[4] . كما ذهبت إلى السويد للمشاركة في ندوة عقب إحدى المسيرات ، وتم إبلاغ الشرطة عن وجودها من قبل المناهضين للمسيرة . غير أن الشرطة لم تتخذ أي إجراء بحقها[5] . وقد ظهر اسم ليلى خالد كذلك في الرسالة التضامنية التي بعثت بها الجبهة الشعبية إلى عمال التعدين المضربين في إيطاليا في فبراير عام ٢٠١١ ، وجاء في الرسالة ما يلي : «آن الأوان للتغيير ، وآن الأوان للثورة على كل أنواع القمع والفساد ، لا بد من تأسيس نظام جديد يقوم على العدالة الاجتماعية وحرية التعبير»[6] . وظهرت مؤخراً كشاهدة في

محكمة راسل حول فلسطين(*) في جنوب إفريقيا .

عادت الأفكار اليسارية بما تحمله من بذور التغيير الاجتماعي لتتصدر المشهد من جديد ، مع ظهور الثورات العربية الجديدة في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا التي بدأت أواخر عام ٢٠١٠ واستمرت خلال عام ٢٠١١ . وخلافاً للتوقعات الغربية التي رأت أن التغيير سيقود إلى ظهور حكومات إسلامية ، كانت التظاهرات الضخمة في الشوارع تنادي بإسقاط الأنظمة القمعية المدعومة غالباً من الغرب ، وتشدد على تنفيذ إصلاحات اقتصادية واجتماعية ، لكنها لم تطالب مطلقاً بحكم شرعي أو بعودة الخلافة الإسلامية[7] .

تسربت بعض الوثائق في يناير عام ٢٠١١ إلى وسائل الإعلام حول بنود المفاوضات الفلسطينية-الإسرائيلية ، وكانت تشير إلى تفريط المفاوضين من فتح في عدد من حقوق الشعب الفلسطيني دون موافقة المجتمع الفلسطيني[8] ، ومع ذلك لم يصل زخم الربيع العربي إلى الشارع الفلسطيني ، ولم تكن

(*) محكمة راسل حول فلسطين : هي محكمة دولية شعبية أنشئت استجابة لمطالب المجتمع المدني لإعلام وتعبئة الرأي العام والضغط على صناع القرار لدعم حقوق الشعب الفلسطيني . وتستمد المحكمة اسمها من اسم الفيلسوف برتراند راسل . (المترجمة) .

هناك مسيرات ضخمة ضد السلطة الفلسطينية . لكن الفلسطينيين تحركوا بقوة لوقف الشقاق بين حركتي فتح وحماس ، ونظموا احتجاجات واسعة ضد سياسة الاستيطان الإسرائيلية في مناطق الضفة الغربية ، بالإضافة لتوسيع الاحتجاجات ضد سياسة الفصل العنصري المتمثلة في بناء الجدار العازل ، وتقول إحدى المحتجات في قرية النبي صالح : «مع الثورات العربية بدأنا نشعر بالدعم والتضامن»[9] . وفي السياق ذاته ، تؤكد ليلى خالد أن الفلسطينيين استمدوا قوة أكبر من الثورات العربية . لم يغب اسم ليلى خالد عن الأحداث أثناء المظاهرات التي نظمتها حركة ١٥ آذار للمناداة بالوحدة الوطنية وإنهاء الخلاف بين حركتي فتح وحماس . وقد علق الصحفي الفلسطيني-الأمريكي أحمد مور في مقالة ظهرت في الأسبوع الفلسطيني الصادرة باللغة الإنجليزية من القدس الشرقية ، على تمسك ليلى خالد برفضها لاتفاقيات أوسلو ، وللسلطة الفلسطينية التي تمخضت عنها : «ينظر الشباب الفلسطيني الآن إلى تركة ليلى خالد وتاريخها النضالي الطويل بالكثير من التبجيل والاحترام ، وخاصة بعد ما ظهر من فساد السلطة الفلسطينية في الضفة الغربية ، ويظل تاريخها الثوري مصدر إلهام للناشطين الشباب داخل فلسطين وفي الشتات»[10] .

تعلق ليلى على الثورات التي بدأت في العالم العربي

بقولها «إن نتائج الثورات العربية في مصر وتونس لم تظهر بعد ، ففي تونس فاز الإسلاميون بالحكم نتيجة لحسن تنظيمهم وتشرذم التيارات اليسارية . وقد تقبلت الولايات المتحدة سقوط بن علي ورجلها مبارك لتتمكن من احتواء الثورات ، ومع أنني أؤمن بالديموقراطية وأقبل بنتائج الانتخابات التي ستجري في الدول التي حصلت فيها الثورات ، إلا أنني أعتقد أن الولايات المتحدة والغرب عموماً سيدعم تيارات الإسلام المعتدل في تونس ومصر ، وبالنسبة لمصر تحديداً ، فقد كانت دائماً حجر الارتكاز في العالم العربي منذ أيام عبدالناصر ، ولذلك يسعى الغرب إلى تقوية حركة الإسلام السياسي المعتدل ؛ لتوجيه عداء العالم العربي من إسرائيل إلى إيران رمز الإسلام الشيعي في مواجهة الإسلام السياسي السني» .

كما ربطت ليلى خالد في تصريحاتها الأخيرة بين حركات التحرر الفلسطينية في الداخل والخارج ، والصراعات الاجتماعية المختلفة في العالم العربي وعلى المستوى الدولي[11] . «وتؤكد أن موقفها يعكس استراتيجية الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في ربط الصراع الفلسطيني مع الاحتلال بالصراع الأكبر لتنوير العالم العربي من أجل حياة أفضل لأبنائه» . وتؤكد ليلى «إنه صراع طبقي عالمي ، فالفقراء يملأون شوارع أمريكا وأوروبا ، وحتى في إسرائيل بدأ الشباب يتململون ويطالبون بالعدالة الاجتماعية ، وتحاول الحكومة

الإسرائيلية رشوتهم للذهاب إلى المستوطنات لكنهم يرفضون ، وحين تواجه إسرائيل مشاكل من هذا النوع تتوجه لضرب غزة ، وتثير حرباً تدفع الإسرائيليين إلى تأييد الحكومة . إنها مشكلة النظام الرأسمالي عموماً ، والتي ظهرت بوضوح بعد الانهيار الاقتصادي الأخير في أمريكا والدول الأوروبية . لقد دفع الوضع الاقتصادي الشباب إلى الاحتجاج في وول ستريت وجميع أنحاء أوروبا . ميركل وساركوزي يريدان احتلال اليونان . أما الصين فهي تحتل العالم بالفعل ، ولكن بمنتجاتها التي تغرق الأسواق ، وبعد كل ذلك يبقى الأغنياء طبقة صغيرة جداً على مستوى العالم ، تقابلها طبقة أخذت تكبر أكثر فأكثر من فقراء العالم أجمع» .

ظهر عدد لا بأس به من التقارير الإخبارية عن ليلى خالد وعدد من المقابلات الصحفية معها في السنوات العشر الأخيرة ، وبالإضافة لذلك حاول بعض المهتمين إخراج أفلام وثائقية عن حياتها وسيرتها النضالية ، لكنهم جوبهوا بصعوبات بالغة وعوائق متكررة . وتتعاطف ليلى مع الإعلاميين الذين يتعاطون الشأن الفلسطيني ، لما يلاقونه من عنت السلطات الإسرائيلية إذا ما حاولوا التصوير داخل إسرائيل .

تحكي ليلى قصة إعلامية فرنسية قائلة : «اتصلت بي سيدة فرنسية تطلب موافقتي على إنتاج فيلم وثائقي عن حياتي ، فقلت لها لا مانع لدي ، وأنا على استعداد للتعاون

معك ، لكن طلبها الأول كان أنها تريد تصوير جزء من الفيلم في حيفا ، وأنني لا بد أن أذهب معها إلى هناك! ودُهشت عندما أخبرتها أنني لا أستطيع الذهاب إلى هناك ، أما الأدهى من ذلك أن السلطات الإسرائيلية سحبت التأشيرة التي كانت قد منحتها للإعلامية الفرنسية سابقاً ، عندما علمت بموضوع الفيلم الذي تود إنتاجه» .

أما المخرجة لينا مقبول التي قدّمت فيلم «ليلى خالد : الخاطفة» الحاصل على جائزة أفضل فيلم وثائقي ، فتؤكد لينا أنها واجهت صعوبات مماثلة ، فقد واجهت تحقيقاً مفصلاً من السلطات الإسرائيلية عندما زارت إسرائيل لمقابلة الطيار الذي كان على متن الطائرة التي خطفتها ليلى . كما تحفظ التلفزيون السويدي على ميزانية الفيلم ، ووضع شروطاً إضافية لإنتاجه ، ولم يعرضه التلفزيون السويدي ، المنتج الأساسي للفيلم ، على شاشته إلا بعد أن عُرض في عدة مهرجانات في أوروبا ولاقى نجاحاً كبيراً .

يتساءل كثيرون ، لماذا لا تكتب ليلى مذكراتها بنفسها؟ وفي ردها تقول ليلى إنها حاولت تخصيص وقت للكتابة عام ١٩٩٦ لكن «لم أجد الوقت الكافي في ذلك الوقت ، فقد كان هناك الكثير من العمل والتنقلات ، والكتابة تحتاج إلى تفرغ تام ، ولذلك كان من السهل عليّ أن أتحدث وليس أن أكتب» . أما زوجها فايز فقد اقترح عليها أن تعمل مع شخص آخر تُملي

عليه مذكراتها ، ويصوغها هو بطريقته ، لكن آخرين وجدوا أن ليلى لا بدّ أن تكتب بنفسها لتنقل حماستها الخاصة على الورق .

ترى ليلى أن سيرة حياتها جزء لا يتجزأ من مسيرة الحركة التي تنتمي إليها ، وليس لديها حياة خاصة تؤرخ لها بعيداً عن عملها السياسي والحزبي ، وتقول في السياق ذاته «لقد كان لدينا مركز أبحاث ضخم في السبعينات في بيروت ، مهمته توثيق تاريخ المقاومة الفلسطينية ، وعندما دخل الإسرائيليون إلى بيروت وقت الاجتياح ، كان المركز وجهتهم الأولى ، فاستولوا على جميع الوثائق الموجودة فيه ، واضطرت منظمة التحرير إلى مقاضاة إسرائيل في المحاكم الدولية لإعادة بعض الوثائق ، وعندما سئل الإسرائيليون عن هدفهم من الاستيلاء على وثائق المقاومة ، كانت الإجابة «لقد أردنا أن نعرف كيف يفكر الفلسطينيون بنا» .

تختزن ذاكرة ليلى خالد عدداً لا يحصى من القصص والأشخاص الذين قابلتهم حول العالم ، ومن هؤلاء أشخاص أطلقوا على بناتهم اسم ليلى ، تيمناً بليلى خالد ، سواء في باكستان أو في لبنان أو الأردن أو بريطانيا . ولا زالت ليلى تحتفظ برسالة من سيدة يابانية تقول فيها إنها أرادت تسمية ابنتها ليلى لأنها كانت معجبة بليلى خالد ، لكن حرف اللام شكل عقبة أمامها لأن نطقه صعب جداً في اللغة اليابانية ،

فاختارت لابنتها اسماً قريباً . وعلى عكس رأي أمثال الكاتبة والناشطة الأمريكية روبن مورغان التي اتهمتها بالغرور[12] ، تبدو ليلى خالد متواضعة جداً ، وتتأثر بصدق بحب الناس لها ، ولا زالت تذكر حتى الآن قصة الرجل الباكستاني الذي أحضر ابنته ليلى لزيارتها في فندقها في باكستان في الخامسة صباحاً ، بعد أن قطع مئات الأميال من بلدته بصحبة ابنته ليراها ويعرفها على ابنته التي تحمل اسمها . وتقول ليلى : «كان ذلك الموقف مؤثراً جداً بالنسبة لي . وأنا دائماً أشعر بالفخر في مثل هذه المواقف ، لكن مع الفخر يأتي إحساس طاغ بالمسؤولية تجاه كل من آمنوا بي وبما قمت به في سنوات الكفاح ، هذا الشعور يمنحني القوة في الأوقات الصعبة ، ويزيدني إرادة وتصميماً على إكمال مشواري من أجل أبناء شعبي ، من أجل أولئك الذين حملوا اسمي» .

لقد كانت ليلى خالد جزءاً من الكفاح الفلسطيني لاستعادة الأرض الفلسطينية خلال خمسين عاماً مضت ، وقد شهدت عدداً من عمليات السلام تحيا وتموت ، دولاً عظمى ولاعبين إقليميين يبدلون ولاءاتهم وتكتيكاتهم ، قادة كباراً يغيرون مواقفهم ، والكثير الكثير من التغيرات الإقليمية والدولية ، لكنها ظلت ثابتة على ما آمنت به منذ البداية ، استعادة الأرض وحق العودة لجميع الفلسطينيين . وقد شاركت مؤخراً في مشروع «عندما أعود» الذي وثّق أحلام عدد كبير من

الفلسطينيين حول أول عمل سيقومون به عندما يعودون إلى فلسطين ، بالنسبة لليلى خالد فأول ما ستقوم به عندما تعود إلى فلسطين : «سأنام تحت شجرة برتقال ثلاثة أيام» هذا ما كتبته ليلى في مشروع «عندما أعود»[13] .

تؤكد ليلى «ليس عندي أدنى شك في استعادة فلسطين ، فالمستقبل دائماً للشعوب ، وتلك حقيقة تعلمناها من قراءة التاريخ ، حينما يوجد احتلال ستوجد مقاومة بالتأكيد ، وفي تاريخ فلسطين ، أتى الرومان والصليبيون والعثمانيون ، ثم ذهبوا جميعاً وظل الفلسطينيون . ونحن لدينا الإرادة والتصميم ، جيلاً بعد جيل نحمل هذه الفكرة ، وأنا أؤمن بشعبي وبالشرفاء حول العالم الذين يساندون الفلسطينيين لاسترجاع حقوقهم المشروعة» .

وتضيف ليلى : «في البداية كنا نقول لا يمكن أن نتعايش مع الإسرائيليين في فلسطين ، ولكن اليوم هناك أربعة أو خمسة ملايين إسرائيلي في فلسطين ، وليس من المنطقي أن نطالب بإخراجهم ، وما ذنب الأطفال الذين وُلدوا في إسرائيل بعد أن استوطن أهلهم البلاد ، هذا يعني أن المفتاح الحقيقي لحل قضيتنا هو منح حق العودة للاجئين الفلسطينيين ليعودوا إلى بلادهم وقراهم ومدنهم التي أخرجوا منها . قد يستغرق ذلك خمسين عاماً أخرى ، ولكن ننظر أيضاً إلى المجتمع الإسرائيلي حيث نجد أصواتاً مختلفة تطالب بإنهاء الاحتلال ، وتقف ضد

سياسة الفصل العنصري ، وتعارض سياسة الحكومة القمعية . وهناك أصوات أخرى ترفض التجنيد ، ويتساءل الشباب ، «لماذا علينا أن نكون دائماً في حالة حرب مع الجميع؟» ، وتقف الأمهات في وقفات احتجاجية أمام رئاسة الوزراء الإسرائيلية ، حاملات صور الأبناء الذين قتلوا في الحروب الإسرائيلية ، كل هؤلاء الناس ، وكل تلك الأصوات لن تنتظر إلى الأبد ، ولا بد أن يتمخض كل ذلك عن تغيير في اللعبة السياسية ، ولكن ما لم يتم طرح حل عادل لمسألة الأرض والاعتراف بحق العودة لجميع الفلسطينيين ومن ثم ممارسة هذا الحق ، فلن يكون هناك سلام حقيقي أبداً ، وسيظل الصراع مستمراً لأجيال قادمة ، وتقول ليلى : «ستتجمع كل عوامل الصراع ، وتؤدي إلى حلّ في النهاية ، ولا أعتقد أنني سأشهد ذلك في حياتي ، ولكن بالتأكيد ستجني الأجيال القادمة ثمرة كفاحنا» .

المصادر والمراجع

تستند كثير من المعلومات عن حياة ليلى خالد ، التي وردت في هذا الكتاب ، إلى مقابلات شخصية أجريتها مع ليلى في منزلها في عمان في الأردن خلال شهر سبتمبر عام ٢٠٠٨ ، بالإضافة إلى مراسلات إلكترونية ، ولقاءات عبر سكايب خلال شهر نوفمبر عام ٢٠١١ .

بالنسبة للمقاطع المنسوبة إلى السيد خليل مقدسي من قسم اللغة الإنجليزية في الجبهة الشعبية ، فتستند إلى حديث هاتفي مطول مع السيد خليل في سبتمبر عام ٢٠٠٩ .

أما تعليقات ليندا كلير فتستند إلى مقابلة شخصية أجريتها معها في يوليو عام ٢٠٠٨ ، وهناك عدد آخر من التعليقات والمعلومات التي حصلت عليها من فلسطينيين فضلوا عدم نشر أسمائهم ، وقد أجريت معهم عدة لقاءات في الضفة الغربية وإسرائيل في يناير عام ٢٠٠٨ ، ومارس وإبريل من عام ٢٠٠٩ ، بالإضافة إلى لقاءات جرت في مانشستر عام ٢٠٠٩ .

الهوامش

هوامش المقدمة
INTRODUCTION

1. Rosemary Sayigh, *Palestinians: From Peasants To Revolutionaries* (London: ed Books, 1979), 144-52.
2. Robin Morgan, *The Demon Lover5: On the Sexuality of Terrorism* (London: Mandarin 1988), 252.
3. See, for example, http://saroujah. blogspot.com /2005/03/ life-on-death-row. html and http://robertlindsay.blogspot.com/2006/03/pflp-leader-saadat-seized-in-jericho.html.
4. Fawzia Afzal-Khan, "Bridging the Gap Between So-Called Postcolonial and Minority Women of Color: A Comparative Methodology for Third World Feminist Literary Crticism," in *Womanist Theory and Research*, vols. 2.101.2 (1996-97).
5. Quoted in Miriam Shaviv, "Fighting For Their Own Liberation," *Jerusalem Post*, February 8, 2002.
6. Morgan, *The Demon Lover*, 211.
7. Ibid.

هوامش الفصل الأول
CHAPTER 1

1. Mary Eliza Rogers, *Domestic Life in Palestine* (London: Kegan Paul 1862/1989), 85.
2. Martin Gilbert, *Israel: A History* (London: Doubleday 1998), 22, 50, 54.
3. Ibid., 61.
4. Ibid., 94.
5. Albert Hourani, *A History of the Arab Peoples* (London: Faber &

Faber, 1991, 321-2.

6. Benny Morris (ed.), *Making Israel* (Ann Arbor: University of Michigan Press, 2007), 21.
7. Gilberf, *Israel*: A History, 132.
8. Ibid., 158, 162.
9. Morris, *Making Israel*, 21.
10. Ibid., 20.
11. Gilbert, *Israel: A History*, 162.
12. Morris, *Making Israel*, 22.
13. Leila Khaled and George Hajjar, *My People Shall Live: The Autobiography of a Revolutionary* (London: Hodder & Stoughton, 1973), 24.
14. Daniel McGowan and Marc H. Ellis, *Remembering Deir Yassin: The Future of Israel and Palestine* (New York: Olive Branch Press, 1998), 3.
15. Khaled, *My People Shall Live*, 25.
16. Ibid., 26.
17. Ibid., 28.
18. Eileen MacDonald, *Shoot the Women First* (London: Arrow Books, 1991), 97.
19. Ibid., 30-1.
20. Ibid., 43.
21. Ibid., 44-5.
22. May 15 was the date of the British withdorawal of its Mandate from Palestine, opening the way for the declaration of the State of Israel.
23. The 1917 Balfour Declaration was a letter from the British Foreign Secretary to Lord Rothschild, stating that "His Majesty's government view with favour the establishment in Palestine of a national home for the Jewish people, and will use their best endeavours to facilitate the achievement of this object, it being clearly understood that nothing shall be done which may prejudice the civil and religious rights of

existing non-Jewish communities in Palestine, or the rights and political status enjoyed by Jews in any other country."

24. Khaled, *My People Shall Live*, 44.
25. R. K. Karanjia, *Arab Dawn* (London: Lawrence & Wishart 1959), 172-4.
26. Robert Fisk, *Pity the Nation: Lebanon at War* (Oxford: Oxford University Press, 1990/2001), 69-73.
27. Walid Kazziha, *Revolutionary Transformation in the Arab World: Habash and his Comrades from Nationalism to Marxism* (London/Tonbridgs: Charles Knight & Co, 1975), 63-4.
28. Khaled, *My People Shall Live*, 45.
29. Ibid., 48.
30. MacDonald, *Shoot the Women First*, 105.
31. Khaled, *My People Shall Live*, 47.
32. Kazziha, *Revolutionary Transformation in the Arab World*, 20-1.
33. MacDonald, *Shoot the Women First*, 105.
34. Khaled, *My People Shall Live*, 38-9.
35. MacDonald, *Shoot the Women first*, 104.
36. Khaled, *My People Shall Live*, 51.
37. Ibid., 53.
38. As'ad AbuKhalil, "Internal Contradictions in the PFLP: Decision Making and Policy Determination." *Middle East Journal*, vol. 41. no. 3 (Summer, 1987), 364-5.
39. Khaled, *My People Shall Live*, 59.
40. Ibid., 63.
41. Ibid., 76.
42. Ibid., 79.
43. Ibid., 84.
44. Ibid., 80.
45. Muhsin Ibrahim in Al-Hurriya, May 2, 1960, quoted in Kazziha, *Revolutionary Transformation in the Arab World*, 65.

46. Kazziha, *Revolutionary Transformation*, 67-80; George Habache and Georges Malbrunot, *Les revolutionnaires ne meurent jamais: conversations avec Georges Malbrunot* (Paris: Editions Fayard, 2008), Chapters 3-5.
47. Alain Gresh, The PLO: *The Struggle Within* (London: Zed Books, 1983), 26.
48. Khaled, *My People Shall Live*, 90.
49. Kazziha, *Revolutionary Transformation in the Arab World*, 83-4.
50. Raid El-Rayyes and Dunia Nahas, *Guerrillas for Palestine* (London: Portico Publications, 1976), 15.
51. AbuKhalil, *Internal Contradictions in the PFLP*, 361.
52. Khaled, *My People Shall Live*, 82.
53. Ibid., 106.
54. Rayyes and Nahas, *Guerrillas for Palestine*, 16.
55. Khaled, *My People Shall Live*, 104-6.
56. Ibid., 116.

هوامش الفصل الثاني

CHAPTER 2

1. Kazziha, *Revolutionary Transformation in the Arab World*, 84.
2. Samuel M. Katz, *Israel vs Jibril: The Thirty-Year War Against a Master Terrorist* (New York: Paragon House, 1993), 24.
3. Yonah Alexander, *Palestinian Secular Terrorism* (Ardsley: Transnational Publishers, 2003), 41, 45.
4. David Macey, *Frantz Fanon: A Life* (London: Granta, 2000), 24, 295, 369; Rayyes and Nahas, *Guerrillas for Palestine*, 21.
5. Rayyes and Nahas, *Guerrillas for Palestine*, 15.
6. Khaled, My *People Shall Live*, 81.
7. MacDonald, *Shoot the Wowen First*, 106.
8. Khaled, *My People Shall Live*, 118.
9. MacDonald, *Shoot the Women First*, 107.

10. Khaled, *My People Shall Live*, 123.
11. Ibid., 124.
12. MacDonald, *Shoot the Women First*, 107.
13. Ibid., 109.
14. Khaled, *My People Shall Live*, 133.
15. MacKonald, *Shoot the Women First*, 110.
16. Khaled, *My People Shall Live*, 133.
17. Ibid., 135.
18. MacDonald, *Shoot the Women First*, 111.
19. Ibid., 110.
20. Khaled, *My People Shall Live*, 137.
21. MacDonald, *Shoot The Women First*, 112.
22. Khaled, *My People Shall Live*, 148.
23. Ibid., 140.
24. David Raab, *Terror in Blacke September: The First Eyewitness Account of the Infomus 1970 Hijackings* (New York: Palgrave Macmillan, 2007), 11.
25. Ibid., 12.
26. *Observer*, August 31, 1969.
27. MacDonald, *Shoot The Women First*, 116.
28. Khaled, *My People Shall Live*, 144.
29. *Observer*, August 31, 969.
30. Khaled, *My People Shall Live*, 143.
31. Sayigh, *Palestinians: From Peasants to Revolutionaries*, 189.
32. *Observer*, August 31, 1969.
33. MacDonald, *Shoot The Women First*, 97, and Rosana Guber, "Um gaucho e dezoito condores nas Ilhas Malivinas: identidade política e nação sob o autoritarismo argentiono," *Mana* (Brazil), vol. 6, no.2 (2000) (article pdf downloaded from scielo. br).
34. Khaled, *My People Shall Live*, 16.
35. Ibid., 157.

36. MacDonald, *Shoot The Women First*, 116.

37. Khaled, *My People Shall Live*, 168.

38. AbuKhali, *Internal Contradictions in the PFLP*, 370.

هوامل الفصل الثالث

CHAPTER3

(١) بدأت فكرة تكوين كيان سياسي للفلسطينيين في الخمسينات على يد بعض الفلسطينيين وعدد من الزعماء العرب ، وقد تم إعلان ولادة منظمة التحرير الفلسطينية في القمة العربية التي عقدت في القاهرة عام ١٩٦٤ ، برئاسة الزعيم جمال عبدالناصر ، وتم توكيل أحمد الشقيري بمهمة تنظيم الفلسطينيين تحت راية منظمة التحرير . كان أحمد الشقيري دبلوماسياً فلسطينياً ، خدم في الخارجية السورية لعدة سنوات ، ثم عمل مع الحكومة السعودية والجامعة العربية ، حسب أقوال هيلينا كوبان . ظلت منظمة التحرير كياناً خاملاً لعدة سنوات ، وارتبطت بالأنظمة العربية وهزيمتها في الحرب مع إسرائيل عام ١٩٦٧ ، حتى سيطر عليها تنظيم فتح بقيادة ياسر عرفات ، الذي أُنتخب رئيساً للمنظمة عام ١٩٦٩ ، ووقعت معظم الفصائل الفلسطينية ، بما فيها الجبهة الشعبية ، ميثاق وحدة في مايو ١٩٧٠ ينص على انضواء جميع فصائل المقاومة تحت مظلة منظمة التحرير الفلسطينية .

2. Asher Susser, *On Both Banks of the Jordan: A Political Biography of Wasfi al-Tall* (London: Frank Cass, 1994), 47-52.

3. David Pryce-Jones, *The Face of Defeat* (London: Quartet, 1974), 44.

4. Amal Kawar, *Daughters of Palestine: Leading Women of the Palestinian National Movement* (Albany: State University of New York Press, 1996), 32.

5. Pryce-Jones, *The Face of Defeat*, 45.

6. Ibid., 47.

7. Ibid., 140.
8. Khaled, *My People Shall Live*, 169.
9. Ibid., 170.
10. Kawar, *Daughters of Palestine*, 43.
11. MacDonald, *Shoot the Women First*, 100.
12. Khaled, *My People Shall Live*, 182.
13. Peter Snow and David Phillips, *Leila's Hijack War: From the Day of the Mass Hijack to the Day of Nasser's Funeral* (London: Pan Books, 1970), 79.
14. Ibid., 80.
15. Raab, *Terror in Black September*, 22.
16. Khaled, *My People Shall Live*, 187.
17. Annie Wu, "The History of Airport Security," US National Public Radio transcript, 2004, http://savvytraveler.publicradio.org/show/features/2000/20000915/security.shtml
18. Khaled, *My People Shall Live*, 185.
19. MacDonald, *Shoot the Women First*, 121.
20. Ibid.
21. Raab, *Terror in Black September*, 17.
22. Ibid., 18.
23. Ibid., 19.
24. MacDonald, *Shoot the Women First*, 122.
25. Raab, *Terror in Black Septmber*, 19.
26. Khaled, *My People Shall Live*, 189.
27. Raab, *Terror in Black September*, 19.
28. *Guardian*, October 10, 1970.
29. Stanley Stewart, *Emergency: Crisis on the Flight Deck* (Marlborough: Airlife Publishing, 1989), 107.
30. Raab, *Terror in Black September*, 20.
31. Khaled, *My People Shall Live*, 191.

32. MacDonald, *Shoot the Women First*, 124.
33. Khaled, *My People Shall Live*, 198.
34. Stewart, *Emergency: Crisis on teh Flight Deck*, 108.
35. Ibid., 109.
36. Ibid., 106.
37. Ibid., 120.
38. *Guardian*, September 13, 1970.
39. Raab, *Terror in Black September*, 29.
40. Snow and Phillips, *Leila's Hijack War*, 25.
41. Raab, *Terror in Black September*, 85.
42. Snow and Phillips, *Leila's Hijack War*, 29.
43. *Guardian*, September 10, 1970.
44. Khaled, *My People Shall Live*, 200.
45. MacDonald, *Shoot the Women First*, 129.
46. Snow and Phillips, *Leila's Hijack War*, 174.
47. MacDonald, *Shoot the Women First*, 130.
48. Snow and Phillips, *Leila's Hijack War*, 175.

هوامش الفصل الرابع

CHAPTER4

1. Rayyes and Nahas, *Guerrillas for Palestine*, 22.
2. Fisk, *Pity the Nation*, 71.
3. See, e.g., Rima Sabban in Nahid Toubia (ed.), *Women of the Arab World* (London: Zed Press, 1988), 124.
4. Markar Melkonian, *My Brother's Road: An American's Fateful Journey to Armenia* (London/New York: I. B. Tauris, 2997), 76.
5. Guardian, June 6, 1972.
6. AbuKhalil, *Internal Contradictions in tbe PFLP*, 367.
7. *Guardian*, April 3, 1978.
8. See for example Katz, *Israel ve Jibril*.
9. AbuKhalil, *Internal Contradictions in the PFLP*, 363.

10. Khaled, *My People Shall Live*, 123, 168.
11. Yukiko Miyagi, "China's Palestine Policy," unpublished CASAW workship paper, delivered at Durham University, October 2009.
12. Bassam Abu-Sharif and Uzi Mahnaimi, *Tried by Fire: The Searing True Story of Two Men at the Heart of the Struggle Between the Arabs and the Jews* (London: Little, Brown & Co, 1995), 97.
13. *Guardian*, June 5, 1973.
14. Abu-Sharif and Mahnaimi, *Tried by Fire*, 200.
15. Julie Peteet, "Women and the Palestinian Movement: No Going Back?," in Saud Joseph and Susan Slyomovics (eds.), *Women and Power in the Middle East* (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2001).

هوامش الفصل الخامس

CHAPTER 5

1. Shamillah Wilson, Anasuya Sengupta And Krsty Evans, *Defending Our Dreams: Global Feminist Voices For a New Ceneration* (London / New York: Zed Books, 2005), 144.
2. Souad Dajani, "Between National and Social Liberation: The Palestinian Women's Movement in the Israeli Occupied West Bank and Gaza Strip," in Tamar Mayer (ed.), *Women and the Israeli Occupation: The Politics of Change* (London: Routledge, 1994), 33' and Sarah Graham-Brown, "Women's Activism in the Middle East: A Historical Perspective," in Joseph and Slyomovics, *Women and Power in the Middle East*, 28.
3. Joseph Massad, "Conceiving the Masculine: Gender and Palestinian Nationalism," *Middle East Journal*, vol. 49, no. 3 (Summer, 1995), 467, 470-1, 474.
4. Frances Hasso, "Modernity and Gender in Arab Accounts of the 1948 and 1967 Defeats," *International Journal of Middle East Studies*, vol. 32, no.4 (November 2000), 492.

5. Hamida Kazi, *Palestinian Women and the National Liberation Movement: A Social Perspective*, in Khamsin Collective (ed.), Women in the Middle East (London: Zed Books, 1987), 28.
6. Rita Giacaman and Muna Odeh, "The Palestinian Women's Movement in the Israeli-Occupied West Band and Gaza Strip," in Toubia (ed.), *Women of the Arab World*, 58.
7. Soraya Antonius, "Fighting on Two Fronts: Conversations with Palestinian Women," *Journal of Palestine Studies*, vol. 8, no.3 (Spring, 1979), 26-45, 36.
8. Kazi, *Palestinian Women and the National Liberation Movement*, 28.
9. Peteet in Joseph and Slyomovics (ed.), *Women and Power in the Middle East*, 136.
10. Giacaman and Odeh in Toubia (ed.), *Women of the Arab World*, 60.
11. Peteet in Joseph and Slyomovics (eds.), *Women and Power in the Middle East*, 139.
12. Peteet, "Women and the Palestinian Movement," 137.
13. Antonius, *Fighting on Two Fronts*, 28-9.
14 Abu-Sharif and Mahnaimi, *Tried by Fire*, 232-3.
15. Wenona Giles, Malathi de Alwis, Edith Klein and Neluka Silva (eds.), *Feminists Under Fire: Exchanges Across War Zones* (Toronto: Between the Lines, 2003), 1.
16. Ibid., 11.
17. Morgan, *The Demon Lover*.
18. Dajani, "Between National and Social Liberation," 33-61' also Rita Giacaman, Islah Jad, and Penny Johnoson, "For the Common Good? Gender and Social Citizenship in Palestine," and Rita Giacaman and Penny Johnson, "Searching for Strategies: The Palestinian Women's Movement in the New Era," both in Joseph and Slyomovics, *Women and Power in the Middle East*, 126-34 and 150-8.
19. Kawar, *Daughters of Palestine*, 58-9.
20. Miyagi, "China's Palestine Policy."

(٢١) يبدو المشهد الذي ترويه ليلى مشابهاً جداً لأحد مشاهد الفيلم الألماني «عقدة بادر-مانيهوف» الذي أنتج عام ٢٠٠٨ ، حيث يتم طرد مجموعة من أعضاء الجيش الأحمر لتعريهم وممارساتهم الجنسية ، عند زيارتهم لأحد معسكرات التدريب الفلسطينية . ويبدو أن موضوع المحافظة الجنسية لدى أعضاء التيارات اليسارية الفلسطينية مقابل التحرر الجنسي الذي تبنته الأحزاب اليسارية الغربية في السبعينات ، كان موضوعاً رئيسياً في عدد من الكتابات الغربية والإسرائيلية ، بالإضافة لبعض الروايات ، مثل رواية جون لوكاريه «قارعة الطبل الصغيرة» .

22. *Guardian*, July 18, 1980.
23. Morgan, *The Demon Lover*, 209-10.
24. Kawar, *Daughters of Palestine*, 62.
25. *Guardian*, July 18, 1980.
26. Aitemad Muhanna, "The Leftist and Islamic Movements in Gaza: Conflating Ideolgy and Practice?," unpublished conference paper delivered at the School of Oriental and African Studies, February 27-28, 2010; see also page 126 of this volume.
27. Antonius, *Fighting on Two Fronts*, 30.
28. Ibid., 33.
29. Alexander, *Palestinian Secular Terrorism*, 33.
30. Kazziha, *Revlutionary Transformation in the Arab World*, 23.
31. 31. Alexander, *Palestinian Secular Terrorism*, 38.
32. Sayigh, *Palestinians: From Peasants to Revolutionaries*, 165.
33. Ibid., 180.
34. Kawar, *Daughters of Palestine*, 85-6.
35. Amal Kawar, "Palestinian Women's Activism after Oslo,"in Suha Sabbagh (ed.), *Palestinian Women of Gaza and the West Bank* (Indianapolis: Indiana University Press, 1998), 239.

36. Said K. Aburish, *Arafat: From Defender to Dictator* (London: Bloomsbury, 1998).

37. Joost Hiltermann, "The Women's Movement During the Uprising," in Sabbagh (ed.), *Palestinian Women of Gaza and the West Bank*, 41, 41-52. 42-3.

38. www.upwc.org.ps, August 1, 2011.

39. "Union of Palestinian Women's Committees: Farewell to Comrade Leader Maha Nassar," www.pflp.ps, October 14, 2008.

40. Kawar, *Daughters of Palestine*, 103.

41. Ibid., 102.

42. Giacaman and Johnson, "Searching for Strategies," 156.

هوامش الفصل السادس

CHAPTER 6

1. "'This calm Will Not Last': Jon Elmer Interviews Palestinian Icon Leila Khaled," IPS News Service, November 4, 2009.

2. "Jailed PFLP leader: Only a One-State Solution is Possible," Ha'aretz, May 5 2010, http://www.haaretz.com/news/diplomacy-defense/jailed-pflp-leader-only-a-one-state-solution-is-possible-1.288412.

3. "A Just Solution is the Way Out of Conflict," An Phoblacht, August 11, 2005.

4. *New York Times*, February 20, 1996.

5. *Guardian*, April 22, 1987.

6. "'This Calm Will Not Last'," IPS News Service, November 4, 2009.

7. Joel Beinin, "The Israeli-Palestinian Conflict and the Arab Awakenin," *Middle East Report Online*, August 1, 2011.

8. "An Interview with Khalida Jarrar of the Popular Front for the Liberation of Palestine (PFLP), " Alternative Information Centre, May 12, 2009.

9. Joe Stork, *Erased in a Moment: Suicide Bombing Attacks Against*

Israeli civilians (New Nork: Human Rights Watch, 2002), 89.

10. Taped interview by Mike Walker, April 6, 2010, transcript and YouTube video link via http://wpnz-pflp-solidarity.blogsport.com.
11. Greg Philo and Mike Berry, *Bad News From Israel* (London: Pluto Press, 2004).
12. http://www.btselem.org/English/Statistics/Casualties.asp.
13. Barbara Victor, *Army of Roses: Inside the World of Palestinian Women Suicide Bombers* (london: Constable and Robinson, 2004), 142.
14. Ibid., 63.
15. Giacaman, Jad and Johnson, "For the Common Good? Gender and Social Citizenship in Palestine," 146.
16. Kawar, *Daughters of Palestine*, 115-17.
17. Muhanna, "The Leftist and Islamic Movements in Gaza."
18. "What Makes a Woman go to War?," www.rt.com, May 20, 2011.
19. Kawar, *Daughters of Palestine*, 117.
20. Khaled Hroub, *Hamas: A Beginner's Guide* (London/Ann Arbor: Pluto press, 2006), 76-7.

هوامش الفصل السابع

CHAPTER 7

1. "Palestine on the Table at World Social Forum in Kenya," Palestine News Network, January 24, 2007.
2. "A Just Solution is the Way Out of Conflict," *An Phoblacht*, August 11, 2005.
3. "Comrade Leila Khaled Meets with Nicaraguan President Ortega," www.pflp.ps, November 2010.
4. "Former Palestinian Guerrilla Commander Khaled in Mersin," Firat News Agency, June 4, 2011.
5. "Something Rotten in Sweden," www.ynetnews.com, May 6, 2011.
6. "Messaggi di solidarietà alla FIOM da organismi internazionali,"

www.carc.it, October 15, 2010.

7. Beinin, "The Israeli-Palestinian Conflict and the Arab Awakening."
8. Jesse Rosenfeld and Joseph Dana, "A Palestinian Revolt in the Making?," *The Nation*, May 26, 2011.
9. Beinin, "The Israeli-Palestinian Conflict and the Arab Awakening."
10. Ahmed Moor, "Learning From Leila," This Week in Palestine, April 2011.
11. "BDS Breaking New Barriers," *Al-Ahram Weekly*, May 4, 2011.
12. Morgan, *The Demon Lover*, 209.
13. US Palestinian Community Network, http://whenireturn.uspcn.org

أمام محرك الطائرة المخطوفة

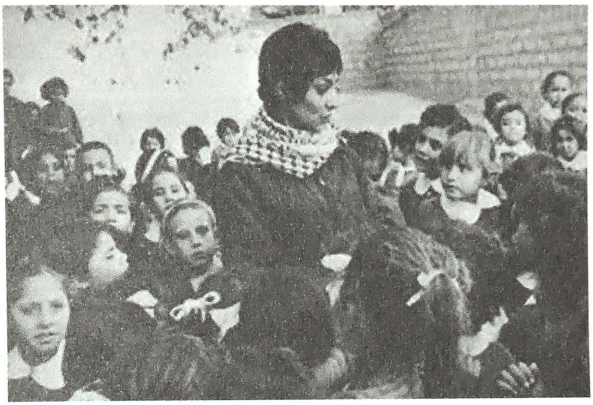

مع طلبة المدارس

ليلى خالد مبتسمة وهي تحمل الكلاشينكوف

ليلى خالد مع رسام الكاريكاتير البرازيلي كارلوس لاتوف أثناء انعقاد المنتدى العالمي الاجتماعي في نيروبي عام ٢٠٠٧,

المصدر : كارلوس لاتوف

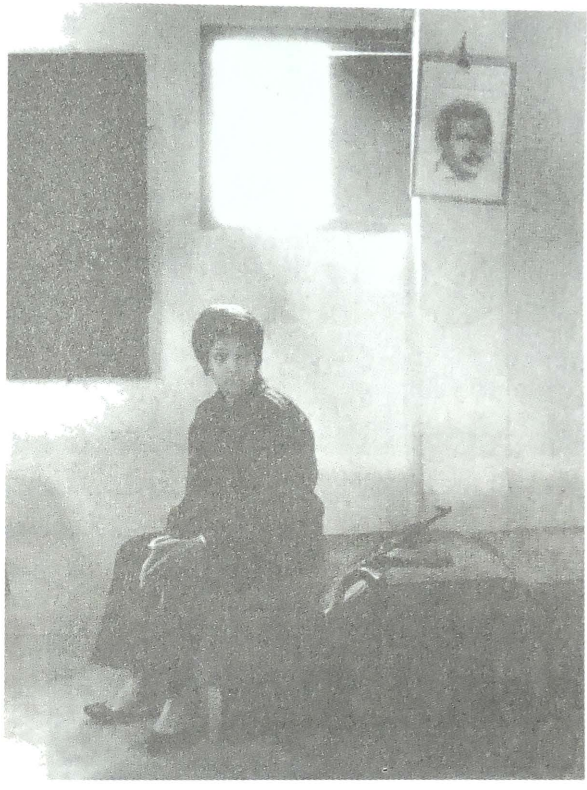

ليلى خالد في أحد المخيمات الفلسطينية في بيروت حوالي عام ١٩٧٤-١٩٧٥ .

المصدر : Terry Fincher/ Getty Images

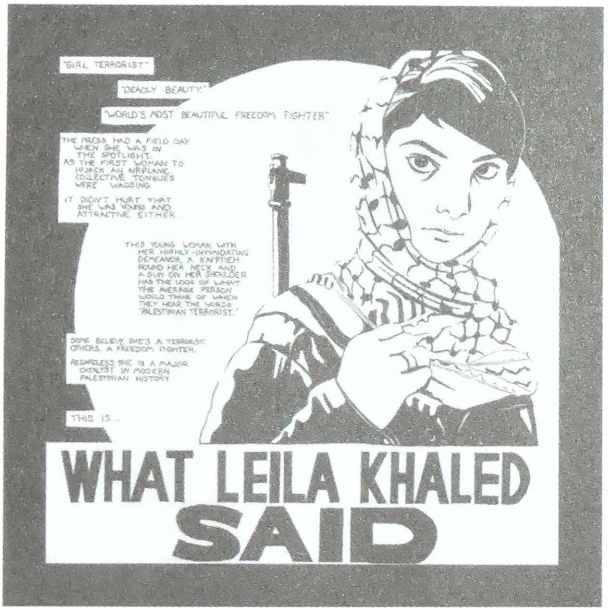

صورة للفنانة مارغريت دبامي ، تظهر فيها ليلى خالد ، تحاول مارغريت أن تُظهر فيها معاناتها الشخصية بوصفها فلسطينية مسيحية نشأت في الولايات المتحدة .

المصدر : (Marguerite Dabaie) (www.margoyle.net)

صورة ليلى خالد الأيقونية على جدار العزل الإسرائيلي في بيت لحم ، أما الصورة الأصلية فقد التقطها المصور إيدي آدمز ، المشهور بالتقاط صورة الجنرال نجوين نجوك لون وهو يقوم بإعدام أحد سجناء الفيتكونج في أحد شوارع سايغون .

المصدر : سارة إرفنج

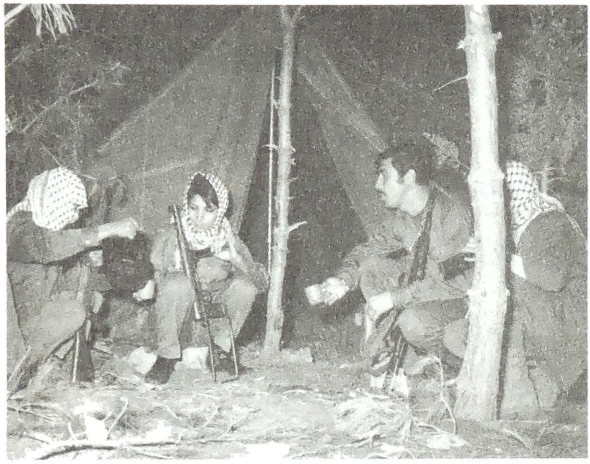

يظهر في الصورة أعضاء من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين يحتسون الشاي في أحد معسكرات التدريب حوالي عام ١٩٦٩ ، وتبدو في الصورة ليلى خالد في الوسط ويظهر رفيقها سليم العيساوي إلى اليمين .

المصدر : Popperfoto/ Getty Images

صورة ليلى خالد الشهيرة ، والتي تقول عنها كاترين فنير من صحيفة الغارديان : «الصورة التي صنعت من ليلى خالد رمزاً للتحرر الوطني الفلسطيني ، حيث تحمل السلاح فتاة رقيقة ، ويظهر شعرها اللامع من تحت الكوفية الفلسطينية ، فتبدو شبيهة بالممثلة أودري هيبورن بوجهها الخجول وعينيها اللتين ترفضان المواجهة» .

المصدر : AFP/Getty Images

ليلى خالد في منزلها في عمان ، سبتمبر عام ٢٠٠٨ .
المصدر : سارة إرفنج

ليلى خالد
أيقونة التحرّر الفلسطينيّ

تعيد سارة إرفنج، في كتابها «ليلى خالد: أيقونة التحرّر الفلسطينيّ»، اكتشاف الصورة الأيقونيّة للفتاة الفلسطينيّة المتّشحة بالكوفيّة وهي تستند على بندقيّتها متحاشيةً النظر إلى المصوّرين، وهي الصورة الّتي سادت وسائل الإعلام الغربيّة بعد أن نفّذت ليلى وزميلها عمليّة جريئة لخطف الطائرات عام ١٩٦٩ تحت قيادة الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين، بهدف لفت الأنظار إلى عدالة القضيّة الفلسطينيّة بالدرجة الأولى، ومن ثمّ مقايضة الرّكاب الرهائن بعدد من الأسرى الفلسطينيّين الّذين كانوا محتجزين في السجون الإسرائيليّة في ذلك الوقت.

لقد حدثت أمور كثيرة في مسيرة النضال الفلسطينيّ منذ ذلك اليوم حتّى الآن، ومرّت الجبهة الشعبيّة، الّتي ما زالت ليلى خالد تنتمي إليها، بالكثير من الصعوبات الّتي ترصدها سارة إرفنج معتمدة على مقابلات شخصيّة أجرتها مع ليلى خالد في عمّان حيث تقيم، بالإضافة إلى مقابلات أخرى مع عدد من أصدقائها دون أن تغفل الرجوع إلى آراء بعض منتقديها كذلك. وبحثت في أسباب تراجع دور اليسار الفلسطينيّ وبروز حركات الإسلام السياسيّ ممثّلاً بحركة حماس، كما عرضت لدور السلطة الفلسطينيّة وموقف اليسار الفلسطينيّ من اتّفاقات أوسلو ودورها في كبح الكفاح المسلّح والانتقال إلى النضال السياسيّ.

تحرص الكاتبة، في الفصول الأخيرة من الكتاب، على تحليل تجربة ليلى خالد في العمل الثوريّ من خلال الخطاب النسويّ الّذي يؤكّد على دور الرموز النسائيّة المهمّة في تغيير موقف المجتمع من المشاركة النسائيّة في كافّة المجالات وخاصّة ضمن الحركات اليساريّة الّتي تتبنّى ذلك الخطاب في أدبيّاتها، وتبحث مع ليلى أسباب تراجع المكتسبات النسائيّة للمرأة الفلسطينيّة بداية من فترة السبعينات. ومع ذلك، فقد حفل الكتاب بالكثير من القصص والمواقف الإنسانيّة في حياة ليلى خالد بعيدًا عن التنظير السياسيّ والمواقف الفكريّة، سردتها ليلى بتفاصيل مؤثّرة لتبقى شاهدًا على حقبة زمنيّة خصبة عاشها رجال ونساء شكّلوا جزءًا من التاريخ الفلسطينيّ الحديث.

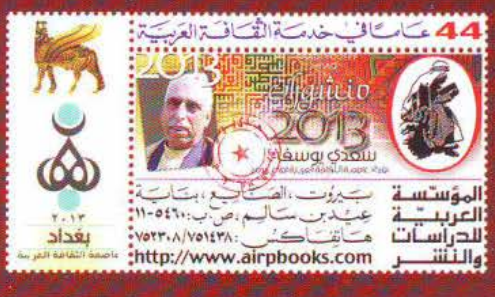

ISBN 978-614-419-330-3
9 786144 193303

مكتبة كلّ شيء
info@kul-shee.com
www.kul-shee.com